Arab_Books

عنود
حسن عبد الرزاق
علي بدر
زهراء الحبوبي
حسن بلاسم
مرتضى كزار
جلال نعيم
ضياء الجبيلي
خالد كاكي
إبراهيم المراشي

تحرير
حسن بلاسم

العراق+100

قصص فنطازية وخيال علمي

بعد مئة عام من الاحتلال للأميركي

ترجمة: فرح شرف

ألكا

هذه المجموعة من القصص مؤلمة، صعبة وضرورية، جميلة في كثير من الأحيان ودائماً مروعة.
- الإذاعة الوطنية - واشنطن

مبهرة ومربكة، هذه القصص ليست مجرد انعكاس للاضطرابات... بل هناك اتجاه خفي من الصلابة والتعاطف، ناهيك عن المتعة الكاملة في إطلاق العنان للخيال والكلمات المكتوبة.
- مجلة الأتلانتيك - واشنطن

مبدعة وخلاقة هذه الحكايات التي تُرجم العديد منها، فهي تدمج السريالي مع المألوف، موسعةً بذلك حدود الخيال التأملي، يتذوق القارئ كل قصة وهي تسبر أعماق أسئلة الوجود والاحتمالات وخطر المستقبل. قراءة هذا الكتاب ضرورية لكل عشاق الخيال العملي.
- مجلة بوبليشر ويكلي

تنطوي هذه المجموعة القوية من الخيال التأملي العراقي على شقين مؤثرين ولاذعين: فهي تحاكي قصصاً مستقبلية مثيرة للاهتمام ممزوجة بماض مؤلم ومشترك... ليس من المريح قراءة هذه الحكايات، ولكن القراء الساعين وراء خيال علمي مختلف سيقدرون هذه الأنطولوجيا.
- ليبراري جورنال

حكايات ستثيرك، وتقلقك وتلهمك... هذه القصص بمثابة نقد متحرك ومتبصر حول العراق، بل وحول العالم، كما أنها تقدم العديد من الرؤى المثيرة للاهتمام عن المستقبل.
- آر تي بوك رفيوز - بروكلين

10

العراق+١٠٠

ألكـــا

تحرير حسن بلاسم

ساعده:

نور حماني ورا بيج

العراق+ 100

قصص فنطازية وخيال علمي

بعد مئة عام من الاحتلال الأميركي للعراق

ترجمة: فرح شرف

ألكا

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٧ دار ألكـــــــا - بلجيكا

العراق+١٠٠

تحرير حسن بلاسم

ساعد في التحرير: نور حماني ورا بيج

الطبعة الأولى : ٢٠١٧

ترجمة القصص المكتوبة بالإنكليزية: فرح شرف

تصميم الغلاف والإخراج الفني: مارتن كيفن

توزيع دار الرافدين

IRAQ+ 100

Stories from a century after the invasion

edited by Hassan Blassim

with additional editorial support from

Noor Hemani & Ra Page

Original text copyright © Comma press-Manchester 2016

Arabic translation and publishing © Alca Books-Bruxelles 2017

ISBN: 978 1 77322 492 3

Chaussée de Haecht 57, Saint Josse 1210

Bruxelles/La Belgique

www.daralca.com/ info@daralca.com

مقدمة بقلم را بيج

مدير دار كوما بريس

يقولون أنّ أفضل أنواع الخيال العلمي، هو ذاك الذي يحدثنا عن المضمون الذي كتب في سياقه أكثر من المستقبل الذي يحاول التنبؤ به. يقدم المستقبل للكتّاب لوحةً بيضاء تمكنهم من نقل همومهم، بطرق جديدة وتجريدية. ولكن الهموم نفسها ما زالت تلامس وتحاكي "زمنهم".

كانت هذه هي الفكرة خلف العراق+ 100: تقديم مساحة للكتّاب لعرض مشاكل الحاضر، والتي كان الكثير منها نتائج مباشرة للاحتلال في العام 2003، بطريقة حرة وجريئة، من خلال الحكايات الرمزية للمستقبل، أو عبر العدسات الطويلة للخيال التأملي. كما كانت أيضاً دعوة لبناء نظرة إيجابية عن مستقبل العراق، قصص عن الأمل والتخمينات حول ماهية الواقع بعد فترة طويلة من السلام والإرادة الفردية.

لدى ابتداعنا حسن وأنا لهذه المهمة في أواخر العام 2013، كانت قد مرت الذكرى العاشرة لاحتلال العراق. وتساءلنا إذا كان الرعب ومستوى تلك الفظاعة – على الأقل في بريطانيا – قد وضب بعناية وأرسل إلى أرشيف جرائم هذه الدولة الطويل والعالي السرية بعيداً عن الضمير البريطاني.

Telegram: @Arab_Books2

أردنا وضع كتاب يبقي على عواقب 2003 في صدارة عقل القارئ، أن نقدم له الحقيقة من جديد، وبطريقة ما، حتى لو عنى ذلك إلباسها ثوب خيال علمي جديد وبراق. أردنا أيضاً دعوة كتاب عراقيين إلى الفضاء الذي ابتدعه نجاح حسن بلاسم الأدبي، حيث فجأة، أضحت هناك شهوة حقيقية لتناول أدب عراقي جديد.

انفتح الباب في أواخر العام 2013، وانهالت علينا القصص من كل أنحاء العالم، من كتاب عراقيين داخل العراق، ومن كتاب الشتات الموجودين في أصقاع العالم المختلفة، حيث أن العديد منهم أظهر قدرة سريالية وفانتازيا يقدر على تمييزها جميع قراء حسن (ثلاثة من القصص كتبت بالإنجليزية، اخترتها أنا، وعليه تشاركنا واجب التحرير).

ثمّ، تغير كل شيء في حزيران 2014، وقعت الموصل في يد داعش، وألقت حرب جديدة بظلالها على البلد. العواقب الوخيمة لاحتلال 2003، عادت فجأة وبشكل مأساوي لتحتل الصدارة في عقول الناس. لا أحد يحتاج إلى تذكير. وفوق كل هذا، أصبح وجود العراق، ككيان سيادي متميز موضع تساؤل.

جُمع عدد كبير من القصص المكتوبة هنا قبل وقوع الاحتلال الثاني، وسيشعر بعض القراء أن هذا يضعهم بشكل أوتوماتيكي خارج الأحداث المتصاعدة على الأرض.

إن واقع العراق المباشر أصبح أكثر رعباً، وصعبَ التنبؤ به بطريقة لا يمكن لأي أدب تصورها، حتى ذلك المتعلق بالمستقبل البعيد. لكن حسن وأنا نقف داعمين لكل هذه القصص - سواء كتبت قبل أو بعد حزيران 2014 - لأنها تقدم لمحة لعراق مختلف بصدق، عراق يجعل من

Telegram: @Arab_Books2

الطموحات الأساسية لعاصمة هذا البلد، التي أسسها الخليفة المنصور كمدينة للسلام، قابلة للتحقق. عراق يمكّن الطموحات العلمية العظيمة لهذه المدينة المدورة، ولبيت حكمتها، من أن تبصر النور يوماً ما.

أكتوبر / تشرين الأول 2016

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

مقدمة بقلم حسن بلاسم

ولدت فكرة هذا الكتاب في أواخر العام ٢٠١٣ في خضمّ الفوضى والدمار الذي خلّفه الاحتلال الامريكي البريطاني للعراق، الفوضى التي ستجرّ العراق إلى خراب آخر وهو سيطرة داعش على أجزاء كبيرة من البلاد.

لم يعان شعب في زمننا المعاصر كما عانى شعب العراق. لم يتنفس العراق السلام والحرية والاستقرار منذ الاحتلال البريطاني لهذا البلد في العام ١٩١٤ حتى الاحتلال الامريكي البريطاني ٢٠٠٣. حروب وموت ودمار وتهجير وسجون وتعذيب وضياع ومآسٍ يطول الحديث عنها، لهذا كان من الصعب إقناع الكثير من الكتاب للاشتراك في هذا المشروع القصصي (العراق بعد ١٠٠ عام) فأغلب الكتاب العراقيين كانوا مشغولين بالكتابة عن قسوة ورعب وصدمة الحاضر، ومحاولة الغوص في الماضي وقراءة كوابيسه وأمجاده من جديد. حاولت شخصياً أن أشجع أغلب الكتاب عبر مراسلتهم للكتابة لمشروعنا القصصي هذا، كنت أقول، بأن الكتابة عن المستقبل هي رئة للتنفس خارج الحدود الضيقة لـ(الواقع) اليوم، وإن الكاتب يحتاج إلى المزيد من البحث والاكتشاف لتطوير أفكار وتصورات معينة من خلال

Telegram: @Arab_Books2

القص، أنت تكتب عن حياة شبه مجهولة تقريباً، ولا تتكئ على تجربتك وقراءتك الشخصية في(الماضي والحاضر) فحسب. الكتابة عن المستقبل رائعة ومثيرة، محاولة لفهم أنفسنا ومخاوفنا وآمالنا عن طريق كسر قيد الزمن. وكأنك تحلم بمصير الإنسان!

منذ البداية، كنت قلقاً حول إمكانية إنجاز فكرة هذا الكتاب القصصي التي اقترحها صديقي ومحرري را بيج (تخيل العراق بعد مئة عام من الاحتلال الامريكي من خلال فن القصة) وكان قلقي ينبع من مصدرين، الأول يتعلق بالكتابة الأدبية العراقية بشكل عام، والثاني بالمشهد الأدبي وعلاقتي الشخصية به!

يقول الصحفي (المصطفى نجار) في مقال له يتناول فيه بداية مشروعنا القصصي هذا (إن تحاشي الكتاب العرب تناول المستقبل لطالما كان من أكثر الأمور غموضاً، بالنسبة لي على الأقل. فجدران القمع والرقابة التي تضغط بشدة على العقل العربي هي بحد ذاتها بيئة مثالية للكتابة عن المستقبل، ذلك الفضاء الخالي من التابوهات التي تثقل كاهل الماضي والحاضر)

حاولنا في هذا المشروع أن نفتح المزيد من النوافذ أمام المؤلف العراقي، طلبنا كتابة قصة عن مدينة عراقية بعد ١٠٠ عام من الاحتلال، وقلنا إن المؤلف غير مطالب بكتابة (الخيال العلمي) بل له الحرية التامة في اختيار أي نمط كتابي يختاره لمخاطبة المستقبل. ولم نقم باختيار كتّاب بأعينهم، للمشاركة في هذا المشروع، بل فتحنا الأبواب أمام كلّ (باحث أو كاتب أو قاص) يريد أن يسهم ويتخيل قصة مدينة عراقية بعد مئة عام من الاحتلال.

افتقار الادب العراقي بشكل خاص والعربي عموماً لأدب الخيال العلمي يطول شرحه والحديث عنه. لكن من الأسباب الواضحة والمفهومة لهذا النقص الحاد في كتابة الخيال العلمي هو أن أدب الخيال العلمي مرتبط بالعلم، وأخذ يتطور كشكل أدبي في الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً مع تقدم العلم والتقنية في ذلك القرن. أما العرب فكانوا ومازالوا غارقين منذ قرون في الظلام منذ أن غابت الشمس عن علومهم وثقافتهم وإبداعاتهم في فترة الخلافة العباسية. لم يعد لديهم سوى التغني بالماضي المجيد، حين كانت بغداد مركز النور والمعرفة العالمية في ذلك الزمن. لقد انطفأت المعرفة والعلم والفلسفة في بغداد. تعاقب الغزاة على بلاد النهرين ودمروا كل شيء. هولاكو المغول أحرق مكتبة بغداد العظيمة (بيت الحكمة) في ذلك الزمن، أحرقت ودمرت الكتب القيمة في مجال الفلسفة والاجتماع والعلوم والادب، ورمى الغزاة بالكتب في نهري دجلة والفرات، ويقال أن نهر الفرات تغير لونه إلى الأحمر بسبب حبر الكتب الذي سال في مياهه. ومن هولاكو المغول إلى هولاكو أميركا (بوش) دمرت وسحقت أعظم حضارة في التاريخ. السفاح بوش وشريكه بلير قتلوا مئات الآلاف من العراقيين، بل سحقوا حياة شعب بأكمله من دون رحمة أو حتى خجل، و أمام أنظار العالم الحر والديمقراطي!

لكن دعونا نترك السيد بوش والسيد بلير وبقية القتلة طلقاء، ولنعد إلى مشروعنا المتواضع الذي يحاول أن يتخيل (العراق المعاصر) الذي دمّره واستباحه الغرب الرأسمالي الوحشي، مثلما دمّره من قبل المغول. مشروعنا الذي يحاول أن يتخيّل مستقبل مدن وحياة أناس يعيشون في بلاد ولدت فيها الكتابة والقانون والدين والفن والزراعة، بلاد ولدت فيها أيضاً التراجيديا، وأساطير الموت والحزن والعذاب!

حسب اعتقادي ليس الخيال العلمي وحده هو الذي يفتقر له الأدب العراقي والعربي المعاصر، فأنا اشترك مع زملاء لي في فكرة أن الأدب العربي بشكل عام يفتقر إلى التنوع (أدب بولسي، فنتازي، جريمة، خيال علمي.. الخ) مثلما لا يوجد تنوع وشفافية في حياتنا بشكل عام، فنحن (العرب اليوم) عبَدة الشكل والفكرة الواحدة بسبب هيمنة الخطاب الديني، والممارسات القمعية التي امتدت لفترات طويلة من قبل الديكتاتورية التي استغلها الغرب الرأسمالي حسب مصالحه وأهوائه. لكن لا يعني ذلك، بالتأكيد، غياب أدب الخيال العلمي بشكل قاطع عن تراث الادب العربي والعراقي. تتم الإشارة في أغلب الأحيان إلى أن جذور ومصادر (الخيال العلمي والفنتازيا) العربية في (ألف ليلة ولية) و (حي بن يقظان) ومنهم من يعيده إلى أقدم من ذلك، إلى السومريين، كما يشير الكاتب العراقي عدنان المبارك إلى ذلك في أكثر من مناسبة.

يقول المبارك:

"الخيال العلمي المعاصر قوي الصلة بالثورة العلمية- التقنية التي يتفرغ، عادة، لقضاياها، من ناحية أخرى أدب يملك تقاليد بالغة القدم، تعود إلى أولى تصورات الإنسان عن الواقع وإمكانياته ككائن بشري يكتشف، باستمرار، الطبيعة والعالم. وكما معلوم فأولى المعطيات عن الرحلات، وبينها إلى الكواكب، نلقاها في آدابنا السومرية (ملحمة جلجامش مثلاً) والآشورية والمصرية وغيرها. وفي نصٍّ مصريٍّ من قبل أربعة آلاف عام نقرأ عن رحلات خيالية إلى كواكب أخرى"

ومن المهم العودة أيضاً في هذا السياق، إلى مقال المبارك "كيف خلق السومريون ما يسمى اليوم علم التحليقات الكونية؟".

في منتصف القرن الماضي بدأت تظهر تجارب عربية جديدة في كتابة (الخيال العلمي، والفنتازيا) موزعة على بلدان عربية عدة، وكان للأدب المصري حصة الأسد. لكن ما يعيب هذه الأعمال القصصية هي ارتباطها بالغيبي وبقصص الجن والشياطين والعفاريت والحكايات الخرافية متأثرة بكنز التراث (ألف ليلة ولية) رغم إن كتاب (حي بن يقظان) كان يتضمن شروط كتابة الخيال العلمي بصورة مثيرة، لكني أعتقد أنه لم يُلتفت إليه بشكل جدّيٍّ من قبل الأدب العربي المعاصر، مثلما لم يلتفت إلى كنوز المخيلة السومرية والفرعونية والبابلية.

لقد كبح الخطاب الديني المتشدد جماح المخيلة العربية، وأضعف الافتخار الزائد بالتراث الشعري العربي الكبير قوة وحرية السرد، وحطم الغزاة والمحتلون بيت المخيلة ألا وهو السلام.

مع ذلك الصورة ليست قاتمة إلى هذا الحدّ!

اليوم هنالك أمل كبير في الجيل الجديد، جيل النت والعولمة. جيل منفتح وأكثر جرأة في اختيار أنماط الكتابة، وأكثر توقاً لحرية التعبير والتجريب، لهذا بدأت تظهر محاولات جادة في كتابة أدب الخيال العلمي والفنتازيا خاصة بعد أن أصبحت المعرفة العلمية متاحة عن طريق النت، حيث يمكن الوصول إلى البحوث، والدراسات العلمية، ومتابعة الأفلام العلمية، الوثائقية، والوصول إلى الكتب، والروايات العالمية، ومتابعة التطور الهائل والسريع للمخيلة البشرية، عبر العلم والمعارف الأخرى.

أما عن قلقي الشخصي في تحرير هذه المجموعة القصصية كان نابعاً من كوني مؤلف رسخت "كتاباتي" وأنا في هامش المشهد الأدبي العراقي، حيث كانت العزلة خياري الشخصي منذ البداية. لهذا دفعت بمحرري را

بيج، في كثير من الأحيان أن يراسل بنفسه بعض الكتاب العراقيين، خشية أن أكون وحدي في الصورة، أن أكون فقط صاحب القرار في اختيار قصص هذا الكتاب، مما قد يتسبب بحساسية واستغراب لبعض الكتاب العراقيين، الذين اعتادوا على المشاريع الأدبية التي يتبناها أناس من نفس الدائرة الضيقة، الدائرة التي خنقت طوال سنوات الإبداع العراقي.

هذه مجموعة من القصص كتبت بأقلام عراقية تنتمي إلى أجيال واتجاهات مختلفة في الكتابة. أقلام عراقية ولدت وكبرت في مدن عراقية مختلفة، مدن هجرها بعض الكتاب إلى المنافي بحثاً عن الحرية والسلام، وآخرون فضلوا أن يبقوا ويعيشوا ويشهدوا على مدنهم حتى النهاية!

مجموعة قصص عن مدن عراقية مختلفة توحدها مأساة العراق المعاصر. مأساة شعب شديد العطش لجرعة واحدة من السلام. شعب بأمس الحاجة إلى المزيد من المخيلة والإبداع ليعيد بناء بلده العريق، بلاد الرافدين.

القصص

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

عنود

كاتبة عراقية المولد، تعيش حالياً في لندن. تكتب باللغة الانكليزية. صدر لها العديد من القصص في مجموعات وانطلوجيات مختلفة، ستصدر مجموعتها القصصية الأولى قريباً.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

كهرمانة

في يوم عرسها قلعت كهرمانة العين اليمنى لعريسها المُلّه حشيش وهربت إلى الملحقية الأمريكية في السليمانية.

ولكن لم يتفطن بعد إعلام ولاية وادي حشيش الإسلامية لهروب كهرمانة، حيث أن الولاية تعتبر كل وسائل الاعلام ما عدا الصحف المطبوعة على ورق باستخدام الحبر والقوالب المعدنية الأثرية نوعاً من الكفر. هذا في عصر انتقل فيه العالم الخارجي إلى استخدام الصور الهولوغرافية لتجاوز صعوبة استمرار صيانة حزم الأسلاك الضوئية عبر ساحات الحرب البحرية. على العموم لم يكن سكان وادي حشيش على عجلة من أمرهم.

ظهر هذا الخبر على الصفحة الاولى من جريدة "أخبار الإمارة" في حين كانت كهرمانة قد انسلت من آخر نقطة سيطرة على حدود وادي حشيش.

حلّ علينا يوم الاحتفال المنتظر السعيد. الله اكبر! اليوم ترتدي إمارة وادي حشيش حلة أفراحها. وتتزين ناصية كل شارع بأشرطة الإمارة السود والخضر. ويمدّ جند الإمارة بأمر من سيف الله الأسد المقدام الأمير ملّه حشيش – جازاه الله بوفرة – موائد عملاقة من القوزي والباجة على كل شارع لإطعام الفقراء يدفعه كرمه وحنانه لكي تحتفل معه الجموع بيوم

Telegram: @Arab_Books2

عرسه، على أجمل حرمة في الإمارة (وذلك حسب قول أخواتنا طبعاً لأن الأمير – جازاه الله بوفرة – لم تطأ عينه قط على حرمة من قبل)، الحرمة كهرمانة بذات عينها ذات العيون الزرق. سيكون العرس أمام مبنى البلدية مساء غد بعد صلات المغرب. والحضور إجباري.

"أكل خرة" صاح المقدم عبدالهادي ورمى الجريدة جانباً ثم أخذ يفرك حبر الجريدة من على أصابعه. كانت قوات تحالف الناتو في بغدادستان من أكبر مستهلكي جريدة أخبار الإمارة حيث لم يكن لديهم أدنى فكرة عما يجري داخل حدود وادي حشيش في الشمال. لذا ينهمك محللو بغدادستان بتحليل كل كلمة تصدر من تلك المطبعة العتيقة في وادي حشيش لأنها الطريقة الوحيدة لمعرفة ما يجري داخل رأس المُلّه حشيش الذي لا يستخدم العالم الافتراضي على الانترنيت بتاتاً.

انتقل المقدم عبدالهادي إلى حدود ولاية وادي حشيش، تحت أوامر الناتو رغم كرهه لهذا المكان، ورياحه الشديدة البرودة التي تخترق الجسد مثل البرق وتجمد مفاصله. افتقد المقدم الجو المشمس والهواء الطري والرمال الناعمة في البصرة- مينا عكس هذا المكان الملعون الذي لم تتوقف فيه الثلوج قط منذ ان استهدفه الناتو بقنابل العقم. لم تفشل فقط الجراثيم بقطع نسل الحشيشيين بل تسببت أيضاً منذ ذاك الحين، بعواصف ثلجية على مدار العام في الجانب الشمالي الغربي من العراق، وحتى البحر المتوسط. واستمر الحشيشيين بالتكاثر كالصراصير مع فرق واحد وهو دفنهم بالثلوج.

عند انتهاء دوريته عاد المقدم إلى مقطورته وارتمى على سريره ثم خلع جزمته المطاطية المضادة للثلج، وأخذ يحرك كاحليه لكي يتخلص من التشنجات في ساقيه. جلس المقدم على سريره، وأخذ يحدق من خلال

نافذته، وهو يدخن سكائر صادرها من مهاجر عندما انتبه إلى مخلوق غير واضح المعالم، يتصارع مع الأسلاك الشائكة. ابتدأ المقدم بالسباب عندما اكتشف بعد التمعن أنه يحدق بامرأة عالقة في الاسلاك الشائكة. وأخذ بالتذمر وهو يحشر قدميه في جزمته مجدداً، ثم حمل معطفه وسلاحه ومشا نحوها متصارعاً مع الثلوج.

"عودي من حيث أتيتي! لا وجود لمقطورات حشيش الإنسانية هنا. انقلعي! لا م.ح.ا. هنا! قلت انقلعي!" لكنها بقيت تحدق به حتى غدا عبدالهادي مسافة ذراع واحدة عنها، ثم رفعت خمارها لتظهر وجهاً كالمرمر، وشفتين بلون الكرز، وأنفاً كأنوف المشاهير على التلفاز. يغطي وجهها نمش ناعم بلون بوظة الفراولة. أما أبرز ملامحها فهو عيناها الشديدتا الزرقة التي جمدت عبدالهادي في محله، مرسلة شعوراً مفاجئاً كالصقيع في أطرافه وحتى أنامله المدبوغة بحبر صحيفة أخبار الإمارة. قاطعت كهرمانة تحديقه:

"أتوسل إليك أخي سوف يقتلوني" ثم امتلأت عيناها الزرق بالدموع. مذهولاً بجمالها رفع عبدالهادي أصبعه عن الزناد، ثم أشاح بعيداً بنظره، ولوّح لكهرمانة سامحاً لها بالمرور.

مشت كهرمانة ليوم ونصف اليوم حتى لمحت أول أعلام م.ح.ا الزرق. استقبلها موظفو م.ح.ا. بتعريتها وتفتيشها ثم نزع القمل من شعرها، ثم تصنيفها حسب بنيتها، وحالة أسنانها، ولون بشرتها، وسنها، ثم صفوها في طابور طويل من أجل أخذ بصمات أصابعها، وحمضها النووي، ثم صفت كهرمانة في طابور أخير، لكي يتم حلق شعرها. بكت كهرمانة حزناً على شعرها الطويل. في كل أعوامها الستة عشر لم تقصه من قبل.

برزت عيناها الزرقاوان أكثر عند حلق شعرها، وبدتا أكبر وأكثر زرقة. لفتت عيناها الانتباه لدرجة تسببت بغيرة النسوة الأخريات في قطاعهن من المخيم. وأخذن يتجنبنها وينشرن الشائعات عن قدراتها في الشعوذة، وكيف سحرت الجنود وموظفي ال م.ح.ا.

وكانت شكوكهن منطقية طبعاً. والا كيف نفسر اختيار كهرمانة دون غيرها من نسوة المخيم لتمثيل سكان المخيم في كل ورشات عمل ال م.ح.ا الاستراتيجية للاستجابة لحالات نزوح الطوارئ، ولم لم يتم اختيار واحدة غيرها كل مرة منذ وصولها للمخيم للظهور على منشورات ال م.ح.ا التي تحث على التبرع لنزوح الطوارئ.

وأثار طباعة الم.ح.ا لملصق عملاق لوجهها على لوحة إعلانات عند مدخل المخيم، كره النسوة الشديد لها. تطل في الملصق عيناها العميقتا الزرقة، ذات النظرة المتوسلة، وبؤبؤاها بكبر إطارات شاحنة تحدق بالداخل والخارج من وإلى المخيم.

ولكن لم تحرك عينا كهرمانة الزرقاوان الامريكيين، فهم معتادون على العيون الزرق بكل تدرجاتها. وماطل الأمريكيون في ملف نزوحها المصنف "نزوح اغتصاب" لثلاث سنوات بين الرفض المتكرر وإعادة فتح الملف.

تم في هذا الاثناء فحصها من قبل ثلاث لجان طبية ونفسية. تترأس اللجنة الاولى منظمة "أفعال من أجل الإنسانية" ومقرها في نيويورك وتقيّم هذه اللجنة، إذا ما أظهرت كهرمانة علامات نفسية لضحية اغتصاب (جميع من مرّ من خلال هذه اللجنة اعتبر مغتصباً). ثم يأتي دور اللجنة الثانية والمكونة من أطباء من المخيم يعملون تحت إدارة أطباء من ال م.ح.ا ومقرهم في نيويورك، حيث تقوم هذه اللجنة بفحص سريري لإثبات

العذرية. حيث أن العذارى لا تغتصب قانونياً. أما اللجنة الثالثة، والتي مقرها في الملحقية الامريكية مسافة ساعة خارج المخيم، فتقرر إذا ما كان الجماع فعلاً مغصوب، أو بإرادة الأنثى، وذلك من خلال مقابلة وجهاً لوجه مع موظف هجرة. وإذا اقتنع الموظف بتعرض الأنثى للاغتصاب يتم منحها حق لجوء-الاغتصاب. ولكن كانت كهرمانة قد قلعت عين المُله حشيش قبل أن يتاح له لمسها، لذا قررت اللجنة الثانية بعد الفحص السريري بأن كهرمانة لا زالت "باكراً" لذا لا يمكن ان تصنف كملف هجرة-اغتصاب. وهكذا لم يتم إحالة ملف كهرمانة للجنة الثالثة.

ولكن كما ذكرنا سابقاً، كان وجه كهرمانة مطبوعاً في كل مكان في المخيم لذا لفتت قضيتها انتباه منظمات وتحالفات الدفاع عن اللاجئين. وأخذوا بالتجمهر، والتطبيل، وحرق الأعلام، ورمي كلاشاتهم على حواجز مقر الملحقية الامريكية، لأشهر مطالبين إعادة فتح ملف كهرمانة. هاتفين "الاغتصاب ليس فقط جسدياً". أخيرا تدخلت ال م.ح.ا وسمحت لكهرمانة بالمرور نحو اللجنة الثالثة، حيث أتيح لكهرمانة بان تحكي قصتها لموظفي الهجرة في الملحقية.

أتى مدير قسم الهجرة في الملحقية بنفسه لمقابلة كهرمانة. وهو رجل طويل القامة، أحمر الشعر من تكساس، وهو من يتخذ القرار النهائي والحاسم بقبول أو رفض أي ملف هجرة. جلس أمام كهرمانة منكفئاً على شاشته يخربش بخنصره الصغير، أقوال كهرمانة، ثم يمحوها، ثم يخربش مجدداً بعربية مكسرة. بدا أنه يعاني من فهم لهجة كهرمانة الحشيشية. ولم يرفع رأسه للنظر إلى كهرمانة حتى نهاية المقابلة، حين طلب منها البصم على الشاشة، وهنا مالت كهرمانة نحوه، وسحبت طرف كمه للفت انتباهه، ثم أشارت إلى شاشة التلفاز المعلقة على الحائط. صرخ مدير الهجرة بنبرة

تكساسية وهو يحدق بذهول نحو الرجل على الشاشة قائلاً:

"بربج هذا رجلج!"

كان المُله حشيش يملئ الشاشة بعباءته وعمامته السوداوين، ويلوح بسبابته نحو أتباعه الواقفين تحت المنصة، يصيح مهدداً: "سوف نرسلهم جميعاً إلى جهنم وبئس المصير"

انتشر الخبر بسرعة، وأصبحت كهرمانة بطلة الأبطال. ظهر مراسل أخبار سليماني-أمريكا على التلفاز، وخلفه قاعة تصاريح السفر على حدود الملحقية:

المراسل: يوم البطولة. يوم الصمود. لا تزيد عن ١٦ ربيعاً وتمكنت من الهجوم وإلحاق الأذى بقائد ما يسمى بالولاية الإسلامية بعد أن حاول اغتصابها. كهرمانة الآن تحت المعاينة النفسية و ..

المذيعة: شكراً جيسون. هل من أخبار عن تطورات طلبها للهجرة؟ أعني .. لا يمكن لهم إعادتها من حيث أتت بعد كل ما مرت به؟!

المراسل: لم تصل السلطات إلى قرار لحد الآن بشأن قضية كهرمانة، ولكن كما ترين، هنا خلفي حشود تطالب السلطات بالسماح لكهرمانة بالبقاء (تقوم الحشود خلف المراسل بالهتاف والصفير)

المذيعة: سوف نعود اليك لاحقاً جيسون. ابقنا على اطلاع.

المراسل: أكيد طبعاً.

بعد يومين طبعت أخبار الإمارة هذا الخبر على صفحتهم الاولى بالبنط العريض الأحمر، وهو أمر مذهل حيث أنهم لم يستخدموا سوى اللون الأسود، أو أثناء المناسبات الدينية، اللون الأخضر في عناوينهم.

أقسم سيف الله الأسد المقدام الأمير مله حشيش - جازاه الله بوفرة - بأن يقطع رأس الأفعى كهرمانة بتهمة تلويث أخوتنا وأخواتنا بقذارتها. حيث اكتشف سيف الله الأسد المقدام الأمير مله حشيش - جازاه الله بوفرة - بأن كهرمانة لم تكن بتولاً باكراً كما ادعت. كما أنها اعترفت لسيف الله الأسد المقدام الأمير مله حشيش - جازاه الله بوفرة - بأنها ارتكبت أعمال زنا وشذوذ، مع ما يزيد على ١٢ رجلاً و ٣ نسوة. وسيتم إعدام جميع المذنبين في ساحة البلدية بعد صلات المغرب والحضور إجباري.

كانت هنالك صورة غير واضحة التفاصيل بين العنوان الأحمر والنص، لعدد من الرجال والنساء يرتدون بدلاتٍ حمراً، مكبلين بسلاسل عريضة، ساجدين على ركبهم، والرعب يرتسم على وجوههم. ويقف إليهم أربعة رجال ترتسم على وجوههم ابتسامات عريضة، يرتدون البلوزات القطنية السود مطبوع عليها شعار الولاية الأخضر والمكون من سيفين متقاطعين. ويحملون أسلحة الكلاشنيكوف الأثرية والتي أصبحت عديمة الجدوى.

بعد أسبوع من نشر أخبار الإمارة، قامت المنظمة النسوية "كجان سليماني" بالهجوم على ناقلة الملحقية المصفحة والتي تحمل آلاف النسخ من أخبار الإمارة. أصابت النسوة السائق بسهم تخدير في عنقه، ثم حملن الصحف في شاحنتهن، وفررن مسرعات.

ثم ظهرن فجر اليوم التالي أمام بوابة قاعة التراخيص في الملحقية، لتثبيت نصب ورقي مكوّنٍ من آلاف النسخ من أخبار الإمارة، مغطى بالصفحة الأولى التي تحمل صور النساء اللواتي ادعت الإمارة إعدامهن

بسبب علاقتهن الجنسية مع كهرمانة. وفوقها صور مكبرة لوجوههن وهن مكبلات الأعناق، حيث اختفت ملامح وجوههن بسبب تكبير الصور من مطبوع صغير في صحيفة إلى حجم يوازي عجلات شاحنة. وألصقن أعلى النصب صورة كهرمانة العملاقة كما تظهر في العديد من مطبوعات ال م.ح.ا. كما ألصقن العديد من العبارات التي تمجّد كهرمانة كبطلة للحركة النسوية.

قامت الملحقية بالتخلص من النسوة بعد ساعات قليلة بقذفهن بالقنابل المسيلة للدموع، وهرب معهن حفنة من مراسلي الأخبار المحلية الذين أتوا للتغطية.

حدقت كهرمانة إلى وجهها، وهو يظهر هنا وهناك في عناوين الاخبار، في التلفاز المثبت على حائط المطعم، مندهشة من كل الاهتمام الذي حظيت به مؤخراً. ها هي تجلس مدللة وتأكل ما لذّ وطاب في الطابق الثامن من مطعم برج نيران الحرية، مع ممثلة البرنامج النسوي في الملحقية الأمريكية.

أتت ممثلة البرنامج النسوي في الملحقية لتبارك لها قبول قضية لجوئها، ولمناقشة ترشيحها لجائزة الشجاعة النسوية. لمست ممثلة الملحقية ذراعها برفق، وهي تخبرها عن مدى تعاطفها معها لما مرت به من صعوبات. قامت المترجمة بلمس ذراع كهرمانة الأخرى، بشكل ميكانيكي وهي تترجم.

طأطأت كهرمانة رأسها بصمت، وهي ترشف من قنينة المشروب الغازي. فكرت في كل ما قالته ممثلية الملحقية. فهي وحدها تعلم ما حدث ذلك اليوم. وحدها كهرمانة تعلم ما حدث حين وقفت أمام باب المُلة حشيش يوم عرسها في ما شفّ وخفّ من الحرير، وقبضت عليه جاثياً على ركبتيه

يمتطي مؤخرته رجل آخر، وسرواله عند كاحليه. قفز الرجل رعباً عندما شاهد كهرمانة، ورفع سرواله مسرعاً وهرب تاركاً المله حشيش عارياً يخبئ وجهه بكفيه.

علمت كهرمانة بان المُلّه حشيش، سوف يقتلها حتماً، لكي يحمي سره. المُلّه حشيش ذاته الذي وصف المثلية الجنسية بأنها فكرة غربية استعمارية قذرة، وفتا بأن المثليين يجب إعدامهم برميهم للذئاب لأكلهم أحياءً. سوف يقتلني لا محالة- فكرت كهرمانة- قبل أن ينكشف سرّه.

رفعت كهرمانة رأسها قليلاً، ثم نظرت نحو ممثلة الملحقية. قلّدت المترجمة حركات كهرمانة. مالت كهرمانة نحو ممثلية الملحقية وقلدتها المترجمة مجدداً. جلست النسوة الثلاث بصمت لعدّة ثوانٍ في حلقة، ورؤوسهن تكاد أن تتلامس. سحبت كهرمانة نفساً عميقاً، سحبت المترجمة نفساً عميقاً ثم بدأت كهرمانة تروي قصة هروبها، وكيف وجدت المُله حشيش ليلة عرسها يحاول اغتصاب امرأة أخرى. استنجدت المرأة بكهرمانة فهجمت كهرمانة على المُله حشيش، وأنقذت المرأة ثم فررن سويةً.

"أين المرأة الأخرى؟" سألت ممثلة الملحقية.

"لحقت بها الذئاب وأكلتها" قالت كهرمانة.

المذيعة: جيسون حدثنا عن الاخبار الرائعة بالموافقة على منح كهرمانة حق اللجوء وترشيحها لهذه الجائزة الموقرة.

المراسل: نعم، نعم، كما ترين، تهتف الحشود هنا خلفي للاحتفال بنيل كهرمانة الجائزة، وحق اللجوء، بعد رحلتها الطويلة والصعبة. معي هنا شيرين أغا، مديرة ومؤسسة حركة كجان سليماني النسوية. تصارعت أغا كثيراً مع السلطات للدفاع عن كهرمانة وعن العديد من النساء اللواتي

يعانين من ظروف مماثلة. (تبتعد الكامرة لتحتوي جيسون وشيرين أغا على الشاشة)

المراسل: ست أغا لا بد أنك فخورة بنجاحك في الدفاع عن كهرمانة. حدثينا قليلاً عمّا يعنيه هذا النجاح لك؟

شيرين: أكيد. نعم. حسناً. من المؤكد أننا سعداء للتطورات الأخيرة. إن كهرمانة فتاة شجاعة جداً، وقد خاضت رحلة مدهشة للوصول إلى هنا. ولكن كهرمانة هي واحدة من عشرات آلاف النساء ... نحن نخمن بوجود على الاقل ١٢٠٠٠٠ امرأة وفتاة تحت رحمة الملة حشيش وأمثاله في وادي حشيش المسمى بالولاية. الملة حشيش وأمثاله يؤمنون بحقهم في اغتصاب وقتل النساء، وتشويه أعضائهن التناسلية، من خلال ختانهن في أعمار صغيرة. إن نجاحنا في قضية كهرمانة، ليس سوى مثال واحد من .. من بين .. (ترفع شيرين يديها في حركة يأس)

المذيعة: جيسون عذراً على المقاطعة، ولكن انتهى الوقت. شكراً جزيلاً لك جيسون، وللآنسة أغا.

بعد أسبوع نشرت أخبار الإمارة صورة رسمية جديدة للمله حشيش، يرتدي فيها العباءة ذاتها والعمامة السوداء، ولكنه أصبح أعور العين بشكل رسمي، ويحيط نفسه بست نساء مخمّرات حوامل، ثلاث على يمينه وثلاث على يساره يقفن بشكلِ جانبيّ ليبرزن بطونهن الكبيرة. ويلوح المُلّه حشيش بسبّابته كالمعتاد. وطبعت تحت الصورة العبارة التالية:

"سوف نزيدهم عدداً ونرسلهم إلى الجحيم".

وكان تحت الصورة الخبر التالي:

بأمر من سيف الله الأسد المقدام الأمير ملّه حشيش – جازاه الله بوفرة - على جميع النساء في سنّ الإنجاب أن يصبحن حوامل أو مرضعات في كلّ الأوقات. يجب على أخوتنا في الامارة حذو خطوات سيف الله الأسد المقدام الأمير ملّه حشيش – جازاه الله بوفرة – والزواج بأكثر عدد ممكن من النساء قدر استطاعتهم. وعلى كلّ رجل أن يتزوّج ثلاث نساء، كحدّ أدنى للتعبير عن التزامه في تكثير جند الأمة الإسلامية الحشيشية، والتفوّق على العدوّ عدداً. وسوف يتعرّض الأزواج الذين لا تحمل ولا تنجب زوجاتهم، للمسائلة والمعاينة الطبية والنفسية. والحضور إجباري عند الاستدعاء."

ولكن المُله حشيش لم يثر قلق الكثيرين في مقر الناتو في بغدادستان. على العكس كان الكثير منهم يجلس في المقاهي ويفرك يديه بحماس وهو يقرأ نسخته من أخبار الإمارة. فقد توصل علماء الناتو اخيراً إلى المعادلة الصحيحة لسلاح العقم او هكذا اعتقدوا. جيسون المراسل كان يتابع هذا الخبر مثلما تابع المحاولة الاولى الفاشلة.

فركت كهرمانة الحبر من على اصابعها ووضعت الجريدة جانباً لتعطي كل اهتمامها للضابط الأمني الوسيم، في استخبارات الملحقية الامريكية الذي اتى لتدوين محضر، عمّا تعرفه كهرمانة عن المُله حشيش الغامض والشديد السرية. شعرت كهرمانة بالحماس وهي تبتسم، وتشير بيديها نحو عينيه الزرق، ثم نحو عينيها. استدارت المترجمة، وقد بدا التعب في عينيها المنتفختين، نحو الضابط وسألته "هل فهمت ذلك؟" "اها" استجاب الضابط من دون ان يرفع رأسه عن مدونته الالكترونية وهو يخربش ملاحظاته بخنصره.

تأففت كهرمانة عندما اكتشفت بأنها في مقابلة طويلة مملة أخرى، واتضح ان ضابط الاستخبارات الوسيم كان بنفس غباء الملّه حشيش، حيث

أخذ يعيد اسئلته مراراً وتكراراً. أشاحت كهرمانة ببصرها بين الحين والآخر نحو القوافل المتجحفلة في الجليد خلف الحواجز العملاقة، محاولين العبور إلى الجانب المشمس في سليماني-أمريكا. سوف يتم رفض تأشيراتهم الواحد تلو الآخر، فكرت كهرمانة ثم ابتسمت إلى الضابط البليد لكنه لم ينتبه إليها. لقد كان مشغولاً باكتشاف فجوات في قصة كهرمانة.

اعتقلت كهرمانة في الأسبوع المقبل بذريعة الكذب وتقديم أدلة باطلة، وصدر القرار بترحيلها من سليماني-أمريكا خلال أسبوعين.

طبلت وزمرت ناشطات كجان سليماني، وحرقن الأعلام أمام الملحقية، ولكن بحماس فاتر هذه المرة، ولم تظهر الصحافة للتغطية. كانت الصحافة اليوم مهتمة بحركة "لف راسك بعَلمك" العنصرية عندما بدأ أفرادها بقذف ال م.ح.ا في أربيل بالطوب مطالبين بترحيل كل اللاجئين العرب. ونشرت الصحافة الصفراء فيلماً جنسياً حصلت عليه من "لف راسك بعَلمك" وادعى الفلم بأن بطلته كانت كهرمانة. وحصل "لف راسك بعَلمك" على الفيلم من إشاعة نشرها إعلام وادي حشيش لإثبات عدم عذرية كهرمانة.

وأعاد الم.ح.ا. كهرمانة للمخيم وماطل في ترحيلها لستة أشهر، محاولاً قلب الحكم دون جدوى. بكت وبكت كهرمانة لأشهر حتى اسودت عيناها الزرق وغطى شعرها الأسود الشيب، ووجهها التجاعيد. ثم هب اخيراً يوم الترحيل.

قادت شاحنة ال م.ح.ا درزينة من النساء من بينهم كهرمانة نحو البوابة الغربية وصفت امتاراً خلف الحواجز الكونكريتية بين سليماني-أمريكا ووادي حشيش. دفع السائق بالنسوة خارج الشاحنة ووزع عليهن مساعدات البقاء (وتشمل قناني ماء وبسكويت عالي البروتين) ومساعدات الكرامة

(وهذه تحتوي على تحليل للإيدز، وتحليل حمل، وحفاضات نسائية) ثم وزع عليهن منشورات تشرح حقوقهن كلاجئات، وحقهن بإعادة المحاولة، بالتسلل عبر الحاجز بعد مرور خمس سنوات. ثم تركهن في صحراء الثلوج وقفل عائداً.

جرت كهرمانة قدميها بموازاة السور خلف الأسلاك الشائكة حين شاهدت فجأة عبدالهادي الذي لازال محله في قوات حماية الحدود. مدت ذراعيها نحوه وأخذت تهتف "أخي ساعدني سوف يقطعون رأسي". استدار عبدالهادي لوهلة نحو كهرمانة، ثم أشاح ببصره عنها، وعاد لعمله بضبط المرور ملوحاً بذراعيه للسيارات الحكومية الداخلة والخارجة. ليس لأنّ عبدالهادي لم يميز كهرمانة، بل لأنه كان مشغولاً بأمور أخرى، مثل فلول اللاجئين، ورداءة السكائر المصادرة، وثلوج الناتو الملعونة

Telegram: @Arab_Books2

حسن بلاسم

ولد في بغداد في العام 1973، حيث درس في أكاديمية الفنون السينمائية. نصح في العام 1998 بمغادرة بغداد بسبب فيلمه الوثائقي الذي يصور الحياة تحت حكم صدام، فهرب إلى السليمانية في كردستان العراق، حيث استمر بإنتاج الأفلام وكان من ضمنها؛ العمل الدرامي الطويل "الكاميرا الجريحة" تحت اسم كردي مستعار هو "آزاد عثمان". بعد أن أمضى فترة طويلة وهو يسافر بشكل غير شرعي في أوروبا كلاجئ، استقر أخيراً في فنلندا في العام 2004. أول قصة مطبوعة له كانت في المجموعة القصصية (مدينة) والتي نشرت ضمن أنطولوجيا لكوما بريس في العام 2008، وحررتها جمانة حداد. تبعتها مجموعتان وهما (مجنون ساحة الحرية، 2009) و(المسيح العراقي، 2013)، وترجمهما جوناثان رايت إلى الإنجليزية، حازت مجموعته الأخيرة على جائزة الأندبندنت للأدب الأجنبي في العام 2014، وترجمت أعماله إلى أكثر من 20 لغة.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

حدائق بابل

إلى عدنان المبارك

عطّل صبيٌّ في التاسعة من عمره أحد النمور الافتراضية الجديدة، التي أدخلوها إلى نظام الحديقة العامة. جعل النمر يحلق في دائرة فوق رؤوس زوار الحديقة. تجمهر الناس وتعالى الضحك. تدخل مراقب وبصحبته روبوت ذكر وآخر أنثى، أعادوا النمر إلى الأرض وسلّم المراقب غرامة لأم الصبي. لا غرابة في قدرة الصبي، فمدينة بابل اليوم هي جنة مطوّري التقنية الرقمية ومعقل القراصنة وفناني الفايروسات والبرمجيات. مازال الوقت مبكراً على وصول الملكة. أراقب الأطفال وهم يلهون مع التماسيح في حوض الماء. حيوانات أخرى من كل القارات تتجول بحرية بين زوّار الحديقة. حيوانات صديقة وأليفة، طيور، حشرات، وأشجار افتراضية ساحرة. تتناغم مع إيقاع عصر الأحلام والسلام، كما يحلو لملكتنا تسميته. وملكتنا على حق! لا أفهم المعترضين على سياستها.

هذه الحياة الافتراضية المتخمة بالوفرة والإبداع هي روح العصر وإيقاعه، إنه التناغم المدهش بين المخيلة والواقع. الحاكم الفيدرالي لبلاد الرافدين هو من أطلق على مديرة المدينة لقب الملكة. أعتقد أنها تستحق اللقب. لا أدري، ربما أكون على خطأ، لكنها امرأة قوية وبصماتها واضحة في

Telegram: @Arab_Books2

بناء مدينتنا على أسس الحرية الابداعية. لقد شيّدنا السلام والرفاهية عبر المخيلة، هذا ما تقوله (الملكة) التي ستفتح اليوم مركز الألعاب القصصي الذي عينت فيه مؤخراً. استلمت الملكة إدارة المدينة قبل ١٠ أعوام. قسمت المدينة إلى ٢٤ قبة عملاقة، رغم اعتراض شركة "ح ك" الصينية على التقسيم الجديد. غيّر الصينيون رأيهم لاحقاً، قالوا إنهم تفهّموا فكرة الملكة، وإنهم موافقون على التقسيم الجديد، طبعاً قالوا ذلك بعد أن منحتهم الملكة امتياز إدارة استيراد الماء وتوزيعه. ربما ما أقوله اليوم عن مخيلة بابل لا ينطبق على عجزي عن مواصلة عملي. احتاج إلى الاسترخاء والتفكير. أشعر بجفاف في مخيلتي. يجب أن أنهي لعبتي القصصية هذا الأسبوع. أعتقد أنني هادئ أكثر من اللازم، والإبداع يحتاج إلى شيء من الغليان. لا أفكار، لا صور، أشعر بالملل والخواء. أتفرج على شاشة الإعلانات، على قطارات الماء الجديدة التي ستدخل الخدمة قريباً. القطارات السريعة التي تزوّد المدينة بالماء من وسط أوربا وشمالها. لديّ رغبة عارمة في الخروج إلى المدينة القديمة المهجورة، لكني نسيت قناعي الواقي في البيت. في شاشة الاعلانات تقف ملكتنا الآن مع مدير شركة "ح ك" وهما يشربان الماء وخلفهما القطار الجديد، فخر الصناعة الإيرانية. قطارات الماء هذه، صارت في السنوات الاخيرة النقطة الجوهرية في اختيار مدراء المدينة. يعين مدراء المدن من قبل الحاكم العام لبلاد الرافدين الفيدرالية، على شرط أن تتوافق عليه الشركات العالمية التي تدير ولايات البلاد. سارت الأمور على خير مع قطارات الماء، بعد أن عانت بابل من شبح العطش في السنوات الأخيرة، إلى أن تكوّنت جماعة ثوار الماء الذين أخذوا ينشطون ضد الشركة الصينية. ثوار الماء يتنقلون وينشطون بين المدينة المهجورة وأحياء القبب. لم يعجب الثوّار نظام حصص الماء. شركة "ح ك" لديها مركز رئيسي لتوزيع

الماء. تتولى شاحنات مبرمجة ومصفّحة تزويد كل بيت بحصته المقررة من الماء. أفهم إلى حدّ ما غضب ثوار الماء، فبعض الأهالي كانوا بالكاد يوفرون ثمن الماء بالعملة الالكترونية العالمية، بينما الشاحنات المبرمجة كانت تملأ أحواض السباحة والنوافير بالماء في الأحياء الغنية. قرصن الثوار أكثر من مرة نظام الشاحنات وتركوها تفرغ الماء في بيوت الفقراء. ما لا أفهمه هو رفضهم الحوار مع ملكتنا!

أشعر بالجوع! أرسل اشارة إلى المطعم. فيرسلون لي أقرب روبوت نادل. يعجبني هذا المطعم. صمّموا نادلهم الآلي هذا على هيئة طبّاخ على طراز رجل الفضاء الأول الذي وضع قدمه على سطح القمر. إنه مضحك حقاً، كلّ ما تطلبه يخرج من كرشه. أدفعُ لهُ عبر هاتفي ثمن السندويش وعصير البرتقال. آكل، وأعيد قراءة القصة الكلاسيكية لكاتبنا الذي عاش في بداية القرن. قصة مملّة عن العنف، في زمن النفط والتطرف الديني. شعرتُ بالخيبة حين عُيّنت في قسم الأرشيف القصصي. كان حلمي أن أعمل في مركز الألعاب مصمّماً لألعابي القصصيّة الخاصة. لكنّهم أوكلوا لي مهمّة تحويل القصص الكلاسيكية لكتّاب مدينتنا إلى ألعاب ذكية. قال المدير، إنه من أهم الأقسام، أنتم من سيفتح الباب للجيل الجديد لمعرفة ماضي بابل السحيق. من المؤكد أن مديرنا يبالغ، فمن الذي يهتم اليوم بهذا الماضي الدموي! أغلب الشبان لا يتابعوا غير ألعاب الروايات الفضائية التي تحقّق أفضل المبيعات. الحديقة تعجّ بالزوّار. من المؤكد أن سببه هو زيارة الملكة المرتقب. زوّار من كل مكان في العالم، مع أن اغلب الزوار اليوم هم من الصينين، يبدون سعداء جداً هم وعائلاتهم. كيف لا، وهم من صمموا أحياء القبب الجديدة، وهم الذين يديرون بابل. كل شيء تقريباً. وسائط النقل، الطاقة، المستشفيات، المدارس والسيطرة على تجارة الغذاء والماء. لا أحد

يمكنه أن ينكر عبقرية أحياء القبب العملاقة التي صمّموها. كلّ حيّ عبارة عن دائرة مثل ملعب عملاق مسقوف بقبّة زجاجيّة ذكيّة تتغذّى على الشمس، وهو المصدر الرئيسي للطاقة في بابل.

ربطت أيضاً جميع الأحياء بشبكة أنفاق مترو دقيقة ورائعة. وقد منح الصينيون أيضاً سكان بابل امتياز المواطنة الصينية. فنحن أهالي بابل، يمكننا الذهاب والعيش بسهولة في الصين وكأنها بلدنا، وينطبق الأمر على الصينيين اللذين يريدون العيش في بلاد الرافدين.

اتصل بصديقتي العزيزة، الهندية سارة. هاتفها مغلق! لا يمكنني قراءة المزيد. إيقاع القصة يشعرني بالنعاس. أحول القصة إلى خاصية الاستماع، لعلّ صوت القارئ يوحي لي بفكرة عن تصميم اللعبة القصصية.

يرنّ جرس الباب. انظر من النافذة. شمس الصباح تغمر الأشجار في الحديقة. البرتقالات يلمعن مثل تراجي أمي الذهبية. كم اشتاق إليها! اشتاق إلى قبلاتها، دموعها وحسراتها الحارة من تقلبات الحياة. اشتاق إلى تراجيها، قلوب الحب الذهبية، قلوب اشتراها ابي من اسطنبول في سبعينيات القرن المنصرم. هدية شهر العسل. حين كان أبي يعزف العود، وأمي معلمة تاريخ.

يرنّ جرس الباب ثانيةً. سرب كبير من العصافير ينقر في عشب الحديقة. يلوّح أبي بيده من فوق سياج الحديقة، فتطير العصافير خائفةً إلى حديقة الجيران...

"صباح الخير بابا ... خير ... خو ما صاير شي؟"

أقول، وأنا افتح القفل من سلسلة الباب الحديدية.

"ماكو شي ابني ... ماكو شي ... حبيت اشوفك"

يصافحني. يمسح العرق من أطراف أنفه. يحدّق في عينيّ، ثم يعانقني وكأنه يتذكّر تمريناً مسرحياً. يلوّح لي بالكيس الأسود الذي يحمله:

"سيادة المترجم .. جايبلك هدية"

"الله يستر بابا من هدية بكيس أسود... شنو بس لا كلاشنكوف!"

"بابا، الحرب ما تخلص مادام هنالك بشر، حرب وره حرب ..ليش هي شوكت الدنيا كانت من دون حروب... يالله ... طز!"

يقول أبي ويدخل.

أعد الفطور: شاي، بيض، وجبن.

يشعل أبي سيجارة بعد أن يبلع لقمةً واحدةً من البيض. يحمل استكان الشاي، ويجول ببصره على اللوحات المعلّقة على الجدار. يتوقف أمام لوحة مزيفة من لوحات فائق حسن، خيول في صحراء.

"شنو أخبار قصصك الإنكليزية؟"

يسأل وهو يتأمل اللوحة.

أخرج من الكيس الأسود هديته. عصا كشف المتفجرات. يأخذ العصا منّي ويشرح لي عملها معتبراً الطاولة هي السيارة. أبي قلق من ان تستهدفني الجماعات الإسلامية بسبب عملي الجديد. فربما يعدّون ترجمة الادب الامريكي خيانة وتعاوناً مع المحتل. إنها مجرد عصا بلاستيكية مربوطة في طرفها مرآة لتفحص السيارة من الأسفل.

في السنوات الأخيرة، طوّر القتلة أساليب جديدة في حصد أرواح الناس. كانوا يلصقون العبوات المتفجرة في السيارات. لم تكن هوية الشخص المستهدف مهمةً. المهم أن تواصل الفوضى الوحشية أهدافها! كانت العبوات اللاصقة إما أن تقضي عليك في الحال، أو تبتر ساقيك! عندها سيقول لك الجيران والأقارب والأصدقاء، احمد واشكر الله على نجاتك! ثم تصير رجلاً يحمد الله ويشكره من دون ساقين. ينحتك العنف وتصير نصف تمثال. العنف أبشع نحات أنجبته البشرية. نحات وحشي، لا أحد يريد أن يتعلم من منحوتاته الدروس. تخرجت من كلية اللغات قبل عام. درست الانكليزية. كنت محظوظاً في الحصول على عمل في مجلة الآداب الأجنبية. كانت المجلة مختصة بترجمة الأدب العالمي من مختلف اللغات. أثناء دراستي كنت قد ترجمت قصة لهمنغواي وأخرى لمارغريت آتوود. نشرتهما في الصفحة الثقافية في مجلة "أوراق" يبدو أن ترجمتي لفتت انتباه رئيس التحرير، اتصل بي عندما كنت على وشك التخرّج، وطلب مني أن أزوره في المجلة بعد أن أتخرج من الكلية.

وقعت عقد العمل مع مجلة الآداب الأجنبية قبل 3 أسابيع. اختاروا لي في المجلة، قصة من قصص ريموند كارفر. لم أكن قد قرأت له شيئاً. لكنني سمعت باسم كارفر في مقال نقدي يتحدث عن الواقعية القذرة وعن زميله فورد.

يصبّ أبي لنفسه استكان شاي آخر ويخرج إلى الحديقة.

أراقبه من النافذة. يجلس إلى الطاولة أسفل شجرة البرتقال. يحدّق في الطاولة وكأنه ينظر إلى نفسه في مرآة!

يتحوّل أبي كل عشرة أعوام إلى شخص آخر. وكأنه يرقص بإخلاص مع

إيقاعات الحياة في بلادنا الخرائية. كان خالي، مترجماً لكتب فرويد، ينعت أبي بالحرباء. وظل يردّد طوال السنوات الماضية، بأن الحرباء هو الذي قتل أخته. ماتت امي فجأة بالسكتة القلبية. كنا ثلاثة أولاد وبنت. ترجّلت أمي من السفينة، وبقينا نحن نصارع أمواج حياة أبي الهائجة والمتقلبة. قبل أن نولد، في سبعينيات القرن العشرين، كان أبي مولعاً بعزف العود والشيوعية. وكان يحيي حفلات شيوعية خاصة بالرفاق، ألحاناً حماسية مناضلة. فقد لحن أغنية كانت مشهورة حينها اسمها (لينين في بغداد). في مطلع الثمانينيات، ترك أبي الشيوعية وتطوّع في الجيش وصار قناصاً. حصل على أكثر من نوط شجاعة في الحرب. كان قناصاً ماهراً في ثقب جماجم الجنود الإيرانيين. في التسعينيات، فرّ أبي من الجيش وقضى أيامه من سجن عسكريّ إلى آخر. لقد صارت سجونه جوامع. راح يصلّي ويتعبّد وتحوّلت أفكاره عن الشعب الحر والسعيد إلى خارطة طريق إلهية، تفضي إلى الجنّة أو النار. ومع سقوط الديكتاتور في بداية الألفية الجديدة لم يعد يفهمه أحد. كان يغوص في عزلات غريبة. يختفي أسبوع أو أكثر ثم يظهر فجأة.

لم يكن يسمح لأيٍّ كان بالاستفسار عن سرّ غيابه. صار انطوائياً وكئيباً. وبعد أن غادرت القوات الأمريكية موقع الآثار في بابل. عُيّن أبي حارس في الآثار، وصرّح في أوّل أيّام عمله: الكفرة الامريكان ... يتخذون من موقع أقدم حضارة في العالم معسكراً لجنود أغبياء، يحتلّون بلداً باسم الديمقراطية!

استقلّ المصعد إلى الطابق العاشر. عند بوّابة القبّة الرئيسية يذكّرني روبوت الاستعلامات بإجراءات السلامة للخروج إلى المدينة المهجورة. أدفع له وأستعير قناعاً واقياً. تفتح البوابة وتغلق. الغبار يحجب الشمس. *الزوابع الرملية تلهو في كل ارجاء المدينة. اشغّل شاشة الرؤية في القناع.*

اقترب من نافورة ميتة عمرها أكثر من ١٠٠ عام، وأجلس على حافتها. ثلاثة سكارى يعبثون عند زاوية الشارع. مازال هاتف سارة مغلقاً! من المؤكد أنها مشغولة بزبائن فندق المتعة. يركع أحد السكارى على ركبتيه بحركة مسرحية، بينما الآخران يحاكيان عملية إعدامه. أظنهم يسخرون من ماضي الذبح في البلاد. داعش والطائفية التي كانت تغذّيها أموال النفط. هذه المدينة المهجورة لم تعدْ سوى مسرح متصحّر لماض دمويٍّ، ماضٍ غرق في التعصب الديني وهيمنة الرأسمالية الكلاسيكية. لم يتوقّف العنف إلا بعد أن غرقت بابل في دوّامة التغيّرات المناخيّة ونضبت تقريباً منابع النفط. كم هي محيّرة ومؤلمة مسيرة الإنسان. جفّت الأنهار والحقول، زحفت الصحراء وأبادت المدينة. كانت الحكومة الفيدرالية تصارع حينها، من أجل أن تساعد التقنية الحديثة في منع الناس من هجر المدينة إلى الأبد. أفادت الحكومة الفدرالية من واردات النفط في سنواته الاخيرة وبدأت مشاريع استثمارية كبيرة، وانفتحت على العالم. كان العاملان الحاسمان في قلب موازين الكثير من بلدان العالم الثالث هما نضوج الطاقة النظيفة وانتشارها في شتى انحاء العالم، وانتفاضة شعوب الغرب على النظام الرأسمالي الوحشي والأناني، وترسيخ فكرة مصير واحد، وعالم واحد، من دون نفاق، وأنانية (هذا ليس بلدك، وهذا ليس بلدي، إنها ارضنا) لم تعد هذه الفكرة مجرّد شعار، نشطت الشعوب وراحت تأخذ زمام المبادرة لتغيير هذا العالم بحكمة، وإنسانية، وعدالة حقيقية. في منتصف القرن غيّرت تسمية العراق إلى بلاد الرافدين الفيدرالية. شيد الألمان أولاً الأحياء المتطورة في بابل ومدن أخرى، وهي قد مكّنت السكّان من التعايش مع عواصف الصحراء. العواصف الرملية التي أذلّت الحياة في المدينة وحطّمت رئتها. تطوّرت خلال فترة، الأحياء الألمانية، أجيال بارعة في التقنية الرقمية، إلى أن دخل الصينيون على الخط،

وأبهروا العالم بأحياء القبب التي تعتبر مثالية اليوم للمدن التي تعاني من التصحر البيئي. ومع الأحياء الصينية نشأ جيل مدينة بابل السحري. جيل يصدر اليوم للعالم أبرع البرامج الرقمية والاكتشافات العلمية المذهلة. وعلى يد ملكتنا، صارت أحياء القبب جنائن بابل الجديدة. لكل حي في بابل ميزته وطابعه الخاص. حي يتميز بحدائقه الافتراضية الخلابة، وآخر بمراكز الفن الرقمي، وثالث بأحلامه الفضائية، مثل الحي التاسع حيث يبنى فيه الآن المصعد الفضائي العاشر في العالم. لولا ثوار الماء لكنا نعيش في سلام. أنا افهم رفضهم لحصص الماء، لكن العنف هو حل بدائي رومانسي لواقع يحتاج للسيطرة اولاً ثم التفكير ثانياً. لا أدري ما هي حلولهم، الغضب الأعمى هو سلاح لا إنساني، إنها أنانية وغرور أجوف. تخطر على بالي صورة كاتبنا الكلاسيكي غاضباً من حياة الدم والعنف في مدينتنا مطلع القرن. أوكي ، لم لا، ربما تكون فكرة مقدمة للعبة قصته. لم لا تكون اللعبة القصصية مستوحاة من نهاية كاتبنا الكلاسيكي. كان قد لجأ إلى فنلندا بعد أن احتلت داعش مدينته. كتب في فنلندا أربعة كتب قصصية ومسرحية، ثم اختفى، إلى إن عثروا عليه منتحراً أسفل شجرة في غابة شمال فنلندا. كانت درجة الحرارة ناقص 40 وحين بحثت عن سنة ولادته، تبين انه ولد في الصيف في شهر تموز. ربما ولد في درجة حرارة زائد 40. ربما تكون ولادته أسفل الشمس وموته في الثلوج مفتاح لمقدمة اللعبة. ممكن أن يكون هناك خياران للاعب. أيقونة الشمس وأيقونة الثلج. إذا نقر اللاعب أيقونة الشمس تبدأ اللعبة من ولادة الكاتب ثم ندخل إلى قصته وإذا اختار أيقونة الثلج يبدأ اللاعب من انتحاره أسفل شجرة وفي يده مسدس. أو أن يكون المدخل للعبة رقمين لا غير: سالب ٤٠ وموجب ٤٠ ويكون هناك نفقان للقصة، واللاعب هو من يختار! خره، يا لها من فكرة ميتة!

أتمشى قليلاً، لعلّ هذه الأفكار السطحية تتبخر من دماغي ويهبط الإلهام. انه ليس يومي! قرب البرلمان القديم، معلمة ترتدي قناعاً ومعها مجموعة من الأطفال يبدون بأقنعتهم الواقية وكأنهم حيوانات بدائية. أكيد هي جولة في الماضي لتعلم الدروس. بعض السياح النيجريين يدخلون مبنى البرلمان المهدم بحذر وهم يلتقطون الصور. أشعر بمرارة في فمي، أعود إلى القبة. استقل تاكسي مبرمجة من دون سائق وأذهب إلى فندق المتعة حيث تعمل سارة. أغلب السواح يفضلون تاكسي مع سائق محلي للثرثرة معه. في فندق المتعة استقل المصعد إلى طابق الفنتازيا. اقدم اختبار فحص الدم لروبوت التحليل، فيفتح باب. ادفع ٢٠ وحدة الكترونية فيفتح باب آخر على الصالة، حيث الجميلات الساحرات. اختار فتاة تركية جميلة، وأمارس الجنس معها في غرفة انعدام الجاذبية. أنزل إلى طابق الجنس الافتراضي حيث تعمل سارة. ما أن تراني حتى تهرع لمعانقتي.

"في ايّ طابق كنت؟"

تسأل مبتسمة.

أخبرها عن الفتاة التركية، فتضربني على مؤخرتي:

"مغفل! في طابق الرومانسية فتاة بصراوية جديدة ستخطف عقلك الصغير إن رأيتها"

"أعانقها مرة أخرى وأهمس قرب شفتيها، وأنا اشتقت إلى عقلك المبهر!"

تبعدني عنها بلطف وتنقر بقبضة يدها على رأسي، لنغادر الآن أيها الزب القصصي، ما بك؟ هل أنت بخير؟

أخبرها باختصار عن مشكلتي في تحويل قصة كاتبنا الكلاسيكي المنتحر

إلى لعبة قصصية. تسحبني من يدي وتقول بمرح، لنذهب إلى بار الجين الأناني، انه بار كلاسيكي وربما ينفع قصتك الكلاسيكية.

في البار، تطلب سارة من ماكينة الكحول البيرة وآخذ أنا عرقاً جديداً أنتج قبل شهرين. نجلس في زاوية البار. تختار سارة من شاشة الطاولة الالكترونية خيار العزلة. فتحيطنا شرنقة زجاجية. أختار أنا من الشاشة أغنية سويدية جديدة تحبها سارة. أسألها عن أحوال والدتها في الهند. قدمت أمي استقالتها من مشروع المريخ، تقول سارة، والسبب هو اعتراضها على الدستور الاخير الذي كتبته لجنة (عالم واحد)، هي تعترض على النصّ الذي يقول بما معناه أن على كل مواطن في الفضاء ان يتعهد بألّا يتمرد أبداً على حكومة المريخ العالمية عن طريق العنف. أنت تعرف أن هذا النقاش متواصل منذ أكثر من ٧٠ سنة. والفكرة بسيطة إن حدث تمردٌ عنيفٌ وخربت أية أجزاء من المستوطنة فهذا قد يعني موت جميع المستوطنين. الحياة هناك ما زلت هشةً ولن تتحمل ايَّ عنف. أمي تعترض وتقول إنه تأسيس لديكتاتورية الفضاء. المهم، أخبرني الآن، ماهي مشكلتك القصصية!

لا يروق لي مذاق العرق الجديد. تجلب لي سارة شراباً آخر مصنوعاً في جنوب أفريقيا، لم أشربه من قبل. طعمه حادٌ وحلوٌّ. أنظر في عينيّ سارة الواسعتين وأقول، صديقتي العزيزة، ببساطة أنا فنّان قصصيّ، وأريد أن أؤلف ألعابي القصصية والروائية الخاصة بي. لا أجد المتعة الكافية في تحويل أدبنا الكلاسيكي إلى ألعاب ذكية. بصراحة قصصهم لا تثيرني كثيراً. ثم إن قصة كاتبنا المنتحر، لا جديد فيها، وأعتقد انها من أضعف قصصه. كانت آخر قصة يكتبها وينتحر. تقترح سارة أن أدهش مركز الألعاب، أن أقوم بتحويل قصة كلاسيكية شبه ميتة إلى لعبة متطوّرة خلّاقة، سيثقون بي، وسيتيحون لي الفرصة للانتقال إلى قسم تأليف الألعاب القصصية. تخرج

سارة من جيبها علبة معدنية صغيرة وتضعها على الطاولة. تفتح العلبة التي تبدو فارغة وتقول، هنا مفتاح، ستنتهي من القصة خلال يوم واحد! تقول سارة.

لا، أرجوك سارة! أنت تعرفين أني لا أحب الحشرات المخدرة. ربما تدخنين شيئاً طبيعياً اوكي، لكن المخدرات الالكترونية لا أستسيغها.

في هذه الحياة القصيرة عليك أن تجرب ولو مرة واحدة هذه الحشرة المجهرية المخدرة، صدقني إنها من طراز خاص! طورت الحشرة في البرازيل وهي الان تنتشر في أرجاء العالم. إنها حشرة سحرية من نوع خاص. لا يمكنك أن تستخدمها بنفسك، يجب أن يكون هناك شريك تثق به ويثق بك ليتحكم هو بالحشرة. والشريك هو الذي يقرر بأن (الرحلة) قد انتهت. لا تقلق، ولا تكن جاداً أكثر من اللازم، أعتقد أنك تثق بي؟ تستخدم هاتفها كعدسة، وتنظر داخل العلبة. تبلل طرف أصبعها وتضعه في العلبة، تلتصق الحشرة، تدخل أصبعها في شعري وتحرر الحشرة. اهدأ، إنها لا تعمل الآن، ستعثر الحشرة فقط على المكان المناسب في فروة رأسك العنيد، ولن يبدأ مفعولها بالعمل إلا بعد أن أقوم بتشغيلها أنا من جهازي الخاص. سأرسل إلى هاتفك نظام إبطال مفعول الحشرة. بعضهم يتمكن بنفسه من إيقاف مفعول الحشرة أثناء الرحلة، مثل من يدرك أثناء نومه أنه يحلم وعليه أن يفيق. لا ينجح الجميع في تعطيل الحشرة! المهم يجب أن تسترخي، أنا سأراقب عمل الحشرة ونشاط دماغك، وأوقف مفعول الحشرة في الوقت المناسب.

في صباح اليوم التالي أقرر الذهاب إلى القبة السابعة، من هناك يمكنني الذهاب إلى المدينة المهجورة، ثم إلى موقع الآثار القديم حيث أسد بابل، الأسد الذي نقل مع الآثار المهمة الأخرى قبل سنوات عدة إلى القبة ١٤.

ربما يلهم مخيلتي (موقع الأسد) بمساندة من حشرة سارة المخدرة. آخذ القناع الواقعي وبعض الطعام والماء. أعيد قراءة قصة كاتبنا، وأغادر.

إنها مجرد صحراء. أحدّد موقع (الأسد) عبر الخارطة الالكترونية في شاشة القناع. زوابع رملية كثيرة وريح حارة. أبعث برسالة إلى سارة (شغلي حشرتك العجيبة).

"رحلة موفقة أيها الزبّ القصصي"

تردّ.

أحاول العثور على موقع أنابيب النفط القديمة. تمر ٥ دقائق من دون أن أشعر بمفعول الحشرة المجهرية. ربما دماغي أصلب من ذكاء الحشرة. أشعر بالقلق في هذا المكان المقفر. أسمع صوت أطفال. أصعد تلاً رملياً. أعتقد أن أنابيب النفط موجودة بعده. أسفل التل مجموعة من الأطفال يلعبون كرة القدم. كيف لهم أن يلعبوا من دون أقنعة واقية! اقترب منهم، فيلوح لي حكم المباراة الشاب بيده، وكأننا اصدقاء. يسجل ولد نحيل هدفاً بعد أن حاول المدافع عرقلته. يتشاجران، فينطح المدافع الولد المهاجم برأسه. يسيل الدم من أنف المهاجم. تتوقف المباراة. الولد المهاجم في منزله بينما تحاول أمه أن توقف نزيف أنفه بالقطن وهي توبّخه. تحشو أنفه بالقطن، وتطلب منه أن يرفع رأسه إلى الأعلى. أعرف هذا الولد، إنه كاتبنا المنتحر في أيام صباه! أخرج إلى الحديقة كي أتأكد من الأمر! نعم، أكيد، هذه هي شجرة الرمان التي ولد أسفلها في شهر تموز. ظلت أمه تصرخ إلى أن عبرت جارتهم سياج الحديقة وساعدت على ولادته. أين هو؟ أوكي، إنه في سطح المنزل! يجلس بين عشرات الطيور الحمر. يرمي بالحبوب للطيور ويخرج كتاباً من برج الطيور الخشبي الكبير. لقد وضع

رفّاً صغيراً من الكتب داخل البرج. ربما يخبئ الكتب عن أهله. ماذا يقرأ، آه، دميان هيرمان هيسه. فجأة تختفي الزوابع الرملية، وينزل الثلج بكثافة على الغابة. أرى دخاناً يتصاعد. أتجه صوبه. إنه كوخ خشبي صغير وقربه ساونا. الدخان يتصاعد من الساونا. يخرج رجل عارٍ إلى باب الساونا يدخن، ويحتسي الكحول. ومن غيره! كاتبنا الكلاسيكي بشحمه ولحمه. لحية بيضاء وصلعة ووجه كئيب. على الرغم من أنه لم يتجاوز الأربعين من العمر، لكن الزمن خربش ملامح وجهه بقسوة. تعجبني هذه الغابة الفنلندية. ابتعد عن الساونا وأتوغل في الغابة. أشاهد ذئباً. من الافضل أن أعود إلى بيت الكاتب. يجلس الكاتب أمام الكمبيوتر يكتب ويحتسي الكحول ويدخن، وهو يرتدي قبعة خضراء. فجأة ينهض ويحطم الكمبيوتر على حافة الطاولة، وأخيرا يركل حطام الكمبيوتر وكأنه حارس مرمى يركل كرة إلى خط الهجوم. يدخل المطبخ. يخرج من أحد الجرارات فطراً مخدراً، يأكل منه ويجلس إلى الطاولة يدخن. أجلس قبالته. يضع قبعته أمامه على الطاولة، فأخلع أنا بدوري قناعي الواقعي وأضعه على الطاولة. تمرّ دقائق ونحن نحدّق في بعضنا. يسألني، ما الذي تريده مني؟ لست متأكداً فيما إذا كان يوجه الكلام لي، فربما هو تحت تأثير الفطر المخدر ويرى شخصاً آخر أو أنه يتحدث مع شخصياته القصصية. في زاوية المطبخ عصا كشف المتفجرات. ربما صنعها بنفسه كي يعيش أجواء قصته. العصا هي هدية الوالد لابنه المترجم. يا له من بائس، يبدو أنه صاحب مخيلة كئيبة، وأدواته الإبداعية بسيطة جداً. ينهض ثم يقترب مني. يضع يده على كتفي. أكيد إن ما يحدث ليس حقيقياً. إنه يهلوس! يكلّمني، أو بالأحرى إنه يروي قصته التي حفظتها على الغيب. لا أعيره انتباهي، يرحل ذهني إلى قطة سوداء تستلقي أسفل شمس لذيذة. أشعر بأنفاسها. أشعر أنني أستريح داخلها! أغمض عيني وأندمج مع كيان

القطة، بينما كاتبنا يواصل رواية قصته:

بعد أن خرج أبي إلى الحديقة حملت إبريق الشاي وتبعته. سألته إن كان يريد المزيد من الشاي. بقي صامتاً، ثم راح يتحدث عن مزايا شجرة البرتقال، هل تعلم يا ابني، أن العالم عرف شجرة البرتقال من خلال الحضارة الصينية القديمة، والتي كان فيها البرتقال ملك الدواء والغذاء. يا لها من شجرة رائعة، تزهر وتثمر في الوقت نفسه.

أبي هل انت بخير؟

لا يرد الأب. ينهض ويقطف برتقالة. وقبل أن يهم الأب بالكلام تفتح القطة السوداء عينيها وهي تستلقي مسترخية على حافة سياج الحديقة. فأرى من خلال عينيها، ضوء الشمس الساطع يغمر كل شيء. أرى الأب يجلس مع ابنه أسفل شجرة البرتقال. أسمع حشداً هائلاً من الأصوات. يمكنني أن أميز كلّ نوتة وهمهمة في عرس الأصوات هذا. في البداية تدهشني كل هذه الأصوات، لكنّها تسبّب لي القلق بعد حين. أتجاهل معزوفة الأصوات، وأحاول التركيز على ما يقوله والد المترجم.

اسمعني بني، أما هو لم يسمع كلامي أبداً! حذرته وتوسلت إليه، صار براسي الملاك الثائر! مزقه وشواه انفجار أنبوب النفط. إنها بابل. ملعونة. لم يصدقني! الأبالسة تقطن هذا البلد الجايف. نحن مجرد عبيد يارجل.. لا تصير ثور الله بأرض الله ... مية مرة كررت كلامي هذا! ظل يهذي عن الأخلاق والضمير، وكأننا نعيش في جنة الله الموعودة. كل كلامه كان يذكرني بمسلسلات الدراما الدينية العربية، أخلاق فصيحة بلغة منقرضة. أبو زهرة، أنت تعرفه، زميلي في حراسة الآثار، لقد صم أذنيه ولم يشغل دماغه المعطوب. اقسم بالله العظيم، إنني قبلت يده وتوسلت اليه في

ليلته الأخيرة. كنا نجلس قرب أسد بابل.

أغادر القطة. أشعر بالأسف على ذلك. أشعر بارتياح كبير داخلها. أجلس قرب الحارسين عند الأسد، وأنا أرتدي قناعي الواقي. يشعلان ناراً صغيرة ليستدفئا.

كانت ليلة شتوية باردة. غصت في معطفي ورحت أصغي إلى كلامه الفارغ، ودمي يفور. ظلّ يكرّر كلامه وكأنه خطيب في جامع "عيب يارجل... هذا بلدك ... وذوله خوات القحبة باسم الدين يحرقون ويسرقون ويريدون يرجعوا البلد ألف سنة إلى وره حتى يعيشون بجنتهم ... جواري وعذروات وكلاوات ..."

أنزع قناعي، فيختفي الحراس، ويبقى أسد بابل؟! إنها ليلة جميلة. السماء صافية. والطقس عذب. أكيد إنني في فصل آخر. لا شتاء، ولا برد، ولا حتى عواصف رملية. في أي زمن أنا؟! أتمنى ألاّ أتيه. أتمدد فوق الرمل وأتأمل نجوم السماء المشعّة. أغمض عيني. تفتح القطة عينيها فوق السياج، فأرى الأب وابنه المترجم من جديد. ينهض الأب. يمسّ أوراق شجرة البرتقال، ويواصل كلامه:

قبل ستة شهور أخذت اللجان البرلمانية تتوافد على المنطقة الأثرية. اتهمت هيئة الاثار والتراث وزارة النفط بتدمير آثار مدينة بابل من خلال مدّ أنبوب للمشتقات النفطية عبر منطقة أثريّة غير منقبة، لكن وزارة النفط

نفت الأمر، وصرّحت بأنّ الأنبوب تم انشاؤه في منطقة يمرّ بها انبوبان لنقل الغاز والنفط منذ عام 1975. لم تستسلم هيئة الآثار وطرحت القضية أمام القضاء. قالت الهيئة، إن أنبوب وزارة النفط سيحول دون إعادة إدراج آثار بابل إلى لائحة التراث العالمي بعد أن عبث بها الدكتاتور السابق. ففي العام 1988 قامت السلطات العراقية ببعض أعمال الصيانة للآثار، إلا أن اليونسكو، وبعد معاينتها للموقع ذكرت إن الترميمات لا تتطابق مع المعايير الدولية. فقد استُخدمت مواد مخالفة للمواد الاصلية التي استعملها البابليون، وبينها قطع حجر مكتوب عليها (من نبوخذ نصر إلى صدام حسين بابل تنهض من جديد) لذلك أصرت اليونسكو على عدم إدراج مدينة بابل الأثرية ضمن لائحتها. بعد أن تناقلت وسائل الإعلام قضية أنبوب النفط الجديد، اشتد النقاش بين الأحزاب السياسية في البرلمان وراحوا يتبادلون التهم بالفساد والعمالة للدول الأجنبية. زارني خال زوجتي، الملقب "أبو عقرب"، وقدّم لي عرضاً مغرياً. قال إن جماعته الدينية المسلّحة تريد نسف أنبوب النفط القديم في بابل. وطلب مساعدتنا، أبو زهرة وأنا. كان خال زوجتي يعرف أبا زهرة حق المعرفة. كانا يعملان سوية في المدرسة الابتدائية أيام الدكتاتور السابق. أبو زهرة يعلم الدين والخال يعلم الجغرافية. الخال اليوم هو مسوؤل كبير في منظمة دينية مسلحة تدعى سيف الامام. تدعي المنظمة انها تقاتل الحكومة الجديدة والكفار، وتخون الجميع. أسس المنظمة رجل دين منشق عن حركة دينية واسعة النشاط ألقت سلاحها ودخلت العملية السياسية الناشئة. وتحولت الحركة الاخيرة من حركة ذبّاحين يصومون ويصلون إلى وزراء وبرلمانيين واصحاب شركات ونفوذ، ثم غرقوا في غضون عام واحد هم ودينهم ودنياهم في بحر الفساد المتلاطم في البلاد. قدموا لنا مبلغاً هائلاً مقابل التغاضي عنهم أثناء روتين الحراسة الليلي في منطقة

الآثار. يتسلّلون هم وينسفون أنبوب النفط. ثم يصدرون بياناً عن طريق اليوتوب يقولون فيه، إنهم فجّروا الأنبوب كتحذير من مد إنبوب جديد في بابل. وإن حكومة الفساد والاحتلال تسرق نفط البلاد هي وأميركا بينما الشعب جائع وفقير ... والموت لكل الخونة!

قلت لأبي زهرة، إننا لا نساعدهم في قتل الناس الأبرياء. إنهم يفجرون فقط أنبوب نفط في منطقة بعيدة عن الناس ... ثم يا نفط هذا ... صار سنين وسنين وإحنا عايشين برعب وخوف وحروب من وره هذا النفط ... شنو شايفين منه غير الموت والقهر والخره ... خلي يفجرونه ويخلصونا من النفط ولعنته للأبد ... كلشي منهوب بهاي بابل ... عظام الآثار وعظام النفط مسروقة ... وشمحصلين إحنا من حراسة أعظم حضارة في العالم ... إحنا حراس للحرامية ... أيام السافل الدكتاتور نبشوا الآثار أولاد عم الرئيس وباعوها للغرب جامع الآثار والنفط ... واليوم أولاد عم الإمام ... يريدون حصتهم من خزينة العظام ... يريدون يسوّن صفقة جديدة ويه أسواق الغرب الذكية!

رفض أبو زهرة عرض جماعة سيف الإمام رفضاً قاطعاً. وهدّد بأنه سيكتب إلى الجهات الأمنية والمحافظ، إن لم يتوقفوا عن تهديداتهم. ماشفت واحد غبي مثله في حياتي! عن أي محافظ وأجهزة أمنية يسولف! هي الأجهزة الأمنية كلها ميليشيات تابعة إلهم ... ذهب أبو عقرب، بنفسه إلى أبي زهرة وهدده ...بس شكول... سد آذانه وعاند ... حياتنا سوادين... حياة خره ...

يصمت أبي وينهض من مكانه. ينظر إليّ ويطلب مني أن أسامحه وهو

يعانقني. يلصق خده على خدي فتبلل دموعه بشرتي. يخرج من جيبه دي في دي مغلف بورق عادي ويضعه على الطاولة .

احتفظ به ، يقول وهو يغادر.

تغادر القطة في الوقت نفسه. تنزل إلى حديقة الجيران ثم تتسلق حتى نافذة المنزل في الطابق الثاني. تجلس على حافة النافذة وتتأمل ما في الغرفة. لا أثاث في الغرفة سوى سجادة حمراء فارسية. رجل عار بكرش متهدل في وضعية السجود، الشعر يغطي كل جسمه، يبدو وكأنه كومة من الشعر لا غير. تركع عند مؤخرته فتاة شابة. تدخل اصبعها الاوسط في زرف طيزه، بينما الرجل يتأوه من اللذة. ينهض فجأة، يستقيم، ثم يركع. إنه يصلي صلاة المسلم، وفي كل ركوع وسجود تدخل الفتاة الشابة أصبعها في زرف طيزه. ربما يتخيلها حورية من حوريات الجنة! أخيراً ينقلب على ظهره، يرفس الرجل الغوريلا بقدميه الهواء من فرط اللذة، ثم ينهض ويخرج. تهم الفتاة بغلق الباب بالمفتاح. أتأمل جسدها الجميل الرشيق. يشبه جسد سارة الشبق. أين هي سارة؟ لم لا أتصل بها! هل ما يحدث له علاقة بقصة كاتبنا المنتحر. لا يوجد ذكر للمصلّي أبو طيز عاري في قصته. يعود أبو طيز ويطرق الباب بقوة. يبدأ بالصراخ وهو يركل الباب، مطالباً الفتاة أن تفتح الباب. تجلس الفتاة على الأرض وتشرع بالبكاء. تملّ القطة من صراخ الرجل خلف الباب فتعود إلى الحديقة. تتمشى بحذر. ثم فجأة تتحفز للصيد. ربما فأر! أحدق جيداً، آه ... أوكي ... إنه مجرد عصفور صغير.

يستل كاتبنا مسدساً من درج طاولته ويخرج.

أتبعه! يمشي حافي القدمين فوق الثلج. أمشي خلفه. أطلب منه أن يتوقف، لكنه يواصل المشي. أصرخ بصوتٍ عالٍ: توقّفْ أنا أعرفك، أنا مصمم

قصص مثلك، وجئت من أجل تطوير قصتك إلى لعبة ذكية!

يلتفت كاتبنا إلى الوراء، يقول مبتسماً: كلّ شيء سيان!

تعود القطة إلى منزل المترجم، فيراها من النافذة. يفتح لها الباب فتقترب منه. يداعبها ويحملها إلى حضنه. ينظر إلى شاشة الكمبيوتر. لا يمكنني أن أرى شئياً. أنا خارج القطة الآن. أين أنا يا ترى؟ ما الذي يقرأ؟ ربما يترجم قصة كارفر. في القصة الأصلية هو يترجم (مالذي نتحدث عنه حين نتحدث عن الحب) قطة لعينة! ربما شعرت بي وأزاحتني. يشغل المترجم "الدي في دي" الذي أعطاه له والده. لا يمكنني أن أرى شيئاً في الشاشة. صحيح انني خارج القطة، لكنني الآن قرب الأسد. دائماً الأمكنة نفسها، لكن خارج الزمن! لست بحاجة إلى عيون القطة. أعرف فحوى فديدو "ال دي في دي"، لقد قرأت القصة عشرات المرات. يبدأ الفيديو، حيث الظلام الدامس يخيم على أنبوب النفط العملاق. لا يضيء المكان سوى نور القمر. أبو زهرة راكع على ركبتيه ويداه مقيدتان إلى الخلف وعيناه معصوبتان قرب أنبوب النفط. يدخل الكادر، حارس الآثار، والد مترجم كارفر. يتأمل الحارس زميله أبا زهرة للحظات، ينحني عليه ويقبله من رأسه ويخرج من الكادر.

أشعر بعطش شديد. يفتح المترجم نافذة الغرفة ويداه ترتجفان وفي عينيه رعب مما رآه في "الدي في دي". ما كل هذا الهذيان داخل جمجمة الإنسان، صراع وحشيٌ من أجل بقاء زائل. بقاء وهمي، مجرد موت مؤجل يمشي على ساقين. ماهي هذه الغريزة السجن! هل يمكن أن تحلّ المخيلة اللغز! تنط القطة من الشباك. يصل صراخ البنت جارتهم. يركض المترجم إلى منزل الجيران. يطرق الباب بشدة لكن لا أحد يفتح. يقفز من السياج إلى الحديقة ثم يحطم باب المنزل. أبقى أنا في غرفة المترجم. أتجول في منزله. إنه بيت متواضع لكنه مرتب بطريقة أنيقة. هذا إذن هو طراز البيوت

في بداية القرن الماضي! في غرفة الضيوف توجد صورة معلقة على الحائط تبدو أليفة بالنسبة لي، صورة طفلة صغيرة واقفة أسفل أسد بابل. إنها الصورة نفسها التي احتفظ بها في غرفتي في القبة الثانية، صورة أمي عندما كانت طفلة. ربما مجرد تشابه. هل تكون حقاً نفس الصورة، إنها أمي! ينقذ المترجم البنت المسكينة من الرجل المصلي، الذي كسر باب الغرفة، وراح يهدد الفتاة بسكين. لا أفهم ما حدث له! الغوريلا المؤمن كان مستمتعاً قبل قليل بإصبعها في زرف طيزه. أبحث عن المزيد من الصور في بيت المترجم. أعثر على ألبوم صور لحياته، إنه تاريخي!

تنتقل الكاميرا إلى مكان بعيد عن أنبوب النفط. يفجر حارس الآثار أنبوب النفط عن بعد. أبو زهرة يحترق. أنا أيضاً أحترق. أصرخ بشدة ورعب. يحل الظلام في الغابة. الألم لا يطاق، يطفأني أحدهم ببطانية. يطلق كاتبنا الكلاسيكي الرصاص على رأسه جالساً أسفل الشجرة. لا أريد أن أموت. أرتجف من شدة البرد. أنا ممدد قرب أبي زهرة المحترق. يتوقف الألم في جسدي. لكن رائحة اللحم المشوي تثير غثياني. القطة تخرج إلى الشارع. ثم تركض مرعوبة صوب الشارع العام. رائحة اللحم البشري تحرق دماغي. أريد أن أتخلص من كل شيء. لا أريد سوى أن أكون هذه القطة. تكاد ان تدهسها سيارة شرطة. تقطع القطة شوارع مدينة بابل الملعونة! تعبر بيوتاً، ثم تنزل إلى حدائق بيوت أخرى. تتسلق شجرة. ثم تمشي بحذر فوق غصن يكاد أن يلامس شرفة أحد البيوت البغدادية التراثية.

في الشرفة عجوز يشعّ وجهها بالطيبة والحكمة، تجلس على كرسيٍّ متحرك، تسقي الزهور في الشرفة. ثم تهمس للزهرة:

روحي إلى عدنان.. روحي إلى عدنان!

هل يكون عدنان ابنها ام زوجها الميت؟! استمتع كثيرا بمنظر العجوز وأشعر براحة غريبة تسري في حواسي. رائحة لحم أبي زهرة تختفي. يحل السلام ورائحة الزهور. تقرب العجوز شفتيها من النبتة، وتهمس للزهرة بأغنية:

نتعلم من الشتاء سحر خرافتنا : الدفء، العري، السرير

نتعلم من الزمن خزن الذكريات في أدراج بيت الروح

نتعلم من الخريف شكل أوراق العمر

نتعلم من القسوة والكراهية غرابة وجه الأنسان

ثم نبعثر أفكارنا

ونلعب من جديد ...

عصارة الحياة وهي تسيح لعاباً فوق قمصان أيامنا!

نخاف فنجتمع

نحب فنفترق

نتعلم اللعبة ونلعبها!

نتعلم الضحك من صمت اللعبة المكسورة في حضن الإنسان

ننام ونصحو

ثم ننام ولا نصحو

الصخرة النائمة هي التي قالت: الحياة مرآة الموت،

كلاهما حياة ميتة!

نتعلم الخوف قبل الإيمان

نتعلم الإيمان قبل الحب

نتعلم الحب قبل الحقيقة

فنخطئ ونتعلم الدوار على أنه درس للتعلم

نتعلم هبوب العاطفة من موسيقى الصمت والكلام

من أعماق الكهوف تهب ريح لُعبتنا المكسورة بحجر طفل ...

من الحقول النائمة والغابات تهبّ كل فصول الثمالة

غابة الحياة حبة عنب

غابة الموت برميل

غابة الحياة تخمير

غابة الموت كأس

ثم أصابع الانسان شرَاب خمور اللذة وآكل شوك الحيرة

ثم نخط جملتنا الانسانية الفقيرة

في سبورة العتمة

(نائمين في النسيان)

تفكر القطة في النزول من الشجرة. تنتبه لها العجوز، تبتسم لها وتدعوها (بس بس بس بس) تتقدم القطة بحذر فوق الغصن وتقفز إلى الشرفة. تشم قدمي العجوز. تقرب العجوز أصابعها إلى القطة فتشمها. رائحة الزهور في أطراف أصابع العجوز تبعث في نفسي الطمأنينة. تمسد

العجوز راس القطة. أشعر بالألفة، بالمحبة، بالسلام، بقيمة اللمسة الإنسانية وبطاقة الحب العذبة.

أخدر

أغفو

أحلم

أفيق.

في حديقة بابل الافتراضية، الطقس أكثر من رائع، وسارة تطلق ضحكة مجلجلة بين الحين والآخر، وأنا أحدثها عن رحلتي.

سارة: بذلت ما في وسعي للتحكم في مفعول الحشرة لعلك تستمتع في الرحلة، لكن دماغك العنيد كان غاطساً في سوداويته، حتى الحشرة البرازيلية الممتعة لم تجدِ نفعاً به!

عدنان: أوكي سارة، ربما ما تقولينه صحيح، لكن حشرتك البرازيلية قدمت لي خدمة لا تقدر بثمن. أولاً ستكون لعبتي القصصية مبنية على القطة كشخصية رئيسية للدخول إلى قصة كاتبنا المنتحر. لكن الأهم من ذلك والمدهش حقاً في كل ما حدث، هو إنني أخيرا عرفت من هو جدي! ربما لا تصدقين ذلك يا سارة، جدي هو مترجم قصص كارفر.

علي بدر

روائي عراقي، أصدر أربعة عشر رواية، وخمس دراسات أدبية وفلسفية، وثلاث مسرحيات، كما كتب العديد من القصائد والريبورتاجات وسيناريوهات الأفلام. درس في جامعة بغداد الأدب الفرنسي، وأكمل دراسته في جامعتي بروكسل ولوفن لا نف. أصدر روايته الأولى بابا سارتر في العام 2001، حيث حازت على شهرة واسعة النطاق، وطبعت إحدى عشرة مرة، وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية، وحازت على العديد من الجوائز. ومن رواياته الشهيرة أيضاً حارس التبغ التي صدرت في العام 2008 وقد ترجمت إلى الإنكليزية والايطالية والفرنسية (عن دار لو سوي). وترشحت لجائزة الكتاب الأجنبي في فرنسا. كما أصدر رواية الكافرة في العام 2015 وكانت الأكثر مبيعاً في جميع معارض الكتب العربية، وتحولت إلى مسرحية بالفرنسية، وإلى فيلم بالألمانية، وترجمت إلى العديد من اللغات منها الصينية والإيطالية. وفي العام 2016 صدرت روايته عازف الغيوم التي ترجمت إلى سبع لغات في عام واحد، منها الإنكليزية، والفرنسية، والايطالية والهولندية. وأخيرا صدرت روايته الكذابون يحصلون على كل شيء في العام 2017.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

العريف

لم يتأكد حتى الآن من حقيقة الجندي الخيالي الذي تم القبض عليه في مقهى قبل يومين في المساء. الحقائق التي يتحدث عنها: حياته، قصة مقتله، الأحداث التي مر بها جعلت مأساته محتملة الوقوع طالما أن الوقائع التاريخية تؤكد ذلك. المعلومة الوحيدة التي توفرت، وقد تناقلها الناس بسرعة كبيرة، جاءت بها صحيفة الكوت أوبزيرفر وهي أن شرطة المدينة المحلية ألقت القبض قبل يومين على رجل غريب، له ملامح غاضبة، ويستخدم لكنة كانت تستخدم قبل مئة عام. ادعى هذا الشخص أنه كان جندياً في حرب الأميركان، ولد في العام 1960 في مدينة الناصرية، ترقى إلى رتبة عريف، ثم قتل في مدينة الكوت في العام 2003. المحقّقون يدقّقون في أقواله وادعاءاته الخيالية. غير أن الرجل يصر على أن ما يقوله هو حقيقة، ولا يكفّ عن إعادة سرد قصته لهم:

سأقول لكم كل شيء إن استطعت، دون أن أسقط من السماء إلى الأرض، وأحدث صوتاً مدوياً....طراب... وأموت مرة أخرى...أموت ميتة لا

Telegram: @Arab_Books2

أعرف شكلها هذه المرة ولا طبيعتها.

الشيء المهم هو أنني اليوم شخص آخر...لست الجندي الذي كنته قبل مئة عام. لم أعد خائفاً كما كنت في السابق، بل سأقول الحقيقة بإصرار حتى لو دفعت ثمن ذلك غالياً!

يقولون إن الحقيقة لازمن لها، ولكن هذه القصة لها زمنها، وهو زمن الحقيقة. يا له من شيء رائع إذن أن أتكلم لكم عن الحقيقة، وأن أدقق بتفاصيلها التي تصرف صريفاً كصريف الحياة.

إذن ليكن الثمن ما يكن. لاسيما لو عرفتم بأنني ميت منذ زمن بعيد ولست حياً. فأنا في الواقع شهيد. نعم أنا شهيد، آخر جندي في حرب الأميركان. وإذا أردتم الدقة فأنا في الحقيقة: شهيد الوطن. أما كيف كان ذاك، فببساطة: اخترقت جبيني رصاصة قناص أمريكي، في العام 2003، أي قبل حوالي مئة عام من الآن.

*

اسمي سبهان، ولدت في العام 1960 في الناصرية، جندي عادي من جنود الجيش العراقي. جيش العراق البطل كما يسميه الإعلام ذلك الوقت. ولا شيء آخر يمكنني أن أضيفه لطبيعة مهنتي، أو للعمليات العسكرية التي قمت بها. ذلك لأنني ببساطة شاركت في كل العمليات البطولية التي قام بها هذا الجيش منذ التحقت به، حتى استشهادي في مدينة الكوت. أما شهادتي التي سأتلوها عليكم، فهي شهادة صادقة. شهادة حقيقية لا تزييف فيها. واقعية وليست خيالية. فالحدث الذي رأيته لا يمكنني أن أخفيه. لأن هنالك ما يكفي من الخيال والتفاهات في العالم الذي عشت فيه قبل مئة عام، ولا رغبة لي أن أضيف إليها شيئاً آخر.

*

انضممت إلى الجيش العراقي حينما كنت في الثامنة عشر من عمري. كنت يافعاً ذلك الوقت. طويلاً مثل سلم. لي شارب خفيف مثل ريش مؤخرة العصفور. وأنف بارز مثل قضيب. عليه بثور قليلة مثل خراء يابس منثور على الطريق. خدمت اثنين وعشرين عاماً وستة أشهر. من العام 1980 في الحرب العراقية الإيرانية حتى استشهادي في العام 2003 في معركة صغيرة مع الجيش الأمريكي. معركة ثانوية جداً ولم تكن رئيسية أبداً. لأن الحرب انتهت في الواقع قبل يومين من تاريخ استشهادي. وكنا ننوي التسليم أيضاً...بل لم نكن ننوي أن نقاتل أصلاً...كنا عند التلة الخرافية عندما فاجأتنا دوريتهم، وحين رأيناهم ارتبكنا...

-هولت... سمعنا الصوت...

قلنا لهم:

- فريندز...

لكن لم يصدقنا أحد...أنا من جهتي ابتسمت لهم ...استدرت قليلاً لأتحسس جيبي... جيبي الذي وضعت فيه وردة. لكن القناص الأميركي الذي كان جالساً في المؤخرة رفع بندقيته من نوع M24 وأطلق رصاصته.... رصاصة واحدة فقط. طراب ...جاءت في الجبين. رفع الأحمق بندقيته قبل أن أحييه أو أن أقدم له زهرة، كنت احتفظت بها في جيبي.

هكذا بكل بساطة رفع بندقيته المزيتة جيداً...والجديدة جداً وليست مثل أسلحتنا الخردة... وأطلق رصاصته. طراب ...فسال الدم الساخن على جبيني.

في البداية لم أكن مصدقاً...هل أصابني؟ لم أكن متأكداً...شعرت بشيء ساخن سال على وجهي. ابتسامة صغيرة على وجه أمامي. بندقيته هبطت عن عينه اليمنى ليرى أنه سدد جيداً وأجاد التصويب. ابتسامة عريضة اختتم بها المشهد. هذا كل ما في الأمر...

-ابن القحبة كان ماهراً... آخر عبارة صدرت عني...وهي عبارة إعجاب في الحقيقة بالجيش الأميركي.

*

بدأت حياتي جندياً عادياً في فوج المغاوير الثالث، الفوج الذي أبيد عشرات المرات في حروب صدام المتكررة. ومع إني لم استشهد في كل حروبه (حروب صدام بطبيعة الأمر) لكني جرحت سبع مرات، ثم ترقيت لأصل إلى رتبة عريف. ثم حصلت على نوط شجاعة في حرب الكويت، ثم التحقت بفوج الإنزال الهجومي في حفر الباطن بعد أن أعيد تشكيله لخسارته أغلب جنوده في المعركة. لم أمت في كل المعارك السابقة، ولكن رصاصة أصابت طرف أذني أثناء الواجب في معركة شرق البصرة فسقطت في جيبي. ومن حسن حظي كان الجندي الإيراني خائباً في التصويب لأنه سدد على جبيني في واقع الأمر فأخطئه وبدلاً من هذا أصاب أذني، وأطاح بها. هكذا شعرت بالدم وقد سال على عنقي...وقد سأل الطبيب عن أذني ليخيطها في مكانها ولكنه لم يجدها...ولكن بعد أيام كنت تحسست شيئاً ناعماً وبارداً في جيبي فكانت أذني...صرخت فرحاً: وجدتها...إلا أن الطبيب قال:

- لا نفع فيها...بعد أيام من سقوطها أصبحت خردة...إرميها أو إدفنها افعل بها ما تشاء لأنها لن تعود...

-كيف لن تعود يا سيدي الطبيب؟

-ابني قابل هي تاير...هي إذن وره يومين إذا ما ترجع لمكانها تموت الشرايين والأوردة...خلص..يالله اللي وراه...

وهكذا دفنتها في ساحة المعركة... بينما كل رفاقي كانوا ينظرونني بعيون جاحظة كعيون البق يحاولون رؤية رأسي بإذن واحدة.

*

أن أكون بأذن واحدة، ليس الأمر كريهاً ولا قبيحاً بالنسبة لي ولا بالنسبة لزوجتي! ولكن المشكلة مع الضباط، الذين لم يعودوا ينادونني باسمي، بل كانوا ينادونني: عريف تك أذن! ومن ثم كل الوحدة صارت تناديني بهذا الاسم! كانوا يسخرون مني هؤلاء الجيفة مع أنهم يعلمون أنها طاحت في سبيل الوطن وليس في سبيل مؤخراتهم...ليست أذني وحدها من خسائري... بل هنالك أشياء أخرى يمكنني الإبلاغ عنها:

شظية اخترقت كتفي، وأخرى مؤخرتي، وثالثة استقرت في ذراعي، ومع ذلك يمكنني أن أغرق في الضحك، وأتقلب على بطني لأقلّ نكتة تحكى في الموضع أو أثناء القصف أو الهجوم.

الحرب هي التي علمتني الضحك والفكاهة، مع إن ثلاثة من أضلاعي ليست سليمة، وليس هنالك من مصران في بطني يعمل بصورة منتظمة، وأكثر أسناني تداعت بينما كنا ننشغل في القصف، وتزييت الأسلحة، والاستاعد والاستارح، وإلى اليمين در...وغير ذلك.

كل هذا وأنا أقول إن خبراتي القتالية ممتازة هذا ما تقوله كنيتي العسكرية، ولست مثل أولئك الجنود الذين لا يساوون خراء الخرفان. إنها

مهمتي، وعملي، وقد أحببتها طائعاً ومرغماً. وكانت وحدتي التالية هي الحرس الجمهوري والتي كانوا يسمونها حرس صدام، والفرقة الذهبية، ورجال الموت، وأسود الصحراء...وغير ذلك من النعوت التي تجعل العدو يعملها في بنطلونه لو سمع بنا ونحن نتقدم إليه.

*

لا أفكر بالقتل في الحرب على أنه جريمة أبداً. إنه وظيفة، وظيفة ذات أجر. وظيفة محترمة مثل أية وظيفة أخرى في الحكومة. ليست عظيمة، ولكنها من الشرف الوطني حتماً. لست قاتلاً مأجوراً، ولا لصاً، ولا ساطياً. أنا جندي. عريف في الواقع. منتظم في الجيش الوطني. مثلي مثل الآخرين. ممنوع أن نجادل في أمر مهمتنا، ممنوع أن نسأل، أو نتراجع، أو نهرب، أو نمانع، أو نتخاذل. نحن هنا تحت الأوامر: أوامر القيادة العسكرية، أوامر ضباط الفصائل، أوامر الحزب...هذا ما لا جدال فيه مطلقاً، ننتظم في الوحدات، نقاتل، نهاجم، نحتل، ندافع، نحصل على الأوسمة، ونفتخر بأننا من الجيش الوطني....هذا كل ما في الأمر. ولا أظن أن الجندي الذي أطلق علي رصاصة، وأصابني في جبيني، وابتسم، يختلف عني في هذه المهمة... فهو أيضاً ممنوع أن يسأل، أو يتراجع، أو يهرب، أو يمانع، أو يتخاذل. هو مثلي عليه أن ينتظم في الوحدات العسكرية. يتدرب، يدافع، يحتل، يهاجم، يطلق الرصاص بمهارة على العدو. هذا ما فعله تماماً معي...حين أصابني، أزاح الناظور عن عينيه قليلاً، ابتسم وهو ينظر جبيني الذي أصبح مثل ذروق الطير مشتتاً في الهواء. ابتسم حين رأى أنه أصاب الهدف بمهارة...لما أدرك أنه زرع رصاصته في الجبين...قلت ابن القحبة...بعد أن عرفت بأنه دسها في الوسط تماماً، وابن القحبة هنا ليست شتيمة مطلقاً، إنما هي إعجاب بمهارته. إعجاب به لأنه كان بارعاً وليس خيخة كما كان الجندي الإيراني

الذي بدلاً من أن يصيب جبيني أصاب أذني وأطاح بها...إنه أميركي حسن التدريب، قناص ماهر...قناص تخرج من أحسن مراكز الدفاع في أميركا...

*

ومع أن الإعلام الوطني لم يكن يتحدث عن الحرب في الأيام الأولى إلا أننا كنا نَعلم أن الأمريكان قادمون. كنا نتهيأ لمعركة غامضة. لم نجرؤ أن نتساءل أو نتحدث عنها. لم يبلغونا بشيء. لم يقولوا لنا أن الأمريكان قادمون. ولكننا كنا نعرف أنهم قادمون. الجميع كان يعرف: أنا والضابط، ونائب الضابط، ومخابر الفصيل، والرامي، وسائق البطرية، وخباز الوحدة، بل كل جنود الكتيبة. وحتى الكلب الذي يلق الماء في سقاية الجنود يعلم أن الأمريكان قادمون...غير أنه أمرٌ محرّمٌ علينا أن نذيعه علانية. ومع أننا لا نتحدث فيه غير أننا كنا نهمس فيه سراً. نتداوله بطريقة ما، نقول أشياءً غامضةً يمكن لكل واحد أن يفسرها على هواه. ولكن ما هو متاح لنا تلك الأيام أن نتحدث به، هي الأوامر:

أوامر القيادة العسكرية...أوامر الوحدة، مناسبات الحزب وميلاد القائد! أن نتحدث عن قدراتنا العسكرية التي يمكنها أن تهدم كل أساطيل الإمبريالية...حتى لو كانت أسلحتنا خردة وأسلحتهم ديلوكس...

كان مسئول الدعاية، وهو ضابط ريفي، بالكاد يعرف كيف يرتدي بنطلونه، قال:

- بقوة الإيمان بالأمة والقائد يمكننا أن ننتصر على أكبر جيش في العالم...

هذا يعني بالنسبة لهذا القائد صاحب البنطلون المنفوخ مثل برشوت: أننا بأسلحتنا الخردة، طائراتنا الخردة، دباباتنا الخردة، بنادقنا الخردة،

مدافعنا الخردة أن نهزم أكبر جيش في العالم...

-هكذا نريدكم أن تتحدثوا...قال المسئول الحزبي الذي ينظّم الدعاية ويحارب الدعايات المضادة.

ومع زحف الأساطيل عبر البحار، علينا أن نغضّ البصر، ألاّ نقرّ بوجود ما هو موجود. ببساطة لأننا جنود منضبطون: جنود القائد، جنود الحرس الجمهوري، أبطال الدفاع الوطني...

وألاّ نصبح مثل سعيد، الجندي الغبي أبو نظارة سميكة...الذي حلّ الأمر بطريقته...قال:

- إن الجيش الأميركي قادم لا محالة! في حالة وجود هذا الجيش كلّه على الحدود لا بد أنه في نهاية المطاف سيهجم...وإلا ما فائدة وجوده هنا...كيف يمكن أن تكون كل حشود الطائرات والبوارج العسكرية التي عبرت المحيط للنزهة؟ ...

قال له خبّاز الوحدة:

- ولكننا سننتصر عليه...أليس كذلك؟

خباز الوحدة، غليظ القلب، اعتاد أن يَلحق بضابط الدعاية هنا وهناك كما الكلب. كما أنه لا يَقبض لسانه عن طرح الأسئلة: "ما هذا؟ ما ذاك؟"

هزّ سعيد رأسه بامتعاض وقال:

-ربما...

هنال شك في جوابه...ثم قال:

- ببساطة لأن التسليح مختلف...

هذا الجواب لم يعجب الخبّاز بوجهه المخزّق بالجدري...فاستفهم قليلاً دون أن يلح...

-ماذا تقول لو التحمنا بهم، سوف تجاري دباباتنا ومصفحاتنا دباباتهم ومصفحاتهم، وبعد أن نتمكن من الترجل والالتحام عند خط المعركة، سوف نقضي عليهم بالرصاص والقنابل اليدوية والحراب.

قال سعيد أبو نظارة سميكة:

-ببساطة لن يكون هناك أي التحام ...إن مدى قنبلة الدبابة الأميركية أبعد من مدى قنبلة الدبابة العراقية ... هذا يعني أنهم سيصطادوننا دون أن نلتحم بهم...

سعيد أبو نظارة سميكة، الغبيّ دون شكّ، لم يقلْ أنهم سيصطادوننا مثل الذبان...لم يقل أنهم سيرصعوننا على الأرض مثل خراء الكلاب، أبداً، كل ما في الأمر أن الخباز قال له:

-إننا سننتصر عليهم...أليس كذلك...؟

هزّ سعيد رأسه بطريقة هازئة، هزّ رأسه وانسلّ إلى حجرة استراحة الفصيل.

هذا الأمر لم يعجب الخباز، فوشى به مباشرة إلى ضابط الدعاية الحزبية...لم يحل الصباح، إنما في المساء دخل إلى كابينته، وأخبره بما حدّثه به سعيد الغبي أبو نظّارة سميكة...

-ضابط الدعاية الحزبية لا يحبّ أصحاب النظارات...ليس هو وحده، إنما أغلب ضباط الفصيل أيضاً...فأصحاب النظارات السميكة جبناء...لا يحبّون الحرب، ولا يتفانون في الموت من أجلها. قال الخبّاز لسواق الفصيل...

بعد أيّام علّقوا سعيد أبو نظارة سميكة على الجدار المقابل لقاعة المنام، ثم أطلقوا عليه الرصاص...تطا تطا تطا...تشك تشك تشك...طارت نظارته إلى أعلى، وسقط على الأرض مضرّجاً بدمه. لقد ثقبوا جسده بالرصاص، لأنه ببساطة كان يتداول الدعايات المضادة لتثبيط عزيمة الجنود...

الخباز أحد الرماة...مسح فمه بخرقة، وقف إلى يسار فصيل الإعدام، شفط أنفه وصوّب جيّداً، وقف إلى يسار المجموعة التي حملت البنادق، وأردت سعيد أبو نظارة وجعلته مثل خرقة مثقبة بالرصاص...

*

لا أكتمكم...لم يكن أحد منا يعتقد بأننا سنهزم الأمريكان، أو أننا سننتصر في أية معركة معهم. ولا حتى ضابط الدعايات الحزبية نفسه. ولكن ممنوع أن نقول هذا الأمر...أو حتى نصفه. بل ممنوع أن نفكر فيه أيضاً...هذا ما حدث ببساطة شديدة في الأيام الأولى من الحرب... حتى حينما أخذ الأميركيون يحركون أساطيلهم وبوارجهم الحربية وأصبحوا على مقربة من حدودنا. كنا ننظر بوجوه بعضنا ببلاهة تامة. كان علينا أن نتصنع عدم المعرفة بما يحدث من حولنا. علينا الصمت. تصنع الغباء والبلاهة والتطنيش. مع أن نظرات الأعين كانت تفضح الكثير مما لا يقال، إلا أن أحداً لا يجرؤ أن يقول شيئاً واحداً، ولو عن طريق المزاح. بل إن تبادل هذا النوع من الأخبار التي يعرفها الجميع ولا يقولها صراحة، كانت كافية لتجعلك أن تسقط مثل خرقة مضرجة بالدم على الأرض، كانت كافية أن تجعل رأسك يتفجر في الهواء مثل خراء العصفور...

لكن ... فجأة أخذ الموقف يتغير ... شيئاً فشيئاً بدأت الأوامر العسكرية تتقدم ... تقول الأشياء في البداية مراوغة، ولكنها أخذت تصبح أكثر صراحة.

فقد اتخذت استعداداتنا للحرب هيئة واضحة. أصبحت متواصلة وليست متقطعة، ثم دخلت في مرحلة التنفيذ. وهكذا صرنا نتحدث في البداية عن حرب محتملة قادمة، أو على الأبواب. ثم بعد ذلك أخذنا نتكلم عن حرب أكيدة، بل وحرب حاسمة أيضاً. فمن غير المعقول أن استعداداتنا هنا للتمرين المحض، أو أنها تسلية للضباط، أو أن القائد العام يعجبه ذلك!

شيئاً فشيئاً صرنا نتكلم عن حرب قريبة، حرب وليست كل حرب. حرب حاسمة دون شك. حرب علينا الاستعداد لها، والانتصار فيها. بل أخذ الضباط فيما بعد يشدّدون على أن الحرب ستحدث. وصرنا نردد وراءهم:

-نعم أنها ستحدث.

وحتى ضابط الدعاية الحزبية الذي ينكر كل شيء صار يقول: نعم أنها ستحدث!

مع أن المئات قد قتلوا بسبب جملة مثل هذه الجملة في الأيام القريبة الماضية! ولكن الجديد في الأمر، أننا لا نقول فقط: نعم أن الحرب ستحدث! ولكن علينا أن نعقبها بجملة أخرى، جملة أصبحت لازمة فيما بعد: وهي أننا سننتصر بعون الله وسوف نهزمهم!

الجملة الثانية أمر ضروري كي تمحو أوزار الجملة الأولى أو تخففها. ولكن ليكن في القلب ما في القلب، ذلك أن لا أحد يمكنه أن يقول أن أسلحتنا العتيقة التي تشبه أسلحة اللصوص، ووجوهنا التي تشبه وجوه السعالي، ومعنوياتنا المتدنية التي تشبه معنويات كلب مات صاحبه، سوف تهزم هؤلاء القادمين إلينا بحاملات الطائرات والبوارج والدبابات المتطورة ...أبداً أبداً...كان ضابط الدعاية ببنطلونه الذي يشبه البرشوت، ووجهه الريفي الذي يشبه عجينة ساقطة في التنور يعتقد إن دفع صدورنا إلى

أمام، كافية أن تجعل رصاصتهم ترتعد وتسقط. وإن شواربنا السود المفتولة والمبرومة جيداً، وحدها كافية أن تجعل طائراتهم المتطورة، تتهاوى مثل السحالي في العاصفة...

*

سيأتي الأمريكان ويجيئون بالديمقراطية ... بغداد ستصبح مثل نيويورك، العمارة ستصبح مثل شيكاغو، الصدر ستي ستصبح مثل لاس فيغاس ... الرمادي ستكون مدينة الأحلام، ستختفي الملابس الفلكلورية المغبرة، والوجوه الكالحة، وستحلّ محلها الوجوه النظيفة والمترعة بالصحة ... هذا ما كنت أؤمن به من كل قلبي، هذا ما كنت أؤمن به وأنا صامت دون أن أقول شيئاً لأحد أبداً. دون أن أقول جملة واحدة قريبة من هذه الفكرة لشخص على الأرض حتى ولا لأقرب الناس مني. وحتى هذا الحمار الخباز قد شكّ في الأمر، وسألني مرّة ... وكنا نقف يومها في الدور، أمام رحبة العجلات، كي نحصل على حربات جديدة، وملمعة. لأن الضباط وهم من فصيلة البغال ولا شك في هذا، كانوا يعتقدون بأننا سنلتحم مع الأمريكان في معركة بالسلاح الأبيض وسنحتاج إليها ... وهكذا وجدته يهمس لي بخسة:

-عريفي هل تعتقد أن الأمريكان سيهزموننا...؟

كان جيفة الجاموس هذا، يعتقد أنني حمار مثل سعيد أبو نظارة كي أقول له: نعم، ثم سيقف في الطابور كي يصوب علي بندقيته، يشفط أنفه ثم يجعلني أسقط مثل خرقة مسح الأرضية ...

قلت له: لا!

وفي قلبي قلت له: نعم! وسوف أعرف كيف أنتقم منك يا ابن القحبة، بل سأجعلك ليومين تلعق مؤخرة السخلة وتشرب بول البعير...يا ابن

الخنزيرة ...

قلت لكم بأني لا أخفي عنكم شيئاً ... وهذا ما أقوله لكم اليوم صراحة، كما قلته قبل مئة عام. أقولها دون رفة جفن، أو أزمة ضمير من تلك التي تتعلق بالكرامة. لأن الكرامة أسقطها عدد الإهانات التي أكلتها في حياتي، أسقطها التحدث مع أناس متعجرفين في الجيش، وخدمة رجال حمقى لا يصلون إلى ركبي. ومن ثم اشتراكي بحروب عابثة أطارت نصف جسدي كانت كافية لتجعلني أؤمن أن مشكلة بلدي ليست في احتلاله، إنما لأنه لم يحتل من قبلُ لفترة طويلة.

كنت ومن الأيام الأولى أعتقد أننا معهم سنكون أفضل حالاً مما لو نحن من دونهم. إنها أميركا يا ناس: من يا ترى أكثر تطوراً بغداد أم نيويورك، الصدر ستي أم لاس فيغاس، الكوت أم شيكاغو، العمارة أم كاليفرونيا ... الرمادي أم ميامي ... يمعودين دعوكم عني ... يا حمار ابن حمار الذي يعتقد أننا من دون أميركا سوف نكون أفضل.

لست أنا وحدي من يقول ذلك، ولكن الكثير من العراقيين يعتقدون أننا سنكون بأفضل حال معهم. سيأتون لنا بكل شيء في السليفون. كل شيء جديد ومعلب ومسلفن مثل زهور عيد الميلاد. كل شيء رائع ومغري مثل سعادة. وهؤلاء الجنود حتى وإن لم يكونوا ملائكة، وليس من شأنهم أن يكونوا كذلك، فأنا أعتقد جازماً بأنهم إن قالوا فإنهم سيفعلون ... أنا أصدقهم. هذا الشيء كنت متأكداً منه مثل تأكدي من وجودي، ومن وماهيتي، ومن أذني التي سقطت في جيبي، ومن أضلاعي المهشمة، ومن أمعائي التي أفسدها البارود والجوع والركل.

أقول لكم لم يكن لديّ أدنى شكّ في هذا. سيأتي الأمريكان لبلادنا الجربة

بكل شيء رائع، سيأتون لشوارعنا المختنقة بالغبار والذبان بكل شيء ناصع وأبيض مثل صدور المراهقات. بل أن الأمريكان سيعيدون لي أذني التي سقطت في جيبي. سيصلحون لي أضلاعي، ومصاريني، وسيخرجون الشظايا التي اخترقت جسدي. وسيقولون لي:

-أنت رائع يا مستر سبهان...

لا أقول هذا ساخراً، لا والله، بل أن كلمة مستر هي الكلمة التي أحبها خارجة من أفواههم. بل هي أعظم كلمة يمكن لبشر أن ينطقها على الأرض. هل أبالغ في هذا؟ إنهم الأمريكان يا ناس، إنهم الأمريكان في النهاية وليسوا حزبيو صدام...ومن يشك بهذا هو أكبر غبي على وجه الأرض.

*

كنت أعددت نفسي جيداً للحرب. وبدلاً من بشط الحربة، وتزييت البندقية، وعدّ الرصاصات للمعركة، بدلاً من الاستاعد والاستارح واليمين در وغير ذلك من المهازل، كنت أعد العدة لاستقبالهم. كنت أهيأ الزهور في جيبي، وأتعلم بعض المفردات الإنكليزية التي تمكنني من التفاهم معهم. كدت أجن من الفرح. أقف مع الجنود وأشعر بأني أبتسم وحدي لمجرد تذكر أنهم سيأتون في الأيام المقبلة. أشعر بقلبي يقفز من مكانه، يقفز من الغبطة مثل عصفور...وهذا ما أثار الخباز وعزز شكه، بل حتى ضابط الدعاية الحزبية ببنطلونه البرشوت صار يراقبني...

-لماذا أنت فرحان؟ سألني الخباز مرة...

-أنا فرحان...لأننا سننتصر!...قلت له. فسكت.

لم تكن الحرب طويلة. كانت مثل نزهة...وقد أحدثت أول إطلاقة

سمعتها دوياً في رأسي، أحدثت في طبلة أذني الساقطة صوتاً يقول أن موعد التغيير قد حان. إن اللحظة التي يدور فيها المفتاح في القفل فيتوقف الزمن عن الجريان قد حان. وفي ذلك اليوم بالذات شعرت بأن هناك في الجانب الآخر الذي هو هنا بالضبط، سوف تجيء عاصفة من المطر لتغسل كل شيء. لتغسل هذا الغبار الذي كتم أنفاسنا.

-الجيش الأميركي يتقدم.

فاربدت الريح بصوت عال كأنه صراخ امرأة.

في الصباح الباكر، أرسل ضابط الدعاية فصيلاً من الجنود لاستشعار نوايا العدو، لكنهم أخذوا يتعثرون في مهمتهم. راحوا يجرون أحذيتهم الضخمة المصنوعة من الجلد عبر الوحول الثقيلة، لقد دفعتهم العاصفة ذاهبين على إيقاع نشيد عسكري، على إيقاع صوت ضابط الدعاية، لكنهم بعد يومين عادوا إلينا بخطى ينقصها الثبات، ببساطة شعرت بأنهم هزموا حتى من دون معركة.

قال الضابط:

- سنكون هنا...عند التلة...

تقع التلة قرب مزبلة للقطط النافقة وسوق السمك الذي تهب منه روائح عفنة في النهار.

-أما نختار مكاناً أفضل من هذا؟ قلت في نفسي.

-مكان ستراتيجي! قال الضابط أبو بنطلون يشبه البرشوت.

غير أن هذا المكان الستراتيجي لم يمر به أحد. ذهبت القوات الأميركية إلى بغداد مباشرة، وأسقطت تمثال الرئيس. ومن يومها اختفى الخباز

وضابط الدعاية الحزبية من الكتيبة، ولم يعد يسمع بهما أحد أبداً. لقد اختفوا في العاصفة مثل ظلال. والأرض التي كنا نقف عليها أخذت تفوح برائحة الجثث. الطعام اختفى من حانوت الكتيبة، ولم يعد هنالك خباز ولا سواق ولا كلاب. الكلب الوحيد الذي بقي هو كلب الآمر. كان يأكل من مزبلة الكتيبة فيما مضى، بينما أخذ اليوم يبحث عن شيء يأكله ولا يجد.

- يجب أن يأخذ المرء الانتصار بالحرب بنظر الاعتبار، عليك أن تكون ذا عقل تاريخي حقاً. أميركا أفضل حتى للكلاب. قال المعلم المجند للضابط وهو يقنعه بالاستسلام.

*

ها نحن بانتظار الأمريكان. غسلت وجهي مرتين في الصباح وأعددت الزهرة جيداً في الجيب، وصعدت التلة.

-هولت! صرخوا...

-فريندز...أجبتُ.

وقبل أن تصل يدي إلى الجيب...سمعت صوت الإطلاقة...

كانت الشمس صامتة تتخلل سحب الغبار. شيء أشبه بزجاج مهشم تساقط من رأسي. صحارى من الأنقاض سقطت عني. خيّل إلي إني سمعتُ صوتاً خفيضاً للدم وهو يسيل في ناحية ما من جسمي. فالتفت القناص الأميركي ناحيتي وهو يبتسم. دقق النظر بإصابته. لم تتناه إليه ضوضاء أخرى إلا من رأسي.

-ابن القحبة!

لابد أن ذلك كان من وحي خيالي. ولكن لسبب ما ساورني شعور غريب

بالتشكك بأني مت. كان الأمر أكثر من ذلك - كان شعوراً أقرب إلى الفزع، كتلة متداخلة من المخاوف لم أملك لها تفسيراً حتى لنفسي.

*

صعدتُ إلى السماء. أوّل ما رأيت، رأيت هوائيات التلفزيون. بيريات الجنود تتصاعد مثل أسراب من الغربان في مطلع الفجر. ملابس داخلية بالية. أكياس نايلون مهملة. نفايات تتصاعد من العراق. أما في داخلي فقد شعرت للمرة الأولى بنهاية الأنين والقلق، شعرت بأن روحي انسلت عبر ثقب في السماء وسقطت في ذاتها، ثم دخلت في ممر لا نهاية له، ورحت ألهث داخل دهليز. في نهاية الدهليز يقف الملاك.

-من أنت ؟ قال الملاك.

-عريف سبهان!

-من؟

-عريف سبهان ... ألا تعرفني ... أنا الذي طير القناص الأميركي رأسه في الهواء مثل خراء العصفور ... أنا شهيد ... والشهيد كما قال صدام حسين يذهب للجنة مباشرة ... لديه تسهيلات، أقصد من دون تأخير ...

بدا الشك واضحاً على وجه الملاك. رفع يده قليلاً وحركها بصورة تعبر عن استغرابه...قال:

-لكنك مددت يدك إلى جيبك لتقدم زهرة أليس كذلك ... ؟

-نعم فعلتها! وهل هذه تؤخر حسم ملفي ... ؟

- بالتأكيد ... قال الملاك...تريد أن تقدم زهرة إلى عدوك وتريد أن تكون شهيداً في الوقت ذاته...شنو أنت لوتي؟

Telegram: @Arab_Books2

صفنت في وجه الملاك مثل أبله وأردت أن أحصل على نتيجة قطعية:

-ولكن بربك قل لي أيها الملاك الطيب ماذا تحسبونني الآن: شهيد أم لا؟

-هذا يعتمد...لست شهيداً...لكنك لست مقتولاً عادياً أيضاً...في الوقت الحاضر عليك الانتظار مع غير المحسومة ملفاتهم...

جوابه أسعدني قليلاً، قدّم لي قليلاً من الأمل، في النهاية يمكن أن يكون هنالك حظ وأصبح شهيداً وأدخل الجنة...صفنت قليلاً وقلت له:

-يحدث هذا طوال حياتي...أيها الملاك الطيب، فأنا حينما رفعت إلى رتبة عريف ..بقيت فترة طويلةً بين بين، فقد اكتشف الضابط أني غبت مرة فوق إجازتي يومين، فأخّر الاعتراف برتبتي...وهكذا أصبحت داخل الوحدة عريفاً ولكن! عريف بين بين! أنا هكذا دائماً عريف بين بين، شهيد بين بين...ولكن أسألك أيها الملاك الطيب هل سيستمر وضعي هكذا طويلاً؟

-في الواقع الوقت ليس له قياس هنا، ذلك أننا هنا-كما تعلم- في الأبدية، لقد استغرقت رحلتك مئة عام كي تصل إلى نهاية هذا الدهليز...

-صحيح؟ لقد استغرقت رحلتي مائة عام...شيء رائع، ولكن هل يمكنني أن أرى ما حل ببلدي بعد هذه المدة؟

-عليك أن تهتم بنفسك هنا أيها العريف الطيب ولا تهتم بمسائل أهل الأرض أبداً...مثلك كثيرون...ونحن الآن مازلنا في المرحلة الإغريقية...ما زالت اليونان لم تكتمل بعد...يعني عليك أن تنتظر طويلاً ...

-ولكن أين سأذهب؟

-يمكنك التنزه هنا وهناك...فهذا المكان مسموح به ...

-شكرا أيها الملاك الطيب...قلت له واستدرت قليلاً لأكون بمواجهة

عرش كبير يجلس عليه الله وفي مواجهته رجل صغير الحجم يتكلم بصورة واثقة...فاستدرت إلى الملاك...

-أيها الملاك...أيها الملاك! سؤال أخير: من هذا الرجل الذي يحاسبه الله، أليس ممثلاً أميركياً؟...أخال أني رأيته من قبل في فيلم من إنتاج هوليود عرضته قناة 7 العراقية؟..

-هذا...كلا...ألم أقل لك أننا ما زلنا في المرحلة الإغريقية ...هذا سقراط إن سمعت به ...الفيلسوف سقراط ...

كان سقراط بصلتعه التي تشبه القبة يحاجج الله، وكل مرة يطرح سؤلاً. فغضب الله وقال له:

-يا سقراط أنت تسأل كثيراً، بينما عليك أن تجيب عن الأسئلة التي أوجهها لك...

-نعم يا ربّي أنت محقّ، ولكنني أرى أنك بدلاً من إرسالك كل هذا العدد من الأنبياء إلى أهل الأرض، ويكذبونهم، ويجدون الأمر خارج حدود التصديق، لكنت وفرت الكثير، لو أخرجت من وقت إلى وقت ميتاً من الموتى، يخرج من قبره ويخبر الناس بما حدث لهم.

من الواضح أن الله رأى في كلام سقراط شيئاً من العقل، فصمت ووضع يده على حنكه مفكراً، فقلت في نفسي: لم لا أستثمر هذه الفرصة وأطلب منه لينزلني إلى الأرض. فرفعت يدي له، سرعان ما انتبه الرب، وصرخ بي:

-من أنت؟

-عريف سبهان يا ربي...قلت له.

-من؟

-عريف سبهان يا ربي، أنا الذي طير القناص الأميركي رأسه في الهواء مثل ذروق العصفور. وكنت أحسب أنني شهيد، ولكن يبدو أن ملفي قيد الدراسة...وبما أن أمر حسابي سيتأخر قليلاً، لم لا تأمر يا ربي وأهبط أنا إلى الأرض...كميت استيقظ من القبر وليخبر أهل الأرض بما رأى...وأنت تعلم أنا جئت من منطقة هي سبب المشاكل في العالم..كما أني أريد أن أرى ماذا حل ببلدي بعد الحرب؟

سكت الرب برهة، ثم هز رأسه موافقاً...فابتسم سقراط، وتهيأ الملاك ليحملني إلى أهل الأرض.

*

أيها السادة أقول لكم الحقيقة:

أثناء هبوطي إلى الكوت...شعرت بتغيير ما حلّ في الرحلة كلها، شعرت بشيء مختلف جداً عن رحلة صعودي إلى السماء...ففي رحلة صعودي رأيت النفايات تتطاير من الكوت: البارود، أكياس النايلون البالية، الملابس الداخلية المهلهلة، قطع غيار السيارات الخردة...الغبار، الذبان...لكن في رحلة الهبوط كان الأمر مختلفاً جداً...فقلت للملاك الذي وضعني على غيمة كي أستريح عليها:

-ربما أخطأت!

-أخطأت هل أنت مجنون؟...قال الملاك بلهجة مستنكرة...

حملني من الغيمة التي حطّ عليها...رفعني من ياقة قميصي بينما ارتفعت ساقاي كما لو كنت أسبح في الفضاء وطرت...يا للنشوة يا للغبطة وأنا في الهواء...شكل مفاجئ يتجسد ويتمظهر أمام عيني، إنها الكوت مثل

شفاه طرية منفرجة، نهارها الذهبي يستيقظ مع الضوء. نهرها يستلقي ممدداً. أشبه بالجنة فيها أنوار ناطقة لا يحجبها الغبار، ونهود جريئة كفيضان من الأقمار.

كلما تقدمنا كنت أرى جنة التحولات. نور يصل السماء بالهواء، ويختلط الماء بالتراب...أبتسم وأنا أتقدم مع الملاك بين السماء والغيم الأبيض الخفيف الذي يحيط بالمدينة...كنت أتعرف شيئاً فشيئاً على الكوت...النهر هو أول ما تعرفت إليه...دجلة بالتأكيد، التواءاته التي تشبه التواءات أفعى، الأرض الخضراء المحيطة بضفتيه...بياض مائه النقي...الزرقة الشفافة في العمق...الأشجار الباسقة المحيطة بالأرض المعشبة...

-أهذه لاسفيغاس ... مانهاتن ... ميامي؟ ماذا جرى لك يا مدينتي التي كانت مختنقة بالذبان والتراب مثل مدينة في الباكستان...كيف استحلت إلى مدينة عظيمة؟...بكيت وضحكت وأنا أسأل ملاك الرب:

-يا ملاك الرب بالله خبرني هل أخطأت في المكان؟ ... أتكون دخت؟ رأسك استدار وبدلاً من أن تذهب جنوباً رحت شمالاً ... ؟ تحدث! سواقنا العراقيون يفعلونها! تقول له أنت ذاهب إلى مدينة الكوت، يأخذك إلى مدينة أخرى! يقول لك أنه داخ! ثم يسلبك نقودك أيضاً!..أتكون تهت يا صديقي ... ممكن! لن أقول للرب، لن أخبره عنك كي يعاقبك، صدقني! فقط قل لي من هذه المدينة التي تأخذني إليها ... ؟

-الكوت ... قال ملاك الرب دون أن يزد كلمة واحدة ...

-الكوت التي أعرفها- قلت له-كانت قرية ولا قرية في الباكستان! لن تمشي مترين فيها دون أن يعبئ أنفك غبار الطريق ... دون أن تتعرق كما لو كنت أدخلت رأسك في فرن، ثم يتجمع على عينيك الذبان كما لو يتجمع

على بصاق ...

لم يعد ملاك الرب يحتملني وأنا أجادله هكذا. قلت لأسكت إذن، هو ملاك الرب في النهاية، وهو ملاك أصلي وليس تقليداً. ملاك من ملائكة السماء ولم تصنعه الصين من البلاستيك ... كما تصنع تلك الأيام صور أئمتنا، ورقع الصلاة، والبيارق الدينية، والمسابح، والمباخر وغير ذلك ... ملاك من المنبع! جئت به من السماء، جئت به من الأصل، ملاك صناعة إلاهية وليس في معامل التزييف في البلدان الإسلامية ...

فهل من الممكن أن يكون قد أخطأ؟ لا يمكن ذلك ... إذن لأسكت وأرى النهاية ...

قلت له:

-يا ملاك الرب أنزلني في المكان الذي استشهدت به ... في المكان الذي أطار فيه القناص الأميركي رأسي وفجره في الهواء ... هناك في ذلك المكان القريب من النهر، على التلة التي صنعنا منها موضعاً عسكرياً أيام الحرب، حيث سوق السمك العفن، والزبالة التي تلقى فيها القطط النافقة ...

لفّ الملاك لفّة في السماء، حلّق تحليقاً طويلاً، وبحركة رشيقة واحدة هبط بخفّة. توقف. وبهدوء أنزلني على قدمي. أنزلني في مكان نظيف وفسيح عند بوابة عمارة كبيرة مصنوعة من الزجاج الشفاف، عمارة كبيرة لا أعرف عدد طوابقها، ربما مئة طابق! أشبه بناطحة سحاب عالية، لها برج كبير يخترق السماء، تنعكس الشمس الصافية على زجاجها، وهنالك بضعة نساء يسرن عند المدخل. أما الأرضية فقد كانت مرصوفة بالحجر الأبيض الناعم. الشارع المقابل شارع عريض جداً، يحيط به الشجر الكبير من جانبيه، ويظلل الرصيف، فيهب من الظل نسيم بارد عذب، يخفّف

حرارة شمس الضحى.

-هذا المكان الذي استشهدت به! قال لي ملاك الرب .استدار نحو السماء وبلحظات اختفى.

هبطت بهدوء. تحسست وجهي بيدي. نظرت إلى المكان:

الشيء اللافت كانت هنالك بوابة مترو في مواجهة العمارة الكبيرة، المترو الذي انتظره العراقيون طويلاً ... عند عتبتها الزجاجية يافطة كبيرة ... وقد كتب عليها باللغة العربية وبحروف لاتينية:

بوابة الحب ... Bawabet Al-hubb

قلت يا إلاهي هل غيروا الأسماء أيضاً ... يافطة شارع إلى الجوار اسمه: العشاق أفنيو ... Al-ushaq Avenue ... حديقة كبيرة وسورها العالي يصل إلى قائمة مترين تقريباً اسمها: جنائن الرحمة ... . Jana'n Al-rahmeh ...

*

يا سادة ثلاث ساعات وأنا أتجول في الأفنيو الكبير المقابل لمترو الحب، في جنائن الرحمة، زقاق التسامح Zuqaq Al-Tasamuh، مكتبة الشعراء السعداء Maktabet Al-shuara' Al-Suada'، مطعم الطبيعة الجميلة Mat'am Al-Tabi'ato Al-Jamileh . يمر الناس أمامي وهم مبتسمون. يرتدون ملابسهم النظيفة والجميلة كما لو أنهم في حفلة. وجوههم مفعمة بالصحة. أجسادهم رياضية كما لو كانوا شباب اسبارطة. في تلك اللحظة تعرفت على الساحة التي كان الشحاذون يملئونها، توقفت أمامها بالضبط. كان هنالك عمود من زجاج مضيء، ويافطة عالية تحمل اسمها الجديد: Sahat Al-Amal (ساحة الأمل)، لقد أصبحت ساحة جميلة فيها نافوارات

Telegram: @Arab_Books2

متعددة تخرج من الأرض مباشرة على أنغام موسيقى. وعلى مقربة من الأشجار الباسقة بضعة أطفال سعداء يلعبون. لقد عرفتها نعم إنها ساحة الكوت. الساحة التي كانوا يعدمون فيها الهاربين من الجيش فيما مضى. خمس دقائق تقريباً وأصبحت ثانية أمام التلة التي طار فيها دماغي ... حيث كانت العمارة من جهتها الخلفية، أما جهتها الأمامية فقد حافظوا عليها وأسموها تلة الموسيقى Tallat Al-Musiqa ... ثمة فرقة موسيقية تعزف أنغاماً هادئة ... وأمامها بضعة عشاق يرقصون.

*

عند منعطف الصداقة، استوقفت رجلاً وسيماً يضع ذراعه على كتف شابة سمراء جميلة. الرجل في الثلاثين من عمره، يرتدي ملابس في غاية الأناقة، ابتسامته أول ما لفتت انتباهي ... صحت به :

-يا أخ لدي سؤال ...

في البداية استغرب، ثم وقف وهو ينظرني بينما تغيرت أسارير وجهه..

-معي؟ قال بصوت عذب ... بعربية خفيضة..

-نعم معك ... لدي سؤال أهذه مدينة الكوت ... ؟

-نعم ... إنها هي ... ولكن لماذا تتكلم معي بصوت غاضب، هل أصابك شيء، هل تشكو من شيء ... ؟

-أنا لا أبداً ... لست غاضباً ... بل أنا أجد صوتك خفيضاً جداً، وتستخدم لغة مختلفة عن اللغة التي تركت أهل الكوت يتكلمون بها قبل مئة عام ...

-قبل مئة عام؟ قال مستغرباً ...

-نعم في الحقيقة أنا جندي عراقي استشهدت هنا في الكوت أثناء

الحرب مع الأمريكان قبل مئة عام ...

كنت شعرت بأن الرجل غير مصدق، كما لو كان قد عثر على واحد من أهل الكهف، القصة التي يتحدث عنها القرآن، وهي أن مجموعة من الناس كانوا يؤمنون بالمسيحية في زمن حاكم ظالم يقتلهم، فجمدهم الرب ثلاث مئة عام. وحين عادوا، وجدوا أن المدينة أصبحت مسيحية، وأن قصتهم أصبحت معروفة لدى الناس ...

أبدى الرجل استغرابه من الطريقة التي أتكلم بها. فأنا أتكلم بحروف حلقية شديدة الانفجار، تشبه معركة. أما اليوم فيتكلم السكان بهدوء واضح. وأصبحت مخارج أصواتهم رقيقة وناعمة ...

قلت له:

- لا بد أن الديمقراطية غيرت حتى أصواتكم! ... ثم قلت في سري (أميركا ألم أقل لكم أنها قادرة على المعجزات)! ...

-في الحقيقة أنا لم أفهم ما تقول، فاعذرني أرجوك وقل بصورة هادئة ما تريد كي أساعدك!

قال الرجل ذلك، بينما كانت الشابة إلى جانبه تخفف علي بابتسامتها العذبة، وضحكاتها الخارجة من القلب ...

قلت له:

- اسمع يا سيد أنا جندي عراقي قتلت قبل مئة عام، قصتي طويلة، لا أعرف إن كنتم تعرفون بقصة العريف سبهان أم لا! كما سمع المسيحيون القدماء بقصة أهل الكهف!

-اعذرني لا أعرف!

- على العموم أنا العريف سبهان الذي طير القناص الأميركي رأسه مثل خراء العصفور، هنا فوق هذه التلة! وقد صعدت إلى السماء في الحال. ولكن يوم الحساب تأخر، أنت تعرف حروب العراق والمسلمين كثيرة وبحاجة إلى وقت، قتلى وشهداء كثيرون، بل أن معارك السوق في الكوت ذلك الوقت وحدها بحاجة إلى عصر كي يفصل الله ويحكم بها ... مشاكلنا ألا تعرف مشاكلنا؟ وبما أن زمن الأنبياء انتهى فقد اقترح حكيم إغريقي أن يبعث الله من وقت إلى وقت أحد الموتى ليبشر بالدين ... وهكذا وقع اختيار الله علي، على العريف سبهان، قال لي يا عريف سبهان اذهب إلى الكوت وبشر الناس بالدين ... هذا بكل اختصار ... فجئت إلى المدينة التي قتلت بها، مدينة الكوت، كي أبشر بالدين، لست نبياً ولكني مبعوث كي أبشر بالدين ...

-دين؟ لسنا بحاجة إلى دين يا سيد! إنه لأناس متوحشين لكي يعرفوا عدل الله وقوانينه! والمشكلة أن الناس تفسره على هواها لتثبت وحشيتها وبربريتها ... ما حاجتنا به ونحن أناس متحضرون، نعرف الله، ونحكم بعدل الله، وبحبه، وبتسامحه، ومساواته بين الناس ... من عنده الله ليس بحاجة إلى الدين ...

-ماذا تقول لستم بحاجة إلى الدين؟

-أبداً ... ما حاجتنا به؟ لقد استغنينا عنه من مدة طويلة ... ونحن الآن بحال أفضل بكثير ... إن التجربة علمتنا أن نشوة الوجد الديني تجعل الناس قساة القلب (كذلك يفعل الإيمان بالقضايا)، انه يبلد مشاعرهم.

-أوه ..أكاد لا أصدق ... وكيف تسير الحياة لديكم من دون أن تعرفوا الدين ...

-بالعكس ... المدينة من سنوات لم يحدث فيها خلاف واحد ... ولم يعد هنالك سنة، ولا شيعة، ولا مسيحيون، ولا يهود، ولا صراعات، ولا حروب أهلية، ولا أحد يحكم على الآخر على دينه ...

-بالله عليك، لدي سؤال وأرجو أن لا تسخر مني ... هل أنت متأكد من أني أنا في الكوت، أم أنا في مدينة أخرى ...

-نعم إنها الكوت ... يا سيد، أنت هنا في العالم المتحضر ... لا حاجة لنا للدين، ولكن أقول لك الحق، أن أجدادنا أشعلوا حروباً كثيرةً بسبب التعصب والدين والطوائف وأشياء أخرى ... ولكن الحمد لله الذي أشفانا من الدين، وأصبحنا من دونه بسعادة كبيرة، من لديه الله ليس بحاجة إلى الدين ...

-نعم أنت محق ولكن لدي سؤال هل هذا حدث بسبب الديمقراطية أم ما ...

-لا أعرف بالضبط ... ولكن التاريخ استدار دورة كبيرة ... هذا ما حدث لأميركا فيما بعد، حينما تمسكت بالدين وأصبحت دولة متعصبة ...

-أميركا دولة متعصبة؟

-أوه ألا تعرف؟ يبدو أنك فعلاً لا تعرف ما حدث للعالم من زمن بعيد..

-نعم كما قلت لك أنا استشهدت قبل مئة عام أثناء الحرب ... حينما جاء الأمريكان واحتلوا العراق من أجل الديمقراطية ...

-أوه طيب ... نحن نعرف التاريخ جيداً ... المشكلة وكما تتذكر أن الحرب الطائفية اشتعلت بعد الديمقراطية الأميركية مباشرة. فكرهت الناس هذا الوضع، كرهت التعصب والكراهية والإرهاب، وأصبحت تطارد المتعصبين ... غير أن المتعصبين وجدوا ملاذاً لهم في أميركا، وهذه هي المشكلة الآن

... لقد أصبحت أميركا دولة متعصبة يسيطر عليها الدين غير المتسامح، وقد هدم المتدينون المتشددون عماراتها ومبانيها وحضارتها ... وأصبحت الآن مثل أفغانستان قبل مئة عام حينما سيطر عليها طالبان ...

-هل تتكلم حقيقة يا سيد؟

-نعم بالتأكيد ... هل لديك شك؟

-أنا في الحقيقة..كيف أشك..وأنا ميت من مئة عام..ولكن أبدو مثل أخرق ... ما تقوله بعيد عن التصديق هل تخلت أميركا عن الديمقراطية؟

-نعم إن أميركا الآن دولة مارقة ... وهي من محور الشر ... والعالم المتحضر يحاول أن يعيدها إلى رشدها باحتلالها وإعادة الديمقراطية إليها

-يا إلهي ما هذا الذي تقوله ... ومن هم العالم المتحضر يا سيد؟

-إنهم الدول المتمدنة والمتحضرة والديمقراطية الثلاث: العراق والسعودية وإيران! فأنت تعرف بعد أن تحول العراق إلى الديمقراطية، سقطت الحكومات الدينية في هذين البلدين، وأصبحا بلدين ديمقراطيين وعلمانيين.

-آه إيران والسعودية؟

-نعم، هما الآن في طليعة العالم المتحضر، مثل العراق تماماً. لكن المشكلة في الغرب، نعم المشكلة في الغرب الذي تحول إلى واحة للإرهاب، وإلى ملاذ للتعصب الديني والكراهية..أمامنا واجب كبير يا سيد علينا أن نعيد الديمقراطية إلى هذه البلدان ليصبح العالم أكثر أمناً ... والآن اسمح لي يا سيد فأنا على عجلة من أمري، نريد أن نذهب أنا وصديقتي

إلى حفلة لنتبرع بها إلى الأطفال الأميركيين اللاجئين ببعض الحاجيات ... إذا أردت الاستراحة فهنالك مقهى الفن الرائع، يقع في نهاية هذا الشارع، يمكنك أن تتناول المرطبات أو الشاي أو القهوة ... فهو مجاني، للناس الذين لا يحملون معهم المال ...

-شكراً لك على المعلومات ... مع السلامة يا سيد مع السلامة يا سيدة ... يحفظكم الله ... ويعينكم على رعاية اللاجئين من أخواننا الأميركيين والأوربيين ... فهم يستحقون الرعاية ... بسبب دكتاتوريات بلدانهم ...

ضربت يدي على رأسي ... ما هذا ... أحقاً أن الأرض تدور بصورة صحيحة ... ماذا قال هذا الرجل، على العراق أن يخلص الشعب الأميركي من الدكتاتورية ويعيد له الحرية ... ومن ثم ما هي قصة اللاجئين الأميركيين في العراق، هل هذا معقول، العراق يقدم حالة لجوء لأميركيين مضطهدين في بلدانهم، حرية تعبير، وأشياء أخرى ... هل شربني الملائكة شيئاً مسكراً قبل أن يعيدوني إلى الأرض ... ؟ والله لا أعرف لأذهب إلى هذا المقهى وأتأكد من الأمر ...

سرت مئة ياردة حتى أصبحت في مواجهة مقهى الفن الرائع.

التلفزيون في المواجهة، وأنا أشرب عصير برتقال حملته نادلة جميلة جداً. وقدمته فوق طبق مزخرف بالفضة أمامي على الطاولة.

-سيدتي هل يمكنني أن أسأل فد سؤال؟

-تفضل ... طبعاً يمكنك أن تسأل..

-هل أنت من مدينة الكوت؟

-لا يا سيدي أنا من مدينة الناصرية ولكني أعمل هنا ...

-الناصرية؟ آه الناصرية ... ذكرتني بالناصرية ... لقد ولدت في الناصرية.. وهل أصبحت متطورة أيضاً، هل أصبحت مثل الكوت؟

-بل أكثر يا سيدي ... ولكني أعمل هنا فقط ... في الواقع زوجي من مدينة الكوت هذا كل ما في الأمر، ولكني من الناصرية، زهرة الجنوب، هي الأكثر تطوراً بطبيعة الأمر.

- يا إلهي أكاد ألاّ أصدّق ...

-هل تريد شيئاً آخر ...

كانت نشرة الأخبار قد بدأت وظهر الرئيس العراقي على شاشة التلفزيون مع كلبه وخلفه منزل كبير ...

-هل هذا الرئيس العراقي؟ سألتها.

-نعم إنه أمام البيت الأخضر ... مع كلبه ... سيقول شيئاً مهماً فيما يخص الحرب على التعصب الديني في أميركا ... وانتهاك حقوق الإنسان، ولاسيما انتهاك حقوق النساء، وانتهاك حرية التعبير ...

-آه ... سأتابع ما يقول ... قلت لها.

*

صدقوني يا سادتي هذا كل ما حدث لي! وما أن كنت أشاهد الأخبار على التلفزيون دخل شخصان إلى المكان وتقدما نحوي. بدا عليهما أنهما من الشرطة، عرفتهما من ملابسهما والعلامات التي عليها. وقفا أمامي مباشرة، فرفعت رأسي نحوهما. قال الرشيق منهما وهو أصغر سناً من الآخر.

-هل يمكننا أن نرى أوراقك أيها السيد؟

-في الحقيقة لست لدي أوراق ...

-أنت مشكوك فيك..أنت أميركي يا سيدي، لديك سحنة شخص غاضب، شخص متدين، وفي صوتك الجهوري بأصواته الانفجارية علامة من علامات الإرهابيين..

قلت لهما متوسلاً:

-لا يا سيدي أبداً، هذا النوع من الكلام يخص حقبة ماضية في هذا البلد ... كانت ذلك الوقت مقبولة وليست إرهابية ...

-هل أنت عراقي؟

-نعم والله أنا العريف سبهان ... ألم تقرأوا التأريخ، ألم يكتب لديكم في الكتب عني، أنا الذي فجر القناص الأميركي رأسه مثل خراء العصفور ... في الواقع أنا شهيد، وإن لم يعترف بي بعد عند رب العالمين كامل الشهادة، ولكن طلبي تحت الدراسة، وجئت هنا لأبشر بالدين ...

-بالدين ... ؟

-نعم بالدين..

-لقد عرفنا بأنك إرهابي !

-اسمعاني والله ... قصتي قصة أخرى علي أن أحكيها لكما من الأول ... اسمعاني ... .يواش يواش دقيقتين قبل أن أذهب معكما ...

*

في الظهيرة أخذ المطر ينهمر، في البداية بشكل خفيف ثم أخذ يقوى، حيث أخذ يجلد زجاج البنايات العالية وينهمر على الأشجار. دام ذلك

حوالي خمساً وعشرين دقيقة، خلّف المطر بعدها مساحات زرقاء في الأعالي، وهبطت، بعد أن انسحب الغيم، نافوراتٍ من الضوء. في الشارع الممتد أخذ بخار أبيض يتصاعد من الإسفلت، السيارات كانت تلمع وهي تمرّ. زوارق وأشرعة بيض في دجلة، فوق الكوت غيوم خفيفة. وموسيقى نحيلة تضيء شرفات المنازل.

*

ذكرت المحامية أن صحيفة الكوت أوبزيرفر أغفلت حقيقتين في خبرها:

الأولى أن التهمة الموجهة لموكلها هي الإرهاب، كما أغفلت الصحيفة خبراً مهماً قادماً من أميركا، إذ عمت شائعة هناك تقول بظهور الأعور الدجّال في العراق.

زهراء الحبوبي

كاتبة لها عدد من الروايات باللغة العربية من ضمنها، سلسلة الحكايات السومرية، والتي تدور أحداثها في بلاد ما بين النهرين في عام 2500 قبل الميلاد. ورواية الحمائم والغربان والتي تعالج وتستعرض انعدام المساواة (دار الحافظ، دبي 2015). عندما تهرب الشمس تزهر السيوف (دار الأديب، عمان – بغداد 2008) والتي تصور الإمبراطوريتين البابلية والآشورية حوالي العام 750 قبل الميلاد. زهراء طبيبة وباحثة وقد درست الرعاية الصحية الأولية العالمية في جامعة لندن.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

متلازمة بغداد

كنتُ أتجوّلُ في شوارع مدينة ! ... لعلني كنتُ أنكِرُ تلك المباني القديمة، تلك الأقواس والجدران المنحنية، الشبابيك الزجاجية العالية، وأسوار قصرٍ بيضاء ... ولكن، عندما وصلتُ إلى ضفة النهر وذلك الماء المنساب ... كيف لي أن أُنكِر دجلة؟! ... كأنني أعرف تلك المدينة ... كأنها كانت بغداد!

وكان صوتٌ من الرنين والأنين يُناديني فأتلفتُ ولا أجد أحداً ... فيطلبني من جديد، صوتُ امرأة تقول: "ما عدتُ أحتملُ الفراق ... فجدني"

حلمٌ ليس بعابرٍ. صحوتُ بعده على تسارع دقاتِ قلبي، وهديل حمامة تغني على شُبّاكي:

"كوكوكتي ... كوكوكتي ...".

فركتُ عينيّ، ونهضتُ لأدنو من النافذة، لأحيي حمامةً شجاعة استطاعت الوصول إلى الطابق السابع والعشرين. خطواتٌ هي أقرب ما وصل إليه قلبي منها، إذ سرعان ما بدأ جهاز الاستشعار بتفعيل الرؤية ليتلاشى تظليل النافذة شيئاً فشيئاً ومعه تراني الحمامة فتهرب بجناحيها ... أما أنا فقد كنتُ معتاداً على فعل ذلك كّل صباح، أصحو وأتأملُ كل ما أستطيع رؤيته فيها، أراقبها كلوحة متكاملة تمتثلُ أمامي، أتسللُ بين المباني المتطاولة بعين

طفلٍ ينظرُ إلى ما لا يستطيعُ امتلاكه ... أحفظ في مخيلتي كلَّ ما تسقط عيني عليه منها، قبل فوات الأوان ... بغداد!

لهذا سكنتُ وسط المدينة الصاخب، وفي تلك البناية القصيرة المتواضعة بين الأبراج استطعتُ أن أحصل على مكانٍ أرى فيه المدينة بجزأيها، فأسكن الكرخ، وأرى الرصافة على الضفة الأخرى لدجلة... رغم استنكار أهلي لثمن الإيجار الباهظ مع عدم استساغة فكرة أنه "إيجار" و التي لم تكن تعني لي الكثير!

ذلك الحلم الذي تكرر كان يخبرني بأن العدّ التنازلي قد بدأ لتغيير حياتي. رغم أنني كنتُ أعرف بأن ذلك كان سيحدث يوماً وكنتُ أترقبه، إلا أن عودة ذلك الحلم مراراً كان لها وقعٌ آخر. أردتُ الاتصال بخط الطوارئ ولكن ما الذي كنتُ سأقوله أكثر مما قلتُ قبلاً عن ذلك الحلم الذي يراودني؟! وما الذي كان سيفهمه الروبوت على الجانب الآخر من الخط عمّا أشعر به؟! كما أنهم قد حولوني قبلاً إلى العيادة الخاصة للدعم النفسي للمصابين بـ"متلازمة بغداد" غير أنني أنا من كان يتهرب منها، فأنا رغم كل شيء مبتسم!

ارتديتُ ملابسي سريعاً؛ فقد كان يوم الخميس وكان عليّ الذهاب إلى العمل. على الطاولة الخضراء المستديرة وسط غرفة الجلوس تركتُ "قوري" شاي قد برد، سكبت قليلاً في "الاستكان" الذي لم أكن لأغادر قبل أن أرشف بعض ما فيه، ثم رمقتُ الرسائل بالقرب منه، فأهملتُ الرسالة التي طُبع عليها اسمي الثلاثي "المريض سودرا سين سومر" وما فيها من معلومات ونتائج لفحوصات أو عناوين لمركز الدعم، وأخذت الورقة التي طُبع عليها "المصمم سودرا سين سومر" وما فيها من عنوان للساحة التي وقع الاختيار علي لإيجاد تصميم يليق بها.

هبطتُ بمصعدٍ وحولي وجوه منتفخة تنشد النوم، ثم تبسمتُ لنفسي وأنا أحيي مركبتي في أول موقف عند باب البناية، موقف ذوي الاحتياجات الخاصة. لم تكن بي من حاجة خاصة حينها ولكن من ذا الذي يقول "لا" لرفاهية إيجاد موقف وسط المدينة المزدحم، قد يكون هذا المكان بحد ذاته آخر موقف متوفر في المدينة. لربما هذا الأخير هو ما دفع الكثير من العائلات للاستثمار والسكن في المدن السكنية شبه الجديدة حول بغداد، بمن فيهم والداي.

وصلتُ إلى مكان عملي وأنا أحيي هذا وتلك، وأعدُ الثالث بأمسية نقضيها معاً ذات يوم بينما يصرّ الرابع على أن أزوره يوماً، وما إلى ذلك من مجاملات تختلط بالعمل، حتى حان وقتُ الظهيرة ليرافقني زميلي "أوتو" إلى الساحة التي توجب علي وضع تصميم لها.

كانت الساحة في جهة الرصافة، مستطيلة الشكل تقع على ضفة نهر دجلة وبالقرب من شارع "جلجامش" أو كما كان يزلّ لسان جدّي أحياناً باسمه السابق شارع "أبو نواس"، كما كان يطلق على المناطق أسماءها القديمة كحديثه عن المكتبات في "شارع المتنبي"، المحلات التجارية في "الكرادة" أو المطاعم في "المنصور". وقفنا أنا وأوتو نبحث أبعاد الساحة وما كان يمكن أن نضعه فيها من تصميم، لم يكن الاختيار واضحاً فقد كان موضوع التصميم المطلوب - أساطير الماضي العريق- مستنزفاً. معظم الشخصيات أو المواضيع التي تتوجه لها أنظار الناس، سبق وتم إنجاز تماثيل باسمها كالكثير من ملوك حضارة وادي الرافدين، الصراع بين كلكامش وإنكيدو، مسلة حمورابي، الحدائق المعلقة، بالإضافة إلى الثيران المجنحة. كُنتُ أتخيّل وضع تصميم لشخصية ليست بشهرة هؤلاء لتسليط الضوء على جانب آخر من هذه الحضارة، كوضع نصب يمثل طبيباً سومرياً،

لكن أوتو قاطع أفكاري وهو يتمتم مع نفسه بما لم أسمعه بوضوح فقلت له: "شاركني أفكارك"، عندها كان ردّه خجولاً بقوله:

" لا شيء ... أنا فقط أشعر ... أنني أخون أهلي بوجودي هنا لأغير من شكل هذه الساحة"

لربما رأى حينها تقلبات وجهي وأنا أحاول فهم ما قصده بردّه فابتسم وقال:

"أظن بأننا انتهينا هُنا"

عندها عرضتُ عليه أن نتمشى قليلاً إلى الأمام، إذ كانت هناك سلسلة مطاعم لسمك يُشوى بطريقة خاصة متوارثة عبر الأجيال، بحيث يتم شواء السمك الطازج بعد قطعه من منطقة الظهر ووضعه على أوتاد أمام الحطب المشتعل. لقد كنتُ أكافئ نفسي بأكلة "السمك المسكوف" هذه كلما شعرت بالضيق من كثرة العمل، أو عند الملل من الطعام المعلب، أو المجمد الذي تزودني به أمي، في كل زيارة لها. أوتو اعتذر عن الانضمام إلى دعوتي تلك، واختار الذهاب متعللاً باجتماع عائلي أسبوعي عليه حضوره. قررتُ عدم التنازل عن تلك الأكلة وهناك اتصلت بـ"عشتار" ابنة أختي التي تقع مدرستها الثانوية التخصصية في آخر الشارع عند جسر وادي الرافدين رباعي الطوابق، طلبتُ منها الانضمام إليّ، عند انتهاء دروسها.

لربما لم أحسن التقدير حينها بدعوة شابة لطيفة إلى أكلة سمك مع خالها، فقد تذمرت من المشي ومن وجود خيارات أخرى تفضلها على السمك ولكنها اندمجت في حديثنا عندما علمت بأنني كنتُ هناك بالدرجة الأولى لأجل الاطلاع على الساحة. تلألأت عينا عشتار، جلست لتشاركني الوجبة وهي تقول: "لا أكاد أصبر حتى أخبر صديقاتي بأن خالي سيضع

تصميمه في ساحة العشّاق!".

تلك التسمية، "ساحة العشاق"، لم تكن بغريبة علي فقد كنتُ أعرف بأن خلف ذلك قصة قديمة. يُحكى أن تلك الساحة كانت مكاناً لنصب فيه عاشقان منذُ زمن بعيد، وفي أحد الأيام اختفى العاشقان معاً دون أثر حتى أصبح الناس يتناقلون قصة اختفائهم ويندبون الظروف التي دعت عاشقين، وإن كانوا من حجر، إلى هجر بغداد. لقد بقي المكان فارغاً لتمجيد هذه القصة، بل إن من بعض الدول من استغل ذلك، فمنهم من أنشأ نصباً مشابهاً كناية على انتقال العاشقين إليهم، ومنهم من خصص الساحات والحدائق باسم العاشقين علّهما يصلان إليها بأمان. يبدو أن عشتار كانت تعرف تلك القصة وعلاقتها بالعالم أجمع، وتتناقلها مع صديقاتها، بينما لم يعن لي ذلك المكان حينها سوى مشروع أعمل عليه بشغف لأنه قد يكون آخر ما تراه عيناي من أعمالي، بغض النظر عن أية خرافة.

عدتُ مساءً إلى شقتي لأقضي باقي الوقت بمفردي أتابع الأخبار تارة وأردّ على بعض الاتصالات تارة أخرى، المهم أن أتجاهل الرسائل المتعلقة بمتلازمة بغداد على طاولتي ... حتى ذهبتُ إلى غرفتي لأنام، وعاد ذلك الحلم ليراودني فأراني أتجول في شوارع مدينة تشبه بغداد ويأتيني صوتُ امرأة تقول:

"ما عدتُ أحتمل الفراق ... فجدني"

... لكنها أكملت في تلك الليلة لتضيف جملة أخرى:

"ليلُ الفراق أسود ويدي التي تمسح أدمعي ما عادت يدي، سوداء هي سوداء وليلي أسود".

نهضتُ خائفاً أتعثر، وأنا أتجول في أركان شقتي، لأتأكد بأن السواد الذي

ذكرته تلك المرأة في الحلم، لا يعني بأنني فقدتُ بصري! ... حتى تيقنتُ من ذلك.

تسارعت دقات قلبي، ورحت نحو الرسائل التي ركنتُها عن متلازمة بغداد، لأقرأها رغم أنني كنتُ أعرف الكثير مما فيها ...

متلازمة بغداد، حالة لا يزال الأطباء وأخصائيو الهندسة الجينية يبحثون عمّا وراءها. تتسم بعدة أعراض أساسية هي عدم انتظام دقات القلب، نوع غير مفهوم من الاكتئاب تتزايد فيه النواقل العصبية ومؤشرات الاكتئاب في الدم، ورغم ذلك يكون المصاب مبتسماً ومتواصلاً مع المجتمع، ولا تبدو عليه معالم الاكتئاب فكأنما هو يستمتع بكل يوم من حياته، وأخيراً العمى الكُلي في العقد الثالث أو الرابع من العمر، والتي قد تسبقها حالة من الهلوسة أو الكوابيس التي تختلف من شخص لآخر. سُميت على اسم بغداد لأنّ غالبية الحالات المشخصة من سكان بغداد الحاليين أو السابقين.

يحاول العلماء الربط بينها وبين تعرض أجدادنا قبل عشرات السنوات إلى مواد سامّة على المدى البعيد لكن حتى الآن لا تُعرف المادة بالضبط، فقط يُعرف بأن هناك جين مشوّه وجد في كل المصابين بالحالة يختلف موضعه في الخريطة الجينية من شخص لآخر. هذا التشوّه الجيني يبدأ تلقائياً بعد الولادة ويستمر حتى مرحلة العمى، بالتالي لم يكن بالإمكان الكشف عنه وإدراجه ضمن استشارات ما قبل الزواج أو الحمل ولكن كان بالإمكان تشخيص المصابين بعد ولادتهم وقبل ظهور الأعراض. تمّ طرح فحص روتيني لجميع حديثي الولادة لتشخيص هذه الحالة ومنحهم الأولوية في الدراسة والعمل، بالإضافة إلى معاملتهم كفئة مميزة من ذوي الاحتياجات الخاصة، ومساعدتهم على التعايش مع أعراض هذه الحالة، بما فيها فقدان البصر.

كنتُ أعرف تلك المعلومات لكنهم أصرّوا على إرسال كُتيب المعلومات لي مع كل بريد ورقي، فقد كانوا على دراية بأنني أتجاهل استخدام البوابة الرقمية التي تحتوي كل ذلك. كنتُ أعرف بأن الجين يتسارع في التغير في جسدي، كنتُ أعرف بأن يوماً ما سيُسدل الستار على بصري كما كانت تُطفأ الأنوار يوماً على بغداد.

عندما بدأت تراودني تلك الأحلام، استشرت طبيبتي التي أخبرتني بأنها إشارة إلى اقتراب مرحلة العمى وأوصتني بالذهاب إلى المعالج النفسي المتخصص بهذه الحالة، وهذا ما كنتُ أعانده. حدّقتُ بالعنوان في تلك الرسالة وكنتُ على وشك الذهاب، ولكنني أجلتُ الأمر، لأستمتع باللقاء العائلي في يوم الجمعة.

ذهبتُ لزيارة أبي وأمي في ذلك اليوم، وهناك كانت عائلتا كل من أخي وأختي. الوقت مرّ سريعاً بين الأحاديث، الضحكات، الشاي الحقيقي وطبخ أمي الشهير. فوق كل ذلك فوجئتُ بأخي وهو يأخذني إلى غرفة منعزلة ليقدّم لي هدية بمناسبة ميلادي، لم يكن يصبر لمرور شهر ليسلمها في موعدها وإنما أراد أن يرى وجهي وهو يفتح ذلك الصندوق أمامي. كنتُ سعيداً بتلك الهدية لكن سُرعان ما ارتعدتُ لمّا رأيتُها؛ ففي الصندوق كانت منحوتة مبهرة لكف وذراع كادتا أن تكونا بطولي، سوداء اللون، ومن حيثُ لم أحتسب ذكرتني بالحلم وبما قالته تلك المرأة عن يدها، بينما كان يردد أخي على مسامعي:

"أرأيت كم هي رائعة؟! ... أنت تحب هذه المقتنيات ... لقد تعبتُ في شرائها صدقني!"

قلتُ له متمالكاً نفسي:

"تبدو كقطعة أثرية، من أين أتيت بها؟!"

"السوق السوداء يا عزيزي! لا شيء مستحيل!" قال أخي.

رددتُ حينها:

"على قدر ما أعجبتني إلا أنني أخشى أنك اشتريتها من سارق أو من شخص اشتراها من سارق .. لربما علينا أخذها إلى المتحف".

وعندها ظهرت معالم الخيبة على أخي الذي ظلّ يدافع عن نفسه قائلاً:

"أنا اشتريتها و هذا هو المهم، في المتحف حتى وإن لم تكن قطعة أثرية لن يقولوا لك خذها لا نحتاجها!" ... حاولتُ ألا أجرح أخي وألا أبدي حقيقة قلقي من تلابس هديته مع حلمي فقررتُ أخذها والتفكير بالأمر برمته.

أخذتها إلى شقتي وتأملتها، شعور راودني بتملكها، ورغم ذلك كنتُ أنوي أخذها للمعاينة في المتحف، ولكنني بدأت أرتبكُ كلما حاولتُ استرجاع صلتها بذلك الحلم؛ فقد تحدثت المرأة عن يد وعن اللون الأسود وهذه يد سوداء وقد اشتراها أخي من السوق السوداء ... كنتُ أحدّث نفسي:

"إن كانت هذه رسالة تهديد بالظلام من متلازمة بغداد، فلا يمكن أن تتجاوز الكابوس أو الهلوسة، لا أن أحلم بتلك اليد قبل رؤيتها!".

لما هدأ روعي ركنتُ ما كنتُ أظنه هلوسة جانباً وخلدتُ للنوم، وإذا بالحلم يكتمل بجملٍ أخرى ...

"ما عدتُ أحتمل الفراق ... فجدني! ..

ليلُ الفراق أسود و يدي التي تمسح أدمعي ما عادت يدي، سوداء هي سوداء و ليلي أسود ..

Telegram: @Arab_Books2

بكيتُ طويلاً ولم تمسح دموعي سوى دموع السماء، وربما أيضاً، من شهد حُكمي بالبكاء ...

الخاتم الذي أراده ليدها أصغر من إصبعي ولستُ بمحبوبته ولا هو عاشقي ...

و جسدي، هو حكاية امرأة ترفض القيود، هاجرت وتناشد العودة لتحكي لملكها قصص آلاف الليالي في عشرات العقود".

صحوتُ فزعاً، واستغرقتُ ساعة أو أكثر لأنام مجدداً، ويتكرر الحلم مجدداً!...

في ذلك الفجر اهتز كياني، شعرتُ بأن كلّ ذلك كان يؤشر إلى أنني سأصاب بالعمى أو أنني على حافة الجنون. ولمّا لم أجد مهرباً من جنوني قررتُ مسايرته والبحث عن هوية المرأة التي تطاردني في أحلامي.

اتصلت للاعتذار عن الذهاب إلى العمل، طبعتُ تلك الجمل كي لا أنساها وأعددتُ عدتي بما فيها "الكليجة" التي زودتني أمي بمؤونة منها. قمتُ بشتغيل ثلاثة مجسمات ضوئية أمامي لأبدأ عملية البحث.

لم أكن أعرف ما سأسأل محركات البحث عنه، فكان الأولى أن أحرك دماغي أولاً ... اتفقتُ مع نفسي بأن تلك المرأة لن تتركني وشأني ما لم أبحث عنها، وأن تلك اليد التي أهداها إلي أخي بشكل أو بآخر هي رسالة أخرى منها ... تفحصتُ اليد السوداء بحثاً عن أي مؤشرٍ دون جدوى. قاعدتها في أعلى المرفق متضررة، توحي بأنها مقتطعة لربما من تمثال أكبر، وأنها اليد و الذراع اليسرى لذلك التمثال وهي بوضعية شبه مثنية. رغم ذلك لم أعرف أين عليّ أن أبحث وسرعان ما مللتُ وتركتُ المسألة وذهبت لأخذ قيلولة بحثاً عن نومٍ أرتاح فيه فإذا بها تهاجم سكينتي مرة أخرى فتخاطبني

في الحلم بجملة واحدة:

"لا تتركني أبكي إلى الأبد!"

كأنها أرشدتني إليها بتلك الجملة فذهبتُ إلى المجسمات الضوئية التي أعددتُها للبحث ووضعتُها فيها لتظهر لي الآلاف من النتائج التي زادت من حيرتي. غيرتُ من بحثي إلى بحثٍ عن صور وكانت النتائج أكثر من سابقتها إلا أن واحدة استوقفتني، فرغم كل الصور الدرامية عن الحب والفراق تلك الصورة كانت لتمثال امرأة تقفُ رافعة ذراعيها أمام رجلٍ جالسٍ كأنه يستمعُ إليها، وكلاهما بأزياء تاريخية. زرتُ تلك الصفحة فوجدتُها تعود إلى إحدى الجامعات خارج العراق وقد تم تدوين قصيدة فيها ومرفق معها تلك الصورة.

شعرتُ بالخيبة لكون تلك الصفحة لا تعود إلى العراق ولكن عندما أمعنتُ النظر بالصورة كنتُ متأكداً بأنها صورة بغداد، بل إن يد التمثال في الصورة هي ذاتها اليد المهداة لي! ... وذلك المكان يشبه إلى حد كبير ساحة العُشاق التي كنتُ أعمل عليها! ... قرأتُ القصيدة، ورغم أن لغتها لم تكن سهلة كثيراً، إلا أن الألم المنساب منها كان لا شك فيه، وآخر بيت فيها يقول:

"أما أنتِ، شهرزاد، فستبقين تبكين إلى الأبد"

... عندها أدركت أن المرأة التي تلاحقني لم تكن إلا شهرزاد!

رحتُ أبحث وراء كاتبة تلك القصيدة حتى فهمتُ بأنها كاتبة عراقية، ولدت قبل أكثر من مئة عام، تجمع في عائلتها بصمات حقبة من تاريخ بغداد؛ فوالدها أخذه الأمن الحكومي في طفولتها ولم يعد، ووالدتها توفيت إثر القصف في الحرب التي أزالت ذلك النظام، عاشت قصة حب إلا أن زوجها قُتل لكونه من طائفة مختلفة عنها. بعد ذلك استحال عليها

الاستمرار بالعيش في المنطقة ذاتها، وتم تهجيرها مع طفلها من منزلهم ومن منطقتهم في ليلة واحدة فتركت حتى ملابسها، وكل ما تملك، وغادرت العراق طالبة اللجوء إلى دولة أخرى ... إلا أن العراق لم يغادرها واستمرت تكتب قصصاً قصيرة، فتختمها جميعاً بجملة "أما أنتِ، شهرزاد، فستبقين تبكين إلى الأبد" كأن ذلك كان آخر ما تذكره من مدينتها، بغداد.

تزامن وصولي لتلك المعلومات مع طرق على بابي، كانت عشتار ابنة أختي تتذمر وهي عند المدخل: "خالو ... أخبرني أنك بخير كي أتصل بأختك وأخبرها ذلك!"

عندها ضحكتُ ودعوتُ عشتار للدخول وقد أوضحت لي أن صديقة أختي معي في العمل، وأنها أخبرتها أني لم أذهب ذلك اليوم، وقد حاولت الاتصال بي دون أن تجد ردّاً، فأرسلت ابنتها للاطمئنان علي، فحتى عندما أنسى مسألة متلازمة بغداد كان الجميع يتآمرون لتذكيري بها!

حملتُ هاتفي لأجد أكثر من عشرة اتصالات من أختي وعشرين من أمي وفي تلك الأثناء رنّ هاتفي، كان أوتو يسأل عنّي فقلتُ له:

"أنا بخير، أعمل في المنزل على تصميم الساحة ... أمم ... من الجيد أنك اتصلت، ما الذي تعرفه عن النصب الذي كان في الساحة التي نعملُ عليها؟"

فقال أوتو: "كان نصباً يمثل شهرزاد و شهريار ... شهريار ملك يقتل كل زوجاته في اليوم التالي من زواجهم خوفاً من الخيانة، تزوج وقتل ألفاً ولمّا تزوج ابنة وزيره، شهرزاد، لم يقتلها لأنها استطاعت التلاعب بمخيلته بأن تحكي له في كل ليلة قصة مشوقة تستدعي إكمالها في اليوم التالي حتى صارت ألف ليلة وليلة ... لقد كان كتاباً أو فلماً أو شيئاً آخر ربما ...و ..و .. لماذا تسأل؟"، فقلت: "قد يبدو ذلك مريباً لك ... ولكن ... شهرزاد تلاحقني!"

... تلعثم أوتو وهو يقول: "يبدو أنك تحتاج إلى الراحة يا صديقي" ... ثم قال بنبرة أخرى ختم بها حديثنا: "المهاجرون يحلمون بالعودة ولكنهم لا يعودون أبداً".

لمّا سمعت عشتار حواري مع أوتو بدت قلقة وقالت:

"خالو ... ألا تعتقد أن عليك الحديث مع ماما؟" ... قلتُ لها: "هل هناك شيء طارئ؟ فقالت: "سمعتك تتحدث مع صديقك عن ملاحقة ... شهـر... شهره ... لا أدري ما اسمها"، ضحكتُ من عشتار وقلتُ لها: "اسمها شهرزاد ... تعرفين اسم ساحة العشاق ولا تعرفين أسماء العاشقين فيها!" ثم أكملت قائلاً: "أنا بخير ... فقط هناك أمر يحيرني"، ثم خطرت ببالي فكرة أخرى: "في الواقع تستطيعين مساعدتي!... لا بد أنكِ تتقنين استخدام المسائل التقنية أكثر مني ... ما رأيكِ أن تبقي قليلاً لمساعدتي وأتصل بأمكِ وأخبرها أنني سأوصلكِ ليلاً! ... سأطلب الطعام من أي مطعم تحبين!"، فقالت عشتار: "آخ منك خالو ... بالتأكيد، طالما أن الأمر يتعلق بساحة العشاق فليس عليك حتى أن تسألني!".

قصصتُ على عشتار ما حدث معي من أحلام، ومفارقة وصول يد التمثال لي، وإلى إيجاد بعض المعلومات عن تلك الكاتبة، تلك المعلومات شدّت عشتار للقضية وبدأنا العمل معاً من هناك.

حاولنا الوصول إلى أسماء أحفاد تلك الكاتبة ولكن كل المعلومات المتوفرة عن أنساب العراقيين تقف عند الجد الثالث أو الرابع، وكلها أسماء لا ترتبط بأسماء الأجداد. لم أجد من طريقة توصلني إلى أقارب تلك الكاتبة لأفهم صلتها بشهرزاد بي، ولم أستطع إيجاد نسخة كاملة لألف ليلة و ليلة، ولربما كانت أقدم من أن تعطني دليلاً يفسر ما يحدث معي.

فكرنا أن نبحث في بوابة المعلومات الحكومية التي تحتوي صفحة واحدة مسجلة رسمياً باسم كل شخص ومنذ ولادته وتحمل كل المعلومات عنه في كل مراحل حياته، لكن حتى هذه لم تأتِ بفائدة فقد أنشأت بعد الأحداث التي تعرضت لها الكاتبة. فكرة أخرى جاءت بها عشتار وهي البحث في أرشيف المواقع؛ ففي الماضي لجأ الناس إلى ترتيب لقاءاتهم ومن ثم تبادل صورهم وأخبارهم في ما كان يُعرف بمواقع التواصل الاجتماعي. لم تعد هذه المواقع متوفرة و لكن مع عدة اتصالات خاصة استطعت الحصول على إذن لسحب مجموعة من الصور العشوائية المحفوظة من تلك المواقع في الأرشيف بحجة معاينة التصميم القديم للساحة التي أعمل عليها مستغلاً متلازمة بغداد كواسطتي في هكذا مسائل، وقد بات من الأصح أن المتلازمة بدأت تعبث حتى بمهنيتي. حصلت على مجموعة من الصور يظهر فيها النصب شاركها أشخاص على تلك المواقع يوماً بتواريخ معلومة، ولكن الأسماء ممحية منها و بدرجة وضوح متواضعة لضعف التصوير آنذاك.

حاولنا وضع تأثيرات على الصور على أمل أنها ستصبح أكثر وضوحاً ومن ثم جرّبنا ترتيبها كمجموعات. بدا لنا اهتمام الناس بذلك النصب وربما حينها كان أحد رموز بغداد، ولكن الذي وجدناه أربكنا ... فالنصب لم يختفِ بين ليلة وضحاها كما تناقل الناس أخباره في قصة ساحة العشاق، وإنما مرّ ذلك على مراحل ولكن كأنهم غفلوا عنه بسبب أحداثٍ أخرى!

في بعض الصور كان النصب بلا ذراعٍ واحدة، وفي صور أخرى بلا ذراعين، وفي مجموعة ثالثة كانت شهرزاد بلا رأس، وفي مجموعة رابعة كان شهريار وحده هناك، لا يستمع لأحد! ... و بينما كنتُ أحدّق بتلك المجموعات قاطعتني عشتار قائلة: "خالو أنظر ... هناك مجموعة خامسة ... عندما كان التمثال كاملاً هناك صور يظهر فيها وجه شهرزاد سليماً و صور

أخرى تظهر فيها خطوط بيضاء على وجه شهرزاد ... هذه الخطوط على خدّيها ... كأنها تمثل دموعها"، نظرتُ إلى الصور و بالفعل رأيتُ تلك الدموع منسابة على وجه شهرزاد.

كنتُ موقناً أن الدموع التي رأيتُها على وجه شهرزاد في تلك الصور ترتبط بالكاتبة المهاجرة؛ فهجرتها من بغداد تترابط زمنياً مع ظهور الدموع في الصور على وجه شهرزاد لهذا حاولتُ إيجاد أي شيء يدلني على ولدها أو أولاده. هناك برزت مهارات عشتار فوضعت على منظومتي برنامجاً يقرّب وجوه الأشخاص مع الاحتمالات الممكنة لأشكال أبنائهم وأحفادهم. استطعتُ بذلك وضع صورة الكاتبة وزوجها للحصول على صور تقريبية لأولادها و أحفادها ومن ثم مقارنتها بالسجلات الحديثة. لم يستوجب الأمر الكثير من التدقيق فكل الاحتمالات الناتجة من البحث كانت لأشخاص يقيمون خارج العراق وهم لم يزالوا يحملون الأسماء والألقاب العراقية القديمة مقارنةً بأسمائنا المعاصرة. أدركتُ بأن عائلة الكاتبة لم تعد أبدا إلى العراق فقمتُ بمراسلة ثلاثة عناوين لثلاثة أحفاد لها. أخذتُ استراحة مع عشتار نأكل فيها ونتحدث عن دراستها، بينما بقي ذهني يترقب إكمال مهمتي، كنتُ على وشك الانتهاء ولكنني قفزتُ لما سمعت صوت الرسائل تصلني تباعاً.

الردّ الأول الذي وصلني كان من حفيدٍ لها أكد فيه أنها جدته وأنه لا يعرف شيئاً عن التمثال، وكذلك فعل الثاني. ردّت الحفيدة الأخرى بأنها سمعت قصة من جدتها عن تمثال مخدّش الوجه، ولكنها أكدت بأن لا صلة لها بفقدان النصب ليديه أو رأسه.

عدتُ إلى نقطة البداية فأخرجت الصور وأعدتُ التفكير فيها بتفتح أكثر ... تأملنا الصور كثيراً، الواحدة تلو الأخرى مراراً، وسرعان ما لفت انتباهنا

الكثير مما لم أتوقعه ... الصور التي كانت تظهر فيها دموع شهرزاد دون أن ينقص شيء منها، كانت تتماشى مع قصيدة تلك الكاتبة بأن شهرزاد ستبقى تبكي إلى الأبد، فهي التي رسمت دموعها من الأساس ثم هاجرت وتركتها تبكي مع مدينتها بغداد! ... من ثمّ تتبعها الصور التي فقدت فيها شهرزاد ذراعها اليُسرى، لم تكن تلك صوراً لعشاق أو يافعين تصوروا مع التمثال في الساحة، وإنما كان هناك عسكريّ، بسلاح قديم يلتف حول رقبته، يتصور مع التمثال ويلوح له كما لو أنه يودعه ظناً منه أنها كانت تحية الختام بعد خدمة عظيمة أدّاها. في كل الصور من هذه المجموعة ظهرت شهرزاد وقد كانت الفوضى تحيط بها، دخانٌ يتصاعد في السماء، وأناسٌ تتراكض بحثاً عن مهرب ... ذلك دفعني للشك بأن شهرزاد فقدت يدها في تلك الفوضى، من قبل سُرّاق، وكيف يُمكن أن يشعر المرء بعد أن يخسر بضعةً منه لهم، فيدها ما عادت يدها بعد ذلك.

بذلك شعرتُ أنني حصلتُ على تفسيرٍ لاثنين من الجمل تفسّر دموعها ومن ثم فقدان يدها اليسرى، وبقيت عدة جمل مبهمة حاولنا ربطها بباقي الصور فكان ترتيبها:

"ليلُ الفراق أسود و يدي التي تمسح أدمعي ما عادت يدي، سوداء هي سوداء و ليلي أسود"

-أخذنا هذه الجملة ووضعناها مع الصور التي اختفت فيها الذراع اليسرى لشهرزاد والتي جاءني بها أخي.

ومن ثمّ:

"بكيتُ طويلاً ولم تمسح دموعي سوى دموع السماء، و ربما أيضاً، من **شهد** حُكمي بالبكاء"

-مع الصور التي اختفى فيها رأسها.

وأخيراً:

"وجسدي هو حكاية امرأة ترفض القيود هاجرت وتناشد العودة لتحكي لملكها قصص آلاف الليالي في عشرات العقود"

-مع الصور التي بدت فيها بلا رأس ولا ذراعين.

وبقيت جملة واحدة تبحث عن دليل ...

في الصور التي فقدت فيها شهرزاد إحدى ذراعيها أكثر ما لفت انتباهنا فيها هو تكرر الصور لشابٍ وفتاة بالقرب من النصب. عندما رتبنا الصور زمنياً وجدنا كل ملامح السعادة على وجهيهما ومن ثم صورة أخرى لزينة قد وضعها الشاب في المكان بما أوحى بأنه كان يُعدّ مفاجأة لها، ومن ثمّ صورة دخان يملأ المكان.

تلت ذلك مجموعة الصور بدون رأس ... منظر التمثال وهو بدون رأسٍ كان مؤلماً، لم يكن لشهريار أن يقطع رأسها، لم يفعل كما تقول القصة، ولكن قام غيره بذلك! ... هناك رجلٌ مُسنٌ لم تؤخذ له صورة بعينها، لكنه ظهر في خلفية عدد من الصور. استخدمت عشتار برنامجاً للبحث عن صور أخرى له في الأرشيف، لقد ظهر وجهه في معظم اللقطات منذ كان التمثال سليماً وحتى زوال الرأس، ففي غالبية الصور كان يظهر، في الخلف، غير مكترثٍ لأحد، جالساً أو واقفاً وهو يحدّق بوجه شهرزاد، ولم يختفِ من الصور إلا بعد اختفاء رأسها.

بعد زوال الرأس قلّ عدد الصور كثيراً، بل إن معظمها كانت صورا لتجمعات نسائية حول التمثال مقطوع الرأس. بدا وكأن السلام حينها قد

حلّ من جديد، بعد أن تلاشى جسد شهرزاد ومن ثم شهريار نفسه.

على الرغم من إمساكنا لبعض الخيوط والوجوه لم يكن الربط بين سكان بغداد الحاليين وأشخاص عاشوا في الماضي بالأمر السهل، لأن إخفاء هذه الروابط أصبح عادة؛ فمنذ أن أصبح الاسم خطراً على حامله حتى توجه الناس إلى تسمية أسماء حيادية لا تخبر عن انتماء الشخص إلى أي دين أو طائفة، تقول كتب التاريخ أنه في تلك الحقبة تم رفع شعار "تنازل عن لقبك لتعيش!" وشيئاً فشيئاً هذا ما حدث بالفعل. ولأن كل جيل يتحسر على الزمن الماضي فالأب يقول زمان كان أفضل، والجد يقول زمان كان أفضل ظلت العودة إلى الماضي مستمرة و إلى التغني بأمجاده حتى أصبحنا نعيشه من جديد و نحمل أسماءً مرت عليها خمسة آلاف سنة ... لنعيش! ... يجب أن نكسر هذه الدائرة، هذا ما قاله لنا أستاذ التاريخ!

في اليوم التالي أيضاً اعتذرتُ عن الذهاب إلى العمل وأخذتُ قائمة الأسماء والعناوين بحثاً عن معلومات تدلّني على أشلاء شهرزاد. كنتُ أحمل الصور التي ظننتُ أنها قد تعني شيئاً لأقارب المعنيين على أمل أن يرشدوني. في العناوين العشرة، بل العشرين الأوائل، خرجتُ خائباً دون أي دليل حتى ظننتُ بأنني ألاحق أوهاماً، أو أن أحداً لن يطلعني على سرّه أو صلته بتلك الساحة. بدأ الشك يساورني حول مشروعي كاملاً.

عدتُ إلى شقتي وارتميتُ على سريري ... ليراودني ذات الحلم ولكن دونما أن أصحو بفزعٍ تلك المرة ... كنتُ أشعر بأنها ترشدني إلى شيء، وأن ذلك لم يعد كابوساً ترسمه لي متلازمة بغداد!

قدمتُ إجازة رسمية وكررتُ رحلة بحثي تلك لثلاثة أيام أخرى حتى وصلتُ إلى أجوبة ...

وصلتُ إلى أن الشاب الذي رأيناه في مجموعة الصور مع الفتاة مراراً قرب التمثال أراد خطبة محبوبته، رتب لذلك، زيّن الساحة آملاً أن يضع الخاتم في يد حبيبته اليمنى وأعدّ لتصوير ذلك الحدث. إلا أنه لم يضع الخاتم في إصبعها أبداً. ففي طريقها إلى مكان لقائهم ذلك اليوم، وبالقرب من المكان حدث تفجيرٌ فقدت فيه محبوبته ذراعها اليمنى. بعد ذلك رفضت محبوبته الزواج منه وهاجرت مع عائلتها إلى الشمال ... عندها أخذ يد شهرزاد اليمنى و علّق الخاتم حولها ... ثم تزوج ابنة عمه وأبقى تلك اليد لتشهد قصة حب مبتورة وتقبل ابنة العم بذلك! ... بقيت تلك اليد تحمل الخاتم الصغير كتحفة قد لا يقدر الأحفاد ثمنها، حتى ضاع.

أما الرجل المسن فقد تبين أنه كان نحّاتاً مشهوراً وجد في تلك الزاوية مكاناً يراقب فيه بغداد، حتى جاءت الكاتبة العراقية لتروي له حكايتها و ترسم دموعها على وجه شهرزاد. بقي النحات مكتئباً يراقب الأحداث حول شهرزاد ثم لم يحتمل رؤية دموعها دون ان يواسيها أحد، بل و دون أن يرى دموعها أحد، فأخذ رأسها معه و رحل ... و لا يزال رأسها يحتمي ضمن منحوتات أورثها لعائلته.

وأما تجمع النساء حوال التمثال في سنواته الأخيرة، فكنّ يمثلن رابطة لحماية حقوق المرأة العراقية. لم يسعن رؤية شهرزاد تقف أمام شهريار بما يجرح كبرياءها، بلا يدين، مسترقة، ومقطوعة الرأس. رفعن شعارات تطالب بترميمه حفظاً لكرامة كل النساء، ولمّا ذهبت محاولاتهن هباءً، أخذن ما بقي من جسد شهرزاد بعيداً ... ولم تزل تلك الرابطة تتوارث حماية ذلك التمثال، لزمنٍ طويل، حتى نسين أنه ليس ملكهنّ!

خلال أسابيع قليلة استطعتُ إيجاد أجزاء شهرزاد كلها، ولكنني فشلتُ بتعقب شهريار. وصلتُ إلى مرحلة تهتُ فيها عن واقعي وعن أي تصميم

أردته لتلك الساحة، فكأنما شهرزاد حكت لي قصصاً لا يمكنني تجاهلها وكنتً أحتاج أن أعود إلى مكانها في كل يوم لأستمع إليها.

في الليلة التي لاحت فيها القطعة الأخيرة، أخذت من أحد المطاعم برياني "سفري" وعدتُ إلى شقتي أحاول الأكل، ومن ثم الاتصال لطلب مهلة لإيصال تصميم الساحة الذي بتُ أماطل فيه. غفوتُ فجاءتني شهرزاد مجدداً تقول لي:

"عاشقي أقرب مما تتصور ... المهاجرون يحلمون بالعودة لكنهم لا يعودون أبداً، غير أن عاشقي لم يُهاجر بل مُهجّر"

كلمات شهرزاد تلك ظلت تدور في رأسي ثم جعلت أول ما أصحو لفعله هو الاتصال بقائل تلك الكلمات لي، زميلي أوتو! ... حتى إنني لم أتطلع إلى بغداد من النافذة ولم أشرب استكان الشاي يومها، اتصلتُ به مبكراً وقلتُ له: "أتعرف أين شهريار؟ أحتاجُ أن أجده"، ضحك أوتو مني وقال: "سودرا لقد اصبحت مهووساً بشهرزاد وأخشى أن أعراض المتلازمة تتزايد لديك!"، فقلت له: "شهرزاد أرسلتني بحثاً عن شهريار، لا أستطيع إعادتها إلى الساحة بمفردها ولا أريد أن أفقد بصري قبل أن أقوم بذلك!"، عندها تنهّد أوتو ... سكت لثوانٍ ثم قال: "هناك تجمع، ملتقىً للعوائل القديمة، عليك الحضور ... عائلتي ستكون هناك".

كنتُ أترقب ذلك الموعد ولكنني لم أنس أنني سألتقي بعائلة أوتو للمرة الأولى فخرجتُ يومها أبحث عن حلويات لأخذها معي. ذهبتُ إلى المكان فوجدته عبارة عن نادٍ عائلي خاص في ضواحي بغداد القديمة، يتخفى بأشجار النخيل. كان الباب مقفلاً فاتصلتُ بأوتو الذي جاء ففتح لي الباب الخارجي ومن ثم سلسلة من الأبواب الداخلية، وهناك فوجئتُ بما رأيت.

كان تمثال شهريار يتربع وسط القاعة الكبيرة حيث تجمع عدد من الرجال، النساء والأطفال ... يتحدثون، يضحكون و يلعبون ... أما أنا فقد وقفتً تائهاً لا أفهم ما أرى.

اقتربت مني مجموعة من الرجال ومعهم أوتو الذي قال لي: "نحن ... لم ننس أسماء أجدادنا ... الرابع منهم أو الخامس"، فقال أحدهم: "اسم جدي الرابع، من جهة والد والدي هو علي"، وقال آخر: "وجدي من جهة أمي كان عمر"، وأضاف ثالث: "وعمّ أبي اسمه عيسى"، فأكمل المتحدث الرابع: "جدي، والدُ أمي، كان ثازاد"، وردد آخر: "سركيس"، بينما قال أحدهم: "يشار" وأضاف آخر: " شيت" ... بقيت الأسماء تتردد حتى أكمل أوتو قائلاً: "كلهم كانوا أساتذة وأصدقاء في جامعة بغداد ... كلهم خافوا على شهريار أن يسقط من ملكه ويوصم بأنه عميل ضد بلده، وأنه لم يكن عراقياً. رغم أن شهريار شهد ازرقاق دجلة، احمراره اسوداده، طوفانه وعطشه ... فتعاونوا على إخفاء شهريار على أن يعود عندما تعود شهرزاد! ... إن كنت مصاباً بمتلازمة بغداد فاعلم بأنه لم يدفعنا نحن ولا أجدادنا شيء غير متلازمة حب بغداد!".

ومرّ عام ...

وها أنا ذا أقف بين شهرزاد وشهريار في الساحة قرب نهر دجلة، لا أراها وإنما كأنني أسمعها تحكي له قصصاً ... قصص آلاف الليالي من الفراق ... قصصاً تملأ السماء ... وأسمعُ صوت الحمائم ترفرف من حولنا و تغني "كوكوكتي ... كوكوكتي".

حسن عبدالرزاق

مؤلف من أصول عراقية، ولد في براغ ويعيش حالياً في لندن. من أعماله المسرحية (زفاف بغداد، مسرح سوهو، 2007). (النبي، غايت ثياتر، 2012). (الحب، القنابل والتفاح مسرح أركولا، 2016). حصل على عدد من الجوائز المسرحية منها جورج ديفاين، ماير - ويتورث، وبيرسن، كما حصل على جائزة الثقافة من المركز العربي البريطاني.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

كوسوزيب

أور كان متحمساً جداً. لم يكن رب عمله معروفاً بالكرم، لذا بالكاد تمكن من تمالك نفسه يوم عرض عليه بطاقتين مجاناً لحضور المأدبة. "يجب أن أتواجد في قطاع آخر نهاية هذا الأسبوع". قال مديره موضحاً بطريقته السخيفة، وصوته الجهوري. شك أور بوجود عشيقة جديدة.

لهفته سبقته إلى المنزل. "احزري ما حدث يا قطعة السكر؟" نادى على زوجته. "نحن ذاهبان إلى المأدبة!" برقت عينا أونا للمرة الأولى منذ أشهر.

كان أور يعلم أن أونا لم تكن سعيدة بانتقالهما إلى القطاع 42، على الرغم من أنهما يعيشان في أكثر مدنه إثارةً (سنتر بوينت). لم تعبّر أبداً عما في بالها، أو تعترف بما أرادت قوله، ولكن بعض أنواع الاستياء تأخذ وقتاً أطول وهي تطبخ على نار هادئة، وحتى أنها تأخذ وقتاً أطول لتغلي وتزبد.

بدت البطاقتان في يدي أور كأول إشارة على الحياة الأفضل التي وعد أونا بها، المأدبة السنوية هي المكان الذي يجب أن يكونا به خلال هذا الوقت من السنة. من المستحيل أن يدعيا إليها، وفي الوقت نفسه تقدم لهما كل شيء: فرصة لتذوق أفضل الأطايب الموجودة في القطاع، فرصة

للاختلاط بشخصيات المجتمع المهمة، وللتعرف على نوع معين من الناس ممن لا يمكنك أبداً التعرف عليهم وأنت مجرد موظف فرز وتنسيق. وهو ما كانه أور، كاتب سجلات ذا طموح كبير.

"لدينا بطاقة دخول إلى عرض الأزياء، أيضاً". صرّح أور

قبّل أونا، متذوقاً طعم الاوريغاونو والريحان على لسانها، قبل أن يتذوق بطرف الملعقة، الصلصة التي كانت تحضرها.

لقد حاولا ممارسة الحب تلك الليلة، ولكنها أثبتت - كما في مرات سابقة - ومنذ انتقالهما إلى القطاع 42، أنها علاقة بائسة. وفي ساعات باكرة من ذلك النهار، جلست أونا على الفراش وأخذت تبكي بصمت. تظاهر أور بالنوم.

أخيراً، أشرقت الشمس على يوم المأدبة، واصطحب أور أونا للتسوق. كما دللا نفسيهما باقتناء ملابس أنيقة، من النوع الذي لا يحلمون عادة بشرائه، بعد ذلك، وبينما حجزت أونا مكاناً لها في صالون التجميل، أمضى أور ساعة من الوقت، محدقاً بشبابيك المحلات التي تعرض حراب الليزر. ولدى عودتهما إلى المنزل، تحمما، وتعطرا وارتديا ملابسهما. فكر أور بشدة جاذبية أونا بملابسها الجديدة. لف يده حولها، ولكنها سحبت نفسها بلطف بينما عدلت أقراطها. اختفت الابتسامة الباهتة من على وجه أور، وتساءل إن كانت الأمور ستتحسن بينهما أم لا على مدى هذه الليلة.

صفّ أور الباردیجیم هوفر في رصيف السيارات، ثم استقل الزوجان الكبسولة المغناطيسية للوصول إلى محطة مدينة التحالف (جزء من المدينة كان اسمه مدينة الثورة في الأيام الخوالي) ومن هناك وصلا إلى مجمّع المعرض بواسطة شفرات شمسية يمكن التخلص منها. حيث تخلصا

منها وأعادا تدويرها في حاوية واقية للإرهاب مقابل المجمّع. من خلال الواجهات الزجاجية لاحظا أن المأدبة قد بدأت.

أثناء مرورهما بالمدخل الرئيسي رفع كل من أور وأونا بطاقات الدعوة، حتى يتم مسحها من قبل الجهاز الأمني. ومع قراءة كل دعوة، كانت شبكة الليزر المتشابكة والمتقاطعة على المدخل تختفي ويدخل الزوّار. على الجانب الآخر، أونا، وأور قابلا زوجين من الجراء الروبوتية بطول عشرة أقدام، وقد أحاطا بهما بحماس. غمرتهما الجراء بضوء بنفسجي منبعث من عيونها البديعة، لكشف الأسلحة. كان على أور أن يذكّر نفسه أن هذا النوع من الجراء، ذات الآذان الكبيرة واللون الكرومي بقدر ما هي فاتنة، فهي مصممة لالتهام وابتلاع الإرهابيين دفعة واحدة وبأقل من جزء من الثانية. ويمكن للقنابل الانفجار بصمت داخل أمعائها.

القاعة الكبير كانت أخاذة وآسرة بالنسبة لكل من يدخلها. مستخدمين سطوحاً عاكسةً، ودهاناً بلورياً اصطناعياً، تمكن المصممون من نقل شعور بالاتساع، حتى أنك لتشعر بلانهائية المكان.

صفوف وصفوف من الأكشاك امتدت مثل أمواج المحيط. مزارعون وتجار من مختلف مناطق القطاع 42 -ليس فقط من السنتر بوينت بل أبعد من ذلك -اجتمعوا لعرض منتجاتهم. الصفوف الخمسون الأولى كانت مخصصة فقط للنبيذ.

توقفت أونا أمام واحد من الأكشاك التي تعرض النبيذ، بملصقات تجارية مميزة، كانت العلامة التجارية عبارة عن لوحة تصوّر منزلاً ريفياً محاطاً بأحصنة، ومزارع تمتد على طول المدى. بدت الصورة وكأنها مأخوذة

من دليل إينفوبيت[1] . سأل أور التاجر الكبير المسؤول عن الكشك إذا أمكن لهما تذوق بعضٍ من النبيذ. سكب التاجر لهما بكرم كأسين ممتلئين.

"قم بشمّه أولاً". اقترح على أور، الذي كان على وشك أن يفرغ الكأس في فمه دفعة واحدة.

"لماذا؟"

"هكذا كانت العادة في الأيام الخوالي".

شمّ أور النبيذ، ولغرابة الأمر سُعد له، حتى أنه شعر بالإثارة نوعاً ما بسبب الرائحة، تبعته أونا بابتسامة على عرض وجهها.

"الآن، اشرب". قال التاجر الكبير آمراً.

بدأ أور بالشرب. داعب النبيذ حنجرته كقماش مخملي، بعد لحظات، انفجر المذاق منتفظاً في جوفه، وصل الكحول إلى دماغه وشعر بعضلاته تسترخي بحصولها على قسط وافر من السعادة.

"هذا ليس نبيذاً طبيعياً، أليس كذلك؟ مم صنع؟".

"العنب". أجاب التاجر.

"عنب!".

"عنب أحمر لأكون أكثر دقة. هكذا كان يصنع النبيذ هنا سابقاً. نحن الشركة الوحيدة المرخص لها بصناعة النبيذ بالطريقة ذاتها التي استعملت قديماً".

(1) نوع جديد من المحتوى الالكتروني، عبارة عن رسوم بيانية تقليدية وميمات صغيرة قابلة للمشاركة (Infobite)

"ولكن هذا مذاقه رائع". قالت أونا مقتحمةً الحديث، نظر أور والتاجر لها باستغراب، معتقدين أنها لم تكن منتبهة لحديثهما. "يجب أن تتوافر أشياء كثيرة مثل هذه، من الواجب تشجيعنا للتعرف على التاريخ". صوتها كان مفعماً بالحماس. التاجر الكبير سكب لها كأساً ثانية، ومال نحوها وهمس. "أتعرفين. وجوه الزعماء تتجهم لهذا. سيدتي".

أنهى أور كأسه وسأل. "هل تنتج شركتكم أي نوع من النبيذ العادي؟".

"طبعاً، خذ تذوق هذا".

أخرج التاجر إناء من الحاضنة بدرجة 37، وسكب له عينة بكأس جديد.

كان نبيذاً محلياً، حيث رُسم على الملصق لوغو النهرين المتداول.

تذوق أور النبيذ، كان من النوع المألوف، النوع الذي يمكن شراءه بسهولة من الماركت المحلي، صاغ سؤاله الثاني بتأن، قبل أن يطرحه بثقة:

"من أي نوع من البشر صنع هذا النبيذ؟".

"إنه من دماء السكان المحليين". رد التاجر الكبير بصوت باهت، ومن الواضح أنه لم يكن معجباً بطرح أور لسؤاله بشكل يفتقد للدقة والكياسة. "حريٌ بك، ربما أن تسأل، على ماذا كانوا يتغذون؟" اقترح التاجر.

"إيه... بالضبط." احمر أور خجلاً.

"نحن نفضل اتباع مناهج عضوية. وهذا هو ما تتمحور حوله شركتنا". ترجم التاجر كلامه معبراً بإشارات من يديه. "لذا، كبداية، فنحن نطبخ وجباتهم. معظم تجار النبيذ لا يهتمون لمثل هذه التفاصيل، بإمكان البشر أكل اللحم النيء، ولكن أسنانهم ليست مصممة بالتحديد لمثل هذا النوع من الطعام، لذا هم يفضلون الطعام المطبوخ".

"مثلنا تماماً!" قالت أونا بصوت أشبه بالعواء.

"أجل. ربما هناك درجة من التشابه بيننا وبينهم".

أخرج التاجر عدة زجاجات من النبيذ بلوغوهات وملصقات مختلفة. "هذه الزجاجات جاءت من مكان أبعد بكثير. تذوقا". وسكب لهما كأسين جديدين.

"ماذا تطبخ لهم؟". سألت أونا باهتمام، على اعتبار أن الطبخ كان من الأشياء التي تميزت بها.

"أي شيء نحصل عليه بسعر رخيص: خراف، حمير، فئران، وهذا النوع من الأشياء. أحياناً نطعمهم أطفالهم، ولكننا وجدنا أنه من الأفضل ألا يدركو هذا، وإلا سيهتاجون".

وضعت أونا كأسها جانباً. بينما رشف أور من كأسه المزيد.

"نحن نفحصهم من الأمراض بشكل دوري، فهم معرضون للكثير من الفيروسات، كجنس بشري. يجب أن نكون حريصين خصوصاً عند التعامل مع سوائلهم: دماء، مخاط، سائل منوي... وإلى ما هنالك. معظم فيروساتهم لا يمكنها الانتقال إلينا، لكن مع هذا يجب اتباع القواعد".

"صراحة، لديك منتج جيد هنا. نوعيته ممتازة". قال أور هذا، مدركاً ما الذي سيقوله التاجر.

"هل ترغب بشراء أي شيء، سيدي؟ بإمكاننا إرسالها لعنوانك".

وقبل أن يسنح له الوقت للرد، أو تلمس بطاقته الائتمانية، تدخلت أونا. "ربما لاحقاً، ما زال أمامنا الكثير لنراه".

دائماً ما كانت هي العاقلة. أدرك أور أيضاً أنها بقولها هذا فهي تذكره

بخطتهما: العمل في السنتر بوينت لتجميع ما يكفي من الرصيد لشراء رقعة من البحر في وطنهم.

تذوقا مزيداً من النبيذ من مناطق أخرى، مجملها صنّع من دماء البشريين. على الرغم من أنّ قسم "فينوس الأخرى" قدم أنواعاً معتقة، مستخرجة من كلب، قط، فأر همستر وخنزير. أونا ثملت قليلاً، قبّلها أور، فقبلته، وشعر أن شرارة من النار اشتعلت بينهما... فكر، لكن هذا ليس كافياً. اختلطت الدماء على شفتيهما، كما اختلطت عيونها الأفريقية البنية اللون مع شقاره الألماني.

بعد النبيذ جاء دور أكشاك اللحوم، بدا لأونا أنّ كل جزء من البشريين قد استخدم بطريقة أو بأخرى. كانت هناك أيدن، وأجذع وأفخاذ متدلية من الخطافات، وعدد من المناضد عرضت رؤوساً محشية بالبندورة المقلية والفليفلة مكان الأعين. في ماركت أونا المحلي، كانت اللحوم البشرية على درجة عالية من التصنيع، وكانت تعبئ بأكياس محبكة ومفرغة من الهواء. كان من السهل نسيان المكان الذي أتت منه. لكن هنا، جوبهت بالجميع البشري البهيمي. مر أور من جانب رأس تتدلى من أذنيه جزرتان، كان عليه قمع رغبة بالضحك وهو يشق طريقه متقدماً.

ثمّ، كانت هناك النقانق، سلاسل وسلاسل منها، مكدسة بصوان مبردة على طول جدران قلعة قديمة. علم أور أن هذه مصنوعة من عيون اجتثت من مقالعها، شفاه وخدود، ألسن، وعضلات، ونخاع عظمي. كل جزء من التشريح البشري تم تعليبه تقريباً في أسطوانات الأطايب هذه. التقطت أونا واحدة من النقانق المغلفة "القلفة مع الأعشاب" لفحصها عندما لاحظت أن جمعاً من الناس تحلقوا حول منصة تقابلها تماماً.

بدا وكأن تمثيلية على وشك البدء، الجزار الواقف على المنصة يرتدي اوفرال برتقالي اللون. امتدت على الطاولة أمامه ساق بشرية كاملة، كان العضو الأسمر مصقولاً بشدة، على عكس العديد من الأرجل المعلقة حوله. شيء فيه دلّ على الأنوثة، الأظافر كانت مطلية باللون الأحمر، والأصبع الأوسط مزين بخاتم فضي صغير. وقف الجزار بيد تمسك الفخذ بثبات، والأخرى تحمل ساطوراً قديماً، حافته تومض كبريق الليزر. وبمجرد اجتماع عدد لا بأس به من الناس، رفع القدم وتنحنح، وللحظة توقف، ولاحظ الخاتم في إصبع القدم، وبنقرة من الساطور اختفى، محلقاً في الهواء فوق رؤوسهم، وسقط في مكان ما خلفه محدثا رنيناً خفيفاً. الأظفر سقط أيضا ورشح القليل من الدم المجمد منساباً على بقية الأصابع وعلى الطاولة. أونا وأور، ومعظم من كان شاهداً لاحظوا أنّ الساق كانت عضوية؛ نضرة وطازجة جداً.

"إن أهم ما عليكم معرفته لدى صنع النقانق، هو أن يكون المنتج النهائي بجودة محتوياته". جأر صوت الجزار، مما أجبر بعض الأشخاص المشغولين بمحادثات جانبية على السكوت. "اللحم يجب أن يكون طازجا" توقف، لترسخ هذه الفكرة في عقولهم. "ويجب أن تكون نوعيته ممتازة، ونسبة الدهون إلى النحافة متوازنة. ليس من الجيد استعمال عينات سمينة، ولهذا يحرص المزارعون الذين يدركون ماهية عملهم، على خضوع مخزونهم للكثير من التمارين. إذا أعطيت البشري نصف فرصة فهو سيأخذها ويجلس لفعل اللاشيء". قطعته الضحكات عند تعليقه الأخير. لم يبتسم الجزار "هذا ليس جيداً. الدهون البشرية تصلح بالتأكيد، لنقانق سيئة".

ثمّ، رفع ساطور اللحم عالياً فوق رأسه، وأنزله بما يكفي من القوة لقطع جزء مستدير من أعلى الفخذ. حمل قطعة اللحم وتقدم. الآن تبدأ

القطعة عن وجه أونا المرعوب مسافة قصيرة جداً. "أترون! لا دهون على هذه القطعة. إنها جميلة. انظروا إلى اللون، إنها فقط رائعة!". أور كان يهز رأسه موافقاً. أغلبية البشريين من السنتر بوينت كانوا لجمال سمارهم وكأن الشمس قبلتهم، وهذا بالتحديد ما جعل لحمهم لذيذاً. قذف الجزار بقطعة اللحم في طاحونة تعمل على الطاقة الشمسية.

"درجة حرارة اللحم يجب أن تحافظ على برودتها خلال عمليتي الطحن والخلط. هذه المطحنة مثبتة على درجة حرارة أربعة، وبنقرة واحدة تعمل على تعقيم نفسها عند عدم الاستخدام. الحرارة الباردة تمنع الجراثيم البشرية المقرفة من النشاط. لاحقاً، سيعالج هذا اللحم بخليط من تركيبات مضادة للفيروسات والباكتيريا، قبل تغليفها. هل من أسئلة إلى حد الآن؟".

"أجل، أنا لدي سؤال". صرخ شاب من الخلف. "لماذا هناك فرق كبير في السعر بين النقانق؟".

غرز الجزار ساطوره بمنتصف الساق وقال. "هذا له علاقة بنوع اللحم. البشريون يأتون بشتى الأشكال؛ أسود، أسمر، وردي، وأصفر. هذا يحدد المذاق، ولكن بالنسبة لنا، نحن سكان القطاعات من واحد إلى عشرين نمتلك براعم ذوقية تمكننا من تمييز نوعيات أخرى. يعتقد العلماء الآن أن ما كان يفكر به البشري أو يشعر به قبل عملية المعالجة يؤثر في نوعية اللحم".

صوت أنثوي أذاع عبر المكبرات المخفية. "الرجاء من الضيوف حملة بطاقات دخول عرض الأزياء، التوجه إلى قاعة الجحيم. استقلوا مصاعد الجاذبية نزولاً إلى 8/7".

مصعد الجاذبية كان عبارة عن منصة دائرية كبيرة، مؤطر بقضبان

حديدية غير متصلة، مرصع بأعمدة مطاطية معلقة في الهواء. من خلال الفراغات بين القضبان الحديدية دخل الضيوف، ومن ضمنهم أونا وأور، وقيل لهم أن يتشبثوا بالأعمدة المعلقة في الهواء. من ثم نزلت المنصة ببطء عبر قناة تضاعف حجمها كعملاق، حيث حوض الأسماك الأسطواني الشكل. افتتنت أونا بجمال المشهد الذي أحاط بهم؛ العديد من الأسماك ذات الألوان البراقة، منسابة بهيئة عظيمة كرفرفة طائرات حول ازدحام، ولكنها قادرة بلحظة على تغيير مسارها. بإمكان قطيع منهم أن يفلت بغتة بالتفافة تذكر بعضو يرتعش في نومه. عاش البشريون في خضم هذا الجمال لكنهم فشلوا في تقديره. كانت هذه واحدة من النقاط التي تم نقاشها مطولاً في إحدى وثائق الحكومة وسميت. (القضية الأخلاقية في احتلال القطاع 42) والتي تم إرسالها للجميع. واقفة هناك، مدركة أنها لن تتمكن من وصف جمال هذه الأسماك، تساءلت أونا كيف يمكن لأحد أن يوافق أو يختلف بتقدير البشريين لأي شيء. ربما تجاوزت الوثيقة هذه النقطة عمداً.

فكّرت أونا بالدروس التي تعلمتها في القاعدة قبل انتقالها إلى القطاع 42. معظم الناس الذين انتقلوا إلى هناك للعمل، بما فيهم أور، لم يشغلوا أنفسهم بأخذ مثل هذه الدروس، لكنها أرادت التعرف إلى المكان الذي سيكون وطنها لفترة من الزمن. من الأشياء التي كانت محل تجادل في القاعدة، فيما إذا امتلك البشريون حضارة أم لا. برز هذا السؤال بشكل غير متوقع وكان منصة للتبارز بحماس. تتذكر أستاذها وهو يشرح لهم أنه في الوقت الذي اعتبر البشريون فيه نظامهم في التعايش هو الذي سنّ تشريعات الحضارة، أو حتى لإضافة المزيد من الغرابة، سلسلة من الحضارات متباعدة الفترات و/ أو باعدتها الجغرافية، إلا أن هذا لم يكن

إثباتاً على شيء. شرح الأستاذ، أن اعتقاد الإنسان الأصلي بكون أي شيء حقيقي لا يعني هذا صحته. في النهاية، كان فنهم مكرراً، وعلمهم محدوداً لدرجة مضحكة، ولم يكنّوا سوى القليل من الاحترام لبعضهم البعض، وأقل الأشياء احتراماً هي هذا الكوكب الذي عاشوا عليه. "لا". ناقش الأستاذ. "يطيب لكم أن تسموها ما تشاؤون، ولكنها بالتأكيد لم تكن حضارة".

في ذلك الوقت، اضطربت أونا لإمكانية احتواء قطاعهاً أيضاً لبعض الخلل المستتر في البشرية. ولكن كلما حاولت طرح هذه النقطة، أجيبت بأن الخلل البشري كان على درجة أكبر من الجسامة والخبث الأخلاقي. قرار الاحتلال اتخذ من قبل القادّة في القطاعات من واحد إلى ثلاثة، ولم يُتخذ عن عبث، دائماً ما أؤكد لها هذا، وكان هنالك وفرة وكثرة في الوثائق التي يمكنها التبحر بها، إذا أرادت، أن تؤكد لنفسها المنطق القابع وراءها. وبرغم كل محاولاتها، كان البث اللانهائي للتقارير الناشفة وجلسات الاستماع ترسلها في نوم سريع.

"ما كان مفاجئاً هو رفض البشريين لفهم حتمية هزيمتهم." قال الأستاذ. "في الحقيقة، لقد قاتلوا!. هذا لم يحصل فوراً، فلدى وصول قوات التحالف اختاروا سنتر بوينت كقاعدة لهم، مما فاجئ الكثيرين. فكانت السنتر بوينت مدينة اعتاد البشريون أن يسموها باغي-داد (قد يلفظها السكان المحليون بطريقة مختلفة... أشار الأستاذ لهذا كملاحظة جانبية) البشريون في الغرب النخبوي، وخواصر الشرق للقطاع 42 كانوا متفاجئين، وبالتأكيد مهانون، لأنه لم يتم احتلال واحدة من مدنهم أولاً. دائماً ما تخيلوا – مراراً وتكراراً، من خلال ما يسمونه فناً – أن هذا في النهاية لن يكون سوى قضية – غزو فضائي – كما أسموها. وتوسع "مثقفوهم" في تخميناتهم حول اختيار باغي – داد عوضاً عن مدن مثل نيوي بورك أو ليندن أو بي – جين. هل لموقعها؟

مناخها؟ جغرافيتها؟ أو واقع أن باغي - داد كانت ممزقة من الحرب منذ البداية، وسكانها المتعبون من القتال هو ما جذب "الحلفاء" لها؟

هنا تذكرت أونا كيف حاد أستاذها عن الحديث. "إن الكلمات التي استعملها البشريون لوصفنا مضحكة، في واحدة من لغاتهم الأساسية ينعتوننا بـ "إليانز". مصطلح فظيع!. في حين أن البشريين القاطنين في السنتر بوينت ممن يتكلمون العربية ينعتوننا بـ "الكائنات الفضائية" أو شيء يشبه هذا اللفظ بما يعني "مخلوقات الفضاء" وهو مصطلح أكثر حيادية. بالطبع، كان يجب أن يطلقوا علينا - وفقاً للمنطق، إذا لم يكن أي شيء آخر - هو "الكائنات الأفضل منهم". أعني كم هي صعبة معرفة هذا بعد أن قطعنا مسافات شاسعة للوصول لهذا القطاع، نحن العرق التكنولوجي المتفوق، ولهذا نحن أفضل؟ ولكن البشريين لم يكونوا في حياتهم جيدين في المنطق". شيء ما في هذا النقاش صعق أونا بالشك، وقبل أن تتمكن من إيجاد صيغة له، انتقل الأستاذ إلى نقطة أخرى.

عند استعمار باغي - داد لأول مرة، توجس البشريون في أنحاء القطاع 42، ولكن ليس لدرجة القيام بفعل حاسم. أدركوا أن كل هذا كان مبكراً على عكس انتشار فيروس أو اهتياج جماعة مسلحة من المتعصبين، هذا التهديد لا يمكن التغاضي عنه لفترة طويلة. أثبتت باغي - داد أنها موقع ممتاز للتحالف ليمتد شمالاً، جنوباً، شرقاً وغرباً. محتلين القطاع كاملاً بما يمكن اعتباره وقتاً قصيراً. ما كان غريباً". بيّن الأستاذ. "أن البشريين في النهاية نظموا نشاطاً سموه "المقاومة". كانت الفترة الوحيدة التي اجتمعت فيها كل نكهات البشريين - ورديين، سود، سُمر، وصفر - واتحدت من أجل هدف واحد. هذه الغفلة من الذكاء جاءت متأخرة كثيراً، مع هذا وفي نهاية المطاف، كان من السهل هزيمة البشريين بعقد اتفاقات مع بعض أعضائهم

الأقوياء، يشاع أن عدداً قليلاً ممن اختيرا منهم لتعاونهم مع التحالف، تم إعفاؤهم من العبودية والإخضاع. وليس لدينا فكرة واضحة عن مكان سكن هؤلاء في الوقت الحالي. يقول البعض أنهم نقلوا بـ التيليبورتيد[1] إلى الكهوف في القطاع 3078. وقد تغيرت أسماء المدن البشرية والحارات بسرعة على كل الخرائط المتاحة لجعلها مفهومة ومألوفة للحلفاء ومربكة للسكان المحليين. على سبيل المثال، أماكن مثل مدينة الثورة - مركز رئيسي للمقاومة عمره قصير - تحولت إلى مدينة التحالف.

كان أور أيضاً غارقاً في أفكاره، مع نزول مصعد الجاذبية عبر حوض الأسماك الأنبوبي الشكل. لكنه لم يكن يتأمل في تاريخ القطاع 42. في الواقع كان يفكر في عمله. وقد اشتد الطلب على موظفي التنسيق مثله هو، بعد التغيير (أو "الاحتلال" كما يعنّ لبعض البشريين الإشارة له بشكل مزعج) لفهرسة كل شيء. رمي ما لا حاجة له. والإبقاء على ما هو ذا صلة بالتحالف، والأهم تدمير كل ما له علاقة بما يسمى "الثقافة الإنسانية" لأنها قد تؤدي إلى نشوب مقاومة جديدة. إنه لأمر رائع. فكر أور. كيف يمكن لواحد أن ينجز عملاً من التعقيد كتغير قطاع كامل بامتلاكه الحد الأدنى من المعرفة؟ أور راجع قواعد البيانات التي أمدته بالمعلومات التي احتاجها للفهرسة، لكنه نادراً ما اضطر للتبحر عميقاً في التفاصيل، ببساطة لم يمتلك من الوقت ما يكفي ليكون متعمقاً، بسبب حجم العمل. عادة ما تفتقر قاعدة البيانات لبعض المعلومات، وكان على أور أن يفعّل البروتوكول 7 ليتمكن من التحقق من الموضوع الذي يفهرسه، مستخدماً معلومات احتفظ بها البشريون أنفسهم. هذا الفعل لم يكن مشجَعاً، وموظف تنسيق

(1) النقل والتنقل عبر الفضاء بسرعات قياسية (خصوصا في الخيال العلمي) المترجم

Telegram: @Arab_Books2

لا يمكنه تفعيل البروتوكول 7 أكثر من ثلاث مرات خلال دورة عمل معينة. وإلا سوف تنبثق أجهزة الإنذار من القيادة العليا. صادف أور مرة، أن وجد كتاباً مصنوعاً من شيء اسمه "ورق"، مرسومٌ على الغلاف صورة لبشريٍّ أصلع مرتد طوقاً أبيض ضخماً، يرى المشاهد نظرته القلقة. المعلومات الواردة عن هذا البشري سطحية وعامة، وبعيدة كل البعد عن التفاصيل الموجودة في السجلات الخاصة بكتب التشريح والتي اهتمت على وجه التحديد بالطباخين العاملين لدى الحلفاء.

تمكن أور من اكتشاف أن هذا الذكر كتب كلمات، لم يتوقف البشريون عن تكرارها لعقود، غالباً على مسارح، "لـتسلية" غيرهم من البشريين، وهذا سلط الضوء ببراعة على النقطة المشار إليها حول محدودية فنّ البشريين، والطبيعة التكرارية المتأصلة فيه. وإلى أن بدأ أور بتصفح الكتاب، وجد أن القصص آسرة بشكل غريب، على الرغم من أن الحبكات غلبت عليها البدائية واللامعقولية. ولربما الضباب الذي أحاط بالترجمة الازدواجية جعلها أكثر فتنة (أور كان يحلّ رموز الكتاب - والذي ترجم إلى العربية من اللغة الأصلية - بمساعدة جهاز الترجمة). وعلى الرغم من الغموض اللغوي، وجد نفسه يضحك على نكتة في واحدة من هذه القصص عن المقابر والموت، وتحكي قصة بشري يحاول الانتقام لمقتل الذكر الذي أنجبه، لكنه يماطل بهذا الفعل بطرق غريبة ومسهبة في الإطالة. توجهت أنظار الجميع نحو أور ذلك اليوم، ينظرون إليه باستغراب وهو يجاهد في كبح ضحكته. ولتمالك نفسه، ذكر نفسه بفشل البشريين المثير للشفقة، بتطوير الأساسيات في صناعة الطائرة الفضائية العابرة ما بين المجرات، مسترجعاً سحر اللحظة مع هذا الكتاب، مستعيداً مشاعره القديمة من الاشمئزاز والقرف اتجاه هذه المخلوقات. فقط عندما سيطر عليه هذا الشعور بالفوقية، وأصبح له سحر

مادي – قشعريرة من الاشمئزاز – استعاد توازنه النفسي.

مثل هذه الأزمة لم تتكرر مرة أخرة، وأحرز أور تقدماً مذهلاً في عمله. ما أراده أكثر من أي شيء هو الحصول على الترقية ليصبح رئيس السجلات. الليلة كانت فرصته للمضي قدماً في طموحه، إذا نجح فقط بالتواصل مع الأشخاص المناسبين.

كانت هذه أفكاره أثناء نزول مصعد الجاذبية. ثم، وأخيراً، جذبته واحدة من الأسماك، ألوانها وحركتها الغريبة تسللت إلى أعمق أفكاره وأكثرها خصوصية. نظر إلى أونا وتساءل عن سبب تعاستهما. ماذا لو نال الترقية فعلاً؟ ماذا بعد هذا؟ ربما سيتمكنان من ادخار ما يكفي من الرصيد للعودة إلى القطاع الثالث قريباً. هل سيعيد هذا الرغبة التي كانت بينهما؟ بدت علاقتهما فارغة؛ كان عاجزاً عن شرح الأمر. جلّ ما يعرفه أن هذه العلاقة تسبب لكليهما ألماً كبيراً.

وصلت المنصة إلى الطابق 7/8. مشى الضيوف عبر ممر واسع كان بالكاد مضاءً، وكان يفضي إلى المساحة الكهفية لقاعة الجحيم. انتصب مسرح في مؤخرة القاعة، ومشى أور وأونا باتجاهها. عرض ضوئي قد بدأ لتوه، ترافقه موسيقى صاخبة. جلسا على طاولة مع عدة أزواج آخرين.

لاحظ أور أنهما وجدا نفسيهما في مكان حصري ومنفرد من القاعة، حيث بدا جميع من حولهما بهيئة رائعة بشكل لا يصدق. طبعاً سيكون الجميع بهذه الهيئة، فكر أور، فالبطاقات هي لرئيسه في العمل، الدائم الاختلاط، في سبيل توسيع مهنته. بدأت العارضات باستعراض مجموعة الشتاء على المسرح، من ضمنها معطف مصنوع من شعر الخروف (وهو ما كان يسميه البشريون بـ الصوف). أزرار المعطف صنعت من أصابع بشرية

حفظت كيميائياً وقويت بالفولاذ. تصميم أنيق، فكر أور. بينما بدت أونا شاحبة الوجه وهي تحدق بالعارضات، على الرغم من أنّ أور لم يلحظها تحت هذه الإضاءة الخفيفة.

انتبه لبعض الضيوف الآخرين وهم يمدون أيديهم نحو إناء من ضمن مجموعة وضعت في منتصف كل طاولة، كانوا يخرجون منه أشياء، مستخدمين أشواكاً فولاذيةً نحيفةً، واضعينها في أفواههم بينما تهتز أجسادهم وتترنح على إيقاع الموسيقى. مرر أور نظره نحو الزوجين بجانبه. بدا الذكر مألوفاً. فقرر خطف فرصة، وكسر الحاجز بينه وبين الطبقة الراقية. فرصة كهذه لا تأتي كل يوم، مال نحو الرجل بجانبه مشيراً إلى محتوى الإناء الذي أمامهم، وسأل. "ما هذا؟". جاوبه الرجل لكن أور لم يتمكن من سماعه بسبب صوت الموسيقى، قبب أذنه وقال. "أعد ما قلته". صرخ الرجل في أذنه. "آه، أوك". أضاءت عينا أور، وفجأة أدرك أن الرجل بجانبه لم يكن إلا رئيس الأرشيف، المسؤول عن توظيف وفصل كل القائمين على حفظ السجلات، ابتسم أور بوداعة وقال. "لم أجرب هذه الأشياء من قبل". التقط الشوكة أمامه وغرزها في الإناء، اضطر للدوران والبحث قليلاً حتى تمكنت شوكته من غرز أسنانها في فريستها. سحب غنيمته ورماها في فمه. "اممم، زنجي!" صرّح بإعجابه بالطعام وكأن هذا سيربحه عطف رئيس الأرشيف ويضعه على جانبه الجيد.

دائماً ما كانت أونا أقل جرأة في تجريب نوع جديد من الطعام. همست في أذن أور. "ما هذه يا أور؟".

"إنه جنين، يا قطعة السكر! إنه طعام شهي، عليك تجربته".

غطت سحابة وجه أونا. ونظرت إلى الضيوف الآخرين، وهم آخذين

بمضغ المخلوقات البشرية الصغيرة، وأدركت أن هذه الأجنة لا يمكن لها أن تزرع بهذه الكميات إلا في حالة أنها نشأت وأجهضت بطرق اصطناعية. على المسرح، تعرض فتاة رائعة الجمال من القطاع الأول فستاناً ربيعياً مصنوعاً من حلمات خيطت بعضها ببعض. فجأة شعرت أونا بالغثيان. "عليّ أن أغتسل". قامت من على الطاولة ومشت سريعاً. "انتظري، أونا". صرخ أور. ثم عندما تحولت أبصار الجميع نحوه بمن فيهم رئيس الأرشيف، ابتسم بطريقته الوديعة – مؤكداً – إلى أن ما حصل لم يكن ذا أهمية.

بحثت أونا عن العلامة التي تدل على غرفة التطهير ثم قطعت القاعة نحوها بسرعة. لم يدر أور ما يفعل، هل عليه البقاء ومتابعة التواصل مع رئيس الأرشيف، أم عليه الذهاب لرؤية زوجته؟ في النهاية اعتذر ونهض مغادراً الطاولة، إيقاع خطواته يتسارع كلما ابتعد عنهم أكثر. في الحقيقة لدى غيابه عن أنظارهم ووصوله إلى مكان آمن في نهاية الممر المفضي إلى غرفة التطهير، انطلقت قدماه راكضةً. لم تتمكن أونا من انتظاره، حتى أنها لم تكن واثقة فيما إذا أرادته قريباً منها الآن. بدا امتداد الممر بإضاءته الخافتة إلى ما لا نهاية. كانت هنالك بارات، محلات وملاهي على الجهتين. لم تحمل بعض الأبواب أية إشارة ولم يكن واضحاً إلى أين تفضي. وصلت أونا أخيراً إلى غرفة التطهير وبمجرد دخولها وضعت رأسها في الحوض. انفتحت الشفرات في جمجمتها وانفجر منها طعام غير مهضوم مخلوط بالبول على شكل قذف ثخين. دخل أور وثبتها، واضعاً يداً على رقبتها ويده الأخرى على ذيلها القصير. "أخرجيهم كلهم". قال. عندما أُغلقت جمجمتها مرة أخرى، أدار أور المياه ليغسل أي بقايا للقيء من على رأسها. ثم قام بتنشيفها ببعض المناديل.

"اتركني وحدي". قالت ودفعته بعيداً.

"ما الأمر؟".

"أكره هذا المكان".

"يمكننا المغادرة إذا أردت، أعتقد أنّ المخرج - ".

"أكره هذا القطاع. أكرهه، أكرهه... أكرهه".

"هاي! اهدئي..."

"لم يكن علينا أن نأتي إلى هنا. كنا سعداء في وطننا. نحن فقط طمعنا بالراتب الذي عرضوه عليك ولم نتوقف لنفكر، ولو لجزء من الثانية، بهذه المخلوقات المسكينة. لا أستطيع تخيل ما فعلناه بهم. نأكل أطفالهم الذين لو يولدوا بعد. حقاً، أور؟".

أخذ الأمر من أور عدة ثوان، لينتبه أن أونا كانت تتحدث عن سبب انزعاجها.

"إنهم مجرد بشريون، يا قطعة السكر!".

"أعلم أنهم مجرد بشريين، لكنهم يمتلكون مشاعر، أليس كذلك؟".

"أظن".

"هذا خطأ أور. ونحن نُعاقب على ما فعلناه بهم. لهذا علاقتنا سيئة... أنا وأنت لم تعد العلاقة كما كانت سابقاً بيننا".

غالباً ما وجد أور إيمان أونا بـ "محدد الثبات الكوني[1] "، مقارنة بقوته على المعاقبة والمكافأة، نظرية عفى عليها الزمن ولكنها صحيحة. ثم

(1) (Cosmological Constant) مصطلح أضافه أينشتاين في حساب المعادلات النسبية العامة، التي تصف الكون في حالته الثابتة أي عندما لا يتوسع (المترجم)

Telegram: @Arab_Books2

أزعجته بما لا يعقل. مع هذا، كان مصراً على استرضائها.

"يا قطعة السكر..." حاول أور أن يضمها ولكنها دفعته عنها بقوة أكبر هذه المرة.

"توقف عن مناداتي بهذا... إنها بالفعل كلمة سخيفة!".

تألم أور. "ولكن السكر هو أهم وقود لكل الكائنات الحية التي نعرف _ "

"لا أشتري هذا الكلام بقطعة خراء!" قاطعته أونا. حاول أور لمسها ولكنها ابتعدت عنه مجدداً.

"لا أتحمل أن تلمسني بعد الآن".

بدأ شعور بالخوف يتملك أور. فهو لم ير أونا متوترة إلى هذا الحد من قبل. فوقف من دون حراك حتى هدأ تنفسها. تشتت عقله بصورة رئيس الأرشيف. ما زال هنالك وقت ليعودا، ويعتذرا لخروجهما المفاجئ. يمكن لهما لوم معدة أونا الحساسة، واستكمال المحادثة التي - إذا لعبها بدقة - يمكن أن تؤدي إلى تلك الترقية. ولكن قالت أونا. "لن أعود إلى قاعة الجحيم، أور. مستحيل!" لم يتمكن أور من هضم واستيعاب فكرة اقترابه من هدفه، فقط ليمسح ويرمى بسبب شيء تافه مثل جنين! ولكن، حين نظر إلى أونا اعتصره شعور بالذنب، وسرى بجسده كالكهرباء، وأحس بالعار بسبب طموحه المكشوف. قال أخيراً. "لا بأس. لكن دعينا على الأقل نحتسي شراباً قبل ذهابنا. رأيت باراً في الممر عندما كنت أركض نحوك. بدا هادئاً". أونا لم ترد ولم تعطِ أية إشارة ولكن النظرة العدوانية في عينيها قد اختفت.

مشى عبر الممر ومشت هي متخلفة عنه ببضع خطوات. في منتصف الطريق باتجاه البار، ناداهما أحدهم.

"هيه... أنتما... نعم، أنتما. تعالا إلى هنا... تعالا".

انفتح باب. كان بإمكان أور أن يحلف على أن الباب كان موصداً من قبل.

"تعالا. لا تخافا. بالضبط. ادخلا".

دخل أور وأونا من الباب. كانت الغرفة عبارة عن بار صغير. حيث لا يتسع لأكثر من نصف دزينة من الأشخاص. المكان منارٌ بأضواء زرقاء خافتة، مما أوحى بليلة أضاءها القمر في جزء ريفي من القطاع 42. ينبعث الضوء الأزرق أيضاً من السطح المعتم للبار. خلف البار وقف، طويلاً، شبه عار، اصطناعي بشكل كبير...

"خنثى!" صرخ أور بصوت عال، وندم مباشرةً.

"هذا صحيح يا حبي. "كوسوزيب" هو الاسم والسقاية هي اللعبة. ما الخطب يا حلو؟ هل هذه الجميلة هي "زوجتك"؟ زوجتك... يا لها من كلمة محلية صعبة".

"قرأت عنك". قال أور بالصوت المنوم مغناطيسياً نفسه الذي تفوه به بكلمة "خنثى".

"أووه. أتمنى أنها كانت فضيحة على مستوى مناسب".

"لا أقصد عنك أنت بالضبط. بل عن نوعك".

"نوعي! تقصد السقاة؟ لا بد أنك واحد من رجال الأعمال المسافرين دوماً والفطنين، وتقرأ كل تلك الجرائد المتبجحة".

"أنت من القطاع التاسع. المكان الوحيد الذي أتاحت شروطه بسيطرة الخنوثة المتطورة لدرجة عالية".

"أتاحت! الخنوثة جعلت العالم يتدحرج على لسانه. لا أحد "يتيح" بحدوث أي شيء في هذا العالم. يا حلو. الخراء يحدث في هذا العالم. لأنه يمكن أن يحدث فقط".

"أو... لأن المنظّم يريد ذلك". تدخلت أونا.

"أوه. أنتِ بديعة جداً". قال "كوسوزيب" مربةً على رأسها والتفت نحو أور. "أيمكنني الاحتفاظ بها؟".

ما زال أور منوّماَ.

"هل من خطب، يا حلو؟" استعلم كوسوزيب.

"آسف، الفكرة أني لم أقابل أحداً من نوعك من قبل".

"نوعك، نوعك... نوعك" صرخ المخنث. "أنت لست لطيفاً جداً، سيدي المحترم بضربك على وتر "نوعي!".

"أعد ما قلته".

"آه، طبعاً". وبهذا قام المخنث بفرك مجسّاته حتى تصلبت، ثم أدخلها في فوهة تموضعت تحت حلمته اليسرى.

"أووه، يا للعنة، إن هذا رائع!".

قهقهت أونا. "أور هل هو...؟".

"نعم يا عزيزتي". رد أور بوداعة

"هل ستأتيه رعشة الجم...."

"ليس بعد، سيدتي". قاطعها المخنث. تأوه وتلوى من اللذة، وتحدث مخاطباً المجسة الوالجة به. "هذا هو المكان يا كاوبوي الفضاء. اركبه. أجل، أجل، هنا. بالضبط، هذه هي النقطة... أجل هنا بالضبط... هناك... لا... قليلاً إلى اليسار."

واحدة من ثلاثة ناتئات من سرة بطن المخنث. وهي المجسة، تمايلت إلى اليسار وأخذت تسحق فوهة الحلمة الفرعية بقوة أكبر.

"اركبه... أجل، اركبيه يا أوزة الحب الكبيرة".

صاح وصرخ، وأوقع المخنث بيديه والمجستين بعضاً من الكؤوس المرتبة بأناقة على الرف الزجاجي خلفه، بينما ارتجف جسده كسفينة فضائية اصطدمت بـأفق الحدث[1] .

وضعت أونا يدها على فمها في محاولة منها لكبح ضحكتها، لكن ذلك لم ينفع فالضحكات تسربت رغماً عنها، كان أور يشعر بعدم الارتياح واقترح. "علينا المغادرة".

أمسك المخنث برسغ أور الأيمن وأخذ يضغط عليها.

"لا. لا. لا، أنا على وشك الانتهاء. انتظرا، انتظرا. فقط دعوني أنظر إليكما." تأوه عالياً من اللذة. "هذه هي، أجل! لقد انتهى كل شيء. شكرا، شكراً جزيلاً. إنها أفضل لذة جنسية حصلت عليها طيلة هذا اليوم". ومن دون أن يفلت رسغ أور، صافح المخنث يد أونا ماسحاً حاجبه بمنديل في الوقت ذاته مستخدماً واحدة من مجساته.

(1) في نظرية النسبية العامة يستخدم مصطلح event horizon أو أفق الحدث باعتباره حدود نظرية حول ثقب أسود لا يمكن لأي ضوء أو إشعاع آخر أن يلفت منه.

"أنا كوسوزيب، بالمناسبة". قال المخنث، ناسياً أنه ذكر لهما هذا سابقاً. "أفضل ساقي في هذا الجزء من درب التبانة".

"يا له من اسم غريب". قالت أونا.

"يسعدني أنك انتبهت، يا حبي. أنا أخترته لنفسي، كنوع من المكافأة. لم أحب اسمي القديم، ففكرت لماذا لا أقلب اسمي رأساً على عقب، وليكن مدهشاً. عندما تراودك الشكوك، اختر أن تكون مدهشاً ونادراً. هذا ما أقوله دائماً. صراحة، لم أقل هذا أبداً ولكنه يبدو كشيء يمكنني أن أقوله".

"هل يعني شيئاً؟ كوس... ماذا؟". سأله أور.

"كوسوزيب. إنه عربي".

أوضحت أونا. "إنها لغة السكان المحليين في السنتر بوينت".

"أعلم!" غضب أور، لاعتقاد أونا المسبق بجهله، ولالتماع ذاكرته بصورة الكتاب الذي أقلقه في غرفة التنسيق.

"إذا كان ولا بد لك أن تعرف". قال كوسوزيب بلا أبالية. "كس" حسناً... ما من داع لتجنب الخوض في الأمر مباشرة، تعني "الفرج". و "زب" تعني "العضو الذكري". اربطا الكلمتين مع بعضهما وستفهمانني! رائع أليس كذلك؟ وأنتما... ما اسمكما؟"

"أور..." قال أور. "وهذه زوجتي - "

"أونا" قاطعته أونا بجوابها.

"أور وأونا... أنا مدينٌ لكما. لا أعلم ما هي قصتكما لكن شيئاً فيكما جعل مجساتي تتوخز. دعوني أسكب لكما شراباً، على حسابي. كوسزب دائماً تكافئ الأشخاص الذين يكافئونها".

"يكافئون(ها)!". قال أور بنبرة لم يكن في نيته أن تبدو مشككة.

"فقط في عطلة الأسبوع، من الأسهل الحصول على الجنس بهذا الشكل". قالت كوسزب متجهمة.

"لا تقولا لي أنكما كنتما تتذوقان البول العفن الذي يقدمونه فوق؟ مدّت كوسزب يدها إلى تحت البار وأخرجت زجاجة نبيذ واضعةً إياها أمام الزوجين.

"بعضها كان جيداً". اعترض أور

"ليكن!" زورته كوسزب بعيونها. "هل حقاً هذا الغبي هو زوجك؟" سألت أونا.

لم يبد على أونا سوى الحيرة والذهول.

" لا يحق لرجل لا يفقه شيئاً عن النبيذ الجيد، في كل سنوات حياته، أن يمتّع امرأة... حتى أنا، المتسكع بين العالمين، اعلمي هذا".

"ماذا؟" قال أور.

"سعيدة لأنك لم تطلب مني أن "آتي مرة أخرى". قالت كوسزب وغمزت أونا التي تابعت موجة ضحكها مجدداً.

"زوجتك تعرف ما الذي أتحدث عنه، أرى ذلك في عينيها بالرغم من محاولتها إخفاءه".

لزمت أونا الصمت، وتوجهت عيونها إلى أور الذي لم يقابل نظرتها.

انبثق لسان كوسزب من فمها بسرعة قصوى. وانحشر بعمق في الفلينة وبسحبة حادة ودقيقة فُتحت الزجاجة. عبقت الغرفة برائحة مذهلة.

"اممم... استنشقا، اشتما الرائحة يا جميليّ! استنشقا" بعيون مغلقة، بدأت فتحتا أنف كوسزب بالانفتاح والاهتزاز، محاولة بمشقة التقاط آخر جزيءٍ من البخار المنبعث.

"الآن، اشربا" أمرتهما كوسزيب وصبت لهما كأسين كبيرين.

أطاع كل من أور وأونا الأمر. تراقصت براعم الذوق لديهما على وقع موسيقى النبيذ، توردت خدودهما دماً، والسعادة ملأت رأسيهما، وطفت أطرافهما على محيط من ريش لا مرئي. هذا كان أفضل نبيذ شرباه في حياتهما.

"مم صنع هذا النبيذ؟". سأل أور

"سرّ!" همست كوسزب. "ولكن انتظر لبعض الوقت، ربما ستكتشف".

"عليّ التوقف، إنه يجعلني...." شعر أور بعدم الثبات. "أونا، نحن يجب ألا... لدينا طريق... طويل... طويل إلى المنزل".

وضعت كوسزيب سطح يدها على جبينها وقالت محنية رأسها بطريقة مسرحية. "لا أأمل بتحية العالم بعيون صاحية". ثم نظرت مباشرة إلى أور. "فالرزانة هي فضيلة المتحذلق العفن".

"من... من قال هذا؟". سألها أور بجدية.

"أنا... يا ابن القحبة. اشرب، وهذا ينطبق عليك أيضاً يا نوبات الضحك".

وبضحكة متوترة أنهت أونا كأسها، وابتلع أور أيضاً ما بقي من نبيذه. عادت كوسزب وملأت كأسيهما. فتح أور فمه ليتكلم، ولكن الخنثة العظيمة أمرت. "اخرس".

تجمد الزوجان، لا جرأة لهما على كسر الصمت الجليدي.

"أشعر بوجود توتر." قالت كوسزب ونظراتها تتنقل بين أور وأنا. "في هذا الثنائي".

"يجب أن نرحل". قالها أور بنبرة جدّ خجولة أشبه بالتوسل. لكنه نظر إلى أونا ليجدها مسحورة. وكأنّ كوسزب خاطبت أعماق وجودها.

امتدت يد كوسزب إليهما وأدارتهما حتى أصبح الزوجان مقابل بعضهما. وسكبت لهما المزيد من النبيذ مستعملتةً مجساتها ووضعت الكأسين على شفاههما.

"اشربا".

قام الزوجان بتنفيذ ما طُلب منهما.

"الآن أغمضا عينيكما".

بعيون مغلقة شربا النبيذ الذي قدمته كوسزب. "حان الوقت لتناول قطعة نادرة من مصدر الشراب الالهي البري هذا نفسه". قالت كوسزب وهي تضع قطعتين من رقائق النقانق في فميهما.

اللحم مذاقه مثل... مثل... مثل، شيء غريب جداً. فكر أور... يا للفرادة. فكرت أونا... طعمه أشبه... بالوقوع في الحب من جديد.

***

هذا ما خبروه:

ضباب. ضباب كثيف، لم يسبق لأي منهما أن رأى الضباب من قبل، لم يكن له وجود في القطاع الثالث. اعتقدا أنهما ينظران إلى شاشة بيضاء ولكنها ببطء بدأت بالتشظي والكشف... عن ماذا؟

رمال. سخونة، بياض، رمال ناعمة.

كانا يركضان على الهواء، فوق هذا المحيط من الرمال بعدة ميليمترات. من وقت لآخر تلامس أقدامهما الحافية السطح الأملس لهذه الصحراء العظيمة.

نظر أور إلى أونا، ورأى أنثى بشرية صغيرة شديدة الجمال، عارية. نظرت أونا بدورها إلى زوجها لترى ذكراً بشرياً عارياً، ووسيماً. على الرغم من تحولهما إلى بشريين... في هذه الرؤية... في هذا الحلم... ما زالا أونا وأور. "لكن أجسام من هذه؟ ما اسمهما؟" تساءل كلاهما.

ما أدركاه لاحقاً، هو أنهما يركضان باتجاه مكان غير معروف على هذه الرقعة النائية. توجها شرقاً نحو أرض البشريين ذوي النكهة الصفراء، أبراجهم كانت بعمر قرن، مهجورة ومهدمة. ثم قطعا محيطاً، أقدامهما تمرّ بخفة فوق زبد الأمواج، نحو أرض البدناء، في الغالب هي أرض البشريين ذوي النكهة البيضاء، وهم الآن محتجزون في مراعي برية، حيث كانوا يتدربون من دون رحمة لخسارة ذلك الوزن غير المرغوب فيه. ثم قطعا محيطاً آخر، متعمقين جنوباً للوصول إلى اليابسة حيث ما زال يقطن عدد بسيط من البشريين ذوي النكهة السوداء، ممن على وشك الانقراض وذلك للذة لحمهم، ولأن قوانين الزراعة المستدامة لم تطبق إلا في وقت متأخر. بدلاً من الهرب والعودة إلى السنتر بوينت. قرر أونا وأور الانعطاف، وتوجها شمالاً إلى القارة التي تنتج أفضل أنواع النبيذ، المصنوع على الطريقة القديمة. الآن يركضان فوق عشب ندي وأزهار برية، حيث تطأ أقدامهما الأرض بقوة. مدّ أور يده نحو أونا كما مدت هي يدها نحوه، تلامست أصابعهما وتفرقت وتلامست مجدداً بينما تابعا ركضهما. تنفسهما أصبح ثقيلاً لكن التعب لم يحل على أطراهما. كان هذان المخلوقان نادرين.

مخلوقان على حافة الانقراض: بشريٌ جامح، أن تكون بشرياً في القطاع 42 يعني أنك في حالة مستمرة من الهرب.

وصلا إلى بيت ريفيّ، كان مهجوراً. اجتمع خلفه عدد من الخيول التي كانت تلوك العشب في مرعى امتد إلى ما بعد الأفق. الصمت الغريب الذي لفّ المكان، جعل الزوجين يشعران كما لو أنهما مكشوفان عاريان. دفعا باب البيت الريفي ليجداه مفتوحاً. بمجرد دخولهما، حاولا التقاط أنفاسهما. وفسحت أونا المجال لواحدة من ضحكاتها المميزة بالقهقهة عالياً. حضنها أور وقبّلها. بعدها بقليل تمددت أونا فوق أرضية البيت الريفي الخشبية المغطاة بالغبار. باعد أور ما بين ساقيها، واستعاد جمال جنسها، بغموض طيات الجسد الآسرة ورطوبة اللحم. وباقترابه لينظر ويتحسس عن قرب، سحرته رائحتها. كان لها رائحة النبيذ الذي قدمته لهما كوسزب نفسها.

ثم انتبه أور إلى أنّ عضوه الجنسي – مجسته البشرية -كان منتصباً من الإثارة، بشكل ما توقع ردة الفعل هذه لكنه تفاجأ بفمه ولسانه اللذين ينخزان بترّقب. قبّل أور قدميها، وساقيها، وفخذيها، قلبها على بطنها وقبّل اللحم الناعم على مؤخرتها. عاد وقلبها ليلتهم شفتها السفلى. بدأت تتأوه وزاد صوتها من حدة إثارته. أصبحت قبلاته محمومة أكثر وباعتدال أخذ باستعمال لسانه، شفتيه وحتى أسنانه، ليس بقصد الإيذاء، ببساطة ليلمح بشكل ما إلى إمكانية وجود الخطر.

"هكذا إذا يتزاوج البشريون". همس أور بطريقة إيروتيكية في أذن أونا. فاجئه التكلف الذي صبغ علاقتهما قبل الحب. بالنسبة له، كان جسد أونا أشبه بتضاريس إحدى القطاعات الغريبة، مليئاً بالعديد من التفاصيل المتنوعة والمثيرة للاهتمام: نسيج سرة البطن، نعومة البطن، والصدر متوجٌ بكتلة مركزة صلدة من اللحم، ممتعةٌ خصيصاً للسانه. أمسكت أونا بمجسته

وقربتها نحو جنسها، نظرت أونا نحوه وتذكرت صورة في دليل انفوبيت تظهر بشريين يمارسان الحب بالوضعية ذاتها. وأدركت أونا فجأة، بأن القراءة عن المستعمَرين أمرٌ مختلف كل الاختلاف عن أن تصبح واحداً منهم. عندما ولجها أور، توردت وجنتاها بالدماء.

أطعمتهما كوسزب المزيد من رقائق النقانق.

سحرا تماماً بحالة الحب الجنسية. كلاهما شعر باقتراب النهاية، شعرا أن دماغيهما شقا طريقهما نحو حدث انفجاري، شيء ما يقترب من النجم المستعر الأعظم الحسيّ.

قبل الرعشة الجنسية بثوان قليلة، شعرت أونا أنهما مراقبان. ولكن قبل أن تتاح لها فرصة للنظر خلف كتف أور، اخترقت قلبها حربة.

صيادون من القطاع الثالث كانوا يرقبونهما من الشباك، منتظرين أن يقتربا من الوصول إلى ذروة اللذة الجنسية ولكن لا أن يصلا. وقبل أن يتسلق أور هذه الذروة كانت الحربة مغروسة في ظهره. شوى السيخ صدره شاقاً طريقه نحو قلب أونا، لينغرس أخيراً بثبات في الألواح الخشبية تحتهما.

اقتحم الصيادون البيت الريفي بسرعة ملوحين بالسكاكين. اثنان منهما حملا الجثتين من الشعر على رأسيهما، بينما الباقون أقدموا على شق حنجرتيهما وإفراغ النبيذ النفيس في سلال خاصة جلبوها معهم. كان هذا نبيذ بشريين جامحين قبض عليهما وهما يمارسان الحب. جاعلين منه العقار النهائي لإثارة الشهوة الجنسية. بعد أن نشف دمهما، جاءت المرحلة الأخيرة، وهي تقطيع الجثتين، وتجميع اللحم لصنع النقانق.

***

فتح أور عينيه أولاً، كان بإمكانه رؤية عدد من المجسات النحيفة التي انبثقت من حلمتيه، كانت المجسات منزلقة، وملتوية مع ومخترقة مجسات أونا الممتدة التي انتهت أطرافها بمقابس شوكية على شكل أكواب. فتحت أونا عينيها، ولأول مرة منذ أشهر تمكن أور من رؤية رغبة حقيقية فيهما. استمرا بممارسة الحب لساعات بينما كانت كوسزب تمدهما بالنبيذ واللحم المقطوف من جثث أحبة جامحين.

لدى استيقاظهما ثاني يوم، غير قادرين على تذكر متى وكيف حل عليهما سلطان النوم، وجد الزوجان نفسيهما مجدداً في القاعة البيضاء الكبيرة. جميع الأكشاك أزيلت، وجسداهما المتشابكان، تركا بسلام في ما يبدو أنه صحراء مهجورة. خرج أور وأونا من المبنى الزجاجي، يداً بيد، يشعران بالراحة لنجاتهما من أغرب ليلة قضياها في القطاع 42.

في الأيام الهادئة، كانت أونا تفكر بالحبيبين اللذين سكنا جسديهما تلك الليلة، واسميهما المجهولين إلى حد الآن. شعرت بالأسف حيالهما، لكنها انتهت إلى ما هو مهم وذلك هو سعادتها، وإذا كان ثمن إعادة إحياء هذا هو لحم ودماء عشاق بشريين فليكن. صون الحب هو أصعب شيء يمكن القيام به. حتى البشريون في أيامهم، لا بدّ وأن أدركوا هذه الحقيقة.

جلال نعيم

ولد في بغداد عام 1968. نشر أول قصة له (خمسة مسافرين في خمسة قوارب ورقية) حين كان ما يزال في المدرسة الإعدادية، وفي العام 1994 تخرج من جامعة بغداد قسم الأدب الإسباني، بعد نشر قصته (اليوم الأخير للمطر!) والتي تتكون من 98 كلمة في مجلة الآداب في العام 1992، تم اعتقاله واحتجازه لمدة سبعة أشهر. وبعد تعرضه للعديد من الضغوطات، غادر البلاد باتجاه الأردن في شهر مايو من عام 1997، وعمل في عمّان ككاتب وصحفي، حتى انتقاله إلى ولاية أريزونا كلاجئ في العام 1999. يعيش حالياً مع زوجته وطفليه في ولاية لوس أنجلس، حيث يكتب ويعمل كسائق تاكسي وهو ما يسميه (أفضل عمل في العالم!) نشر جلال نعيم مجموعتين من القصص القصيرة (اليوم الأخير للمطر! 1998) و (بينما يحدث في بغداد، الآن! 2008) المجموعتان نشرتا في دار ألواح، مدريد. يقوم حالياً بكتابة رواية.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

سجن "هنا" و"الآن"!

The past is a foreign country، they do things differently"
"!there

L. P. Hartley

رفع الأستاذ فرحان وجهه، موجهاً نظرة صارمة لكل من في الصف، قبل أن يهمس بصوت عميق ومرتعش. "يا أولاد"

كان من حقه أن يخاطبهم بالـ "أولاد" رغم تجاوز معظمهم الستة عشر عاماً، فقد كان عجوزاً بما يكفي ليبدو وكأنه نوح بالنسبة لهم.

"ماذا نسمّي هذا؟"

ضغط زرّ الريموت كونترول بإبهامه الأيمن، ليتحول فضاء الصف إلى غابة من الزمن القديم، ينساب الماء بين سواقيها وعصافيرها تغرد مما أذهل الوجوه اليانعة. ثمّ، ظهر أسدٌ من بعيد، وأخذ يكبر ويكبر إلى أن احتل مساحة جدار كامل.

"هذا أسد" ردوا بصوت واحد وقوي مدركين أنه ما زال ينتظر الإجابة.

Telegram: @Arab_Books2

"وماذا نسمّي هذا؟" ضغط ثانية فظهرت صورة أسد آخر يثب بكلّ قواه مخترقاً حلقة من نار تلتهب في سيرك يضجّ بالمشاهدين.

"أسد... يا أستاذ" تأوهوا مدركين إلى أين يقودهم هذا.

حكّ المدرّس باطن كفّه بإبهامه وكأنه يحاول ثقبها: "ألا ترون؟ هذه واحدة من معضلاتنا. الأسد هو أسد، والشارع شارع". ثم رسم بأصابعه إشارات اقتباسيه في الهواء، كان من الواضح أن الصف لم يفهمها. فواصل بيأس "وكذلك العالم، ندعوه العالم سواء كان عالمنا هذا أو العالم كما لم نعد نعرفه، والذي كان قبل عام 2021... وكأن لا شيء تغيّر."

صمت ليطالع علامة استفهام وحيرة ارتقت الوجوه، ثم استطرد "هي واحدة من لعنات اللغة، لغتنا التي لا تعترف بالفرق ما بين أسد نشأ في غابة، وتمتّع بكل خواصها، وبين أسد آخر، نشأ سجيناً في سيرك وقضى معظم حياته فيه كبهلوان".

أطرق وكأنه شعر فجأة بعين تراقبه من ثقب لا مرئي ثم واصل. "وأخشى أننا قد أصبحنا كذاك الأسد، تحيط بنا أسلاك لا يمكن رؤيتها، في عالم بتنا نعجز عن معرفته".

سكت للحظة فواجهته أعين الطلاب مستفهمة:

"نقول العالم، مُعرّفاً ب ألـ دون أن ندرك، حقيقة، أيّ عالم كان!"

في تلك اللحظة أطفئت شاشة الهولوغرام من حوله. فجفلَ، تلفّت كالضائع مدركاً فجأة بأن الدرس انتهى. وخلال عدة ثواني أضيئت الشاشة مجدداً لتُعلن انطلاقة الاحتفال. فأغلق المدرّس بوّابات خوفه، ثمّ أحكم إغلاق رتاجات ذاكرته، وأجبر ابتسامة على وجهه بينما خرج الطلاب.

"عيد خلاص سعيد لكم ولأحبتكم."

وكانت تلك هي اللحظة التي انتظرها سامر طويلاً. فوثب مُرخياً عجلات حذاءه لتقوده الى الخارج حتى قبل أن يضع حقيبته الحمراء على ظهره. عندها راقبته هيلين بنظرات حائرة قبل أن تقرّر جمع أشيائها والانزلاق وراءه.

"إلى أين يذهب ابن القحبة هذا؟"

كانت هيلين أكثر من يعرف كرهه لـ "احتفالات غسل الروح هذه" كما كان يسميهم دائماً. انزلقت بإطارات حذائها لتنزل جسور الطوابق الثلاثة وتنعطف يميناً لتجد نفسها في الخارج وتلمحه منسلّاً بين الجموع الهادرة على عجلاتها كنهر يعرف الطريق الى مصبّه.

"سامر... سامر"

نادته بكلّ طاقات حنجرتها فلم تحن منه التفاتة وواصل انطلاقه.

"سامر... سامر"

نادته بكلّ قواها للاتصال عن بعد وعبر الأعماق ولكنه لم يُجب، مما ضاعف إحساسها بالندم على مناداته أو مجرّد محاولة التقرّب منه من جديد. فها هي، وللمرّة الألف، تتراجع عن مقاطعتها لهذا الفتى الوسيم، جارها الأثير الذي ملأ رأسها الصغير بذكريات لذيذة وملتهبة، بسمرته الشفّافة، وشعره المنسدل بخصلة ذيل حصان، ترشق مؤخرة رقبته، ولكنه أيضاً أجهدها بحيرته، وبحثه في التاريخ واللغات المنقرضة، خاصّة بعد أن أصاب مسّ غريب والدته، فأصيبت بوباء تقشّر الجلد، حتى توفيت، وجرى إذابتها قبل عامين أو يزيد. ومن يومها ازدادت تصرّفاته غرابة فمرّة يظهر لها وقد

تلبّس روح "جلجامش" أو "جدّي" كما يسمّيه، وأخرى على هيئة الحسين، كما ظهر في إحدى المرات بهيئة نبوخذ نصّر، موسى، وأسماء غريبة ما عاد أحد يعرفها غيره، فقد صار هوسه الأكبر بنبش تاريخ المدينة المنسي، فعاد للتاريخ المنقرض المكتوب مستعيناً بمكتبة والده الإلكترونية، فقد تلاشت الكتب بكلّ أشكالها منذ عقود، وانتشرت أكشاك "بوب شوب" التي تبيع التاريخ والأفلام والكتب بحبّات صغيرة، تسري في الدم، وتخاطب الحواس، فتصبح جزءاً من تكوينك، ولا تنقلك الى عوالمها، وإنما تنبتها فيك، لتعيش فيها حال ابتلاعك لها.

استعانت هيلين بمتانة جسدها فراحت تلطم الزاحفين أمامها لتزيحهم عن دربها حتى تقدّمت سامر بخطوتين واستدارت نحوه. ثم فاجأته بأن قطعت عليه الطريق بذراعين مفتوحتين.

فوجئ سامر، وكاد أن يتهاوى عليها لولا إنها أسندت رأسه على صدرها برفق قبل أن يعرف بأنها قد اصطادت أذنه اليسرى:

"وين رايح؟" همست في أذنه.

"ما أدري"

"صار لي نصّ ساعة أركض وراك، وأنت-كالعادة-لابسني، ومن اسألك وين رايح... ما تجاوبني."

"هالة" (هكذا يحلو له ان يناديها) "اليوم مو يومك".

ضرب كعب قدمه اليسرى، وبدأ بالتحرك ثانية، ولكن هيلين ما زالت ممسكةً به. في النهاية التفت ناحيتها بينما استمرا في الانزلاق بتواز مواجهين بعضهما البعض. "حسناً، لكن ليس هنا" قال وهو ينظر إلى كروم

التمر التي عرشت على الأبنية في جانبي الطريق مثل الستائر، حيث زرع في كل منها كاميرات الموالفة الحيوية. أخذ سامر بيد هيلين وقادها خارج النجف برودواي، باتجاه الشوارع الجانبية وصولاً إلى محطة المكرر، حيث لا وجود لأشجار هناك، قد تعيق حديثهم.

"أعرف! اليوم يوم عالمك السفلي. بس ما راح تروح" قالت هيلين عندما أصبح جاهزاً للكلام.

"مليون مرة قلت لك مو العالم السفلي!" يخلّص سامر رأسه من قبضتها. "خذي واحدة وسأخبرك" حمل حبة زرقاء صغيرة في يده اليسرى.

حدقت فيها. "بينتاثول". تأوهت. "ألا تثق بي؟"

"المدينة القديمة هي قدري هالة، تعالي معي بعدها سأثق بك"

سحبتها من يده وأخفتها راسمة ابتسامة على وجهها.

"بالمدينة القديمة تقصد المتحف البشري اذن!"

"لا تسميها هكذا هالة. المدينة القديمة، (النجف) الحقيقيّة، مو ال (أن جي أف) مالتكم!"

"لن تذهب. هذا المكان للمهووسين فقط، ثم إنه مكان غير صحي"

"ما عاد لي خيار"

"وأبوك؟ وأخوك؟ ألم تفكّر بما سيحدث لهما في حال ذهابك؟"

هزّ رأسه كمن تضايق وجهه من أزيز ذبابة:

"لا أدري." قال بأسف.

"أعطيني سبباً واحداً يدعوك للذهاب الى هناك؟"

وقف مستسلماً، أرخى ذراعيه، ونزع القميص عن كتفه. تطلّعت له باهتمام، فهالها التقشّر الذي غزا جلده، حتى كادت ان ترى نحافة عظامه.

"يا إلهي. الأعراض ذاتها!" قالت.

فرد عليها:

"نعم. وباء تقشّر الجلد الذي يتكتّم عليه الجميع."

سكت ليطالع السماء، وقد امتلأت بعروض ليزريّة، علامة بدء الاحتفال. نظر الى هيلين ثم واصل:

"نبشت فايلات والدي السرّية، ولم أعثر على إجابة محدّدة وهو من أوائل الأطباء الذين بحثوا، وحاولوا إيجاد حل لهذا المرض. يُقال بأنها علامة لاستيقاظ خلايانا النائمة، خلايانا الدفينة التي تطوّرت عبر ملايين السنين، وحاولوا دفنها بالعقاقير واللقاحات وأبر ما بعد الولادة وقبلها. يقولون بأنها لعنة التاريخ التي تطاردنا بوباء، ينطلق من الداخل، من جيناتنا، مما توارثناه ومما نحاول تجاوزه."

"سمعت بأنه أكتشف أوّل مرّة قبل ثلاثة أعوام، وقد بان في سباقات السباحة على ظهر دنكان سي، الذي ما أن نزع فانيلته حتى بانت أمام آلاف المتفرّجين. عندها اختفى الرجل وانتشر الخبر كفضيحة."

"صحيح. أين تراه الآن؟" تساءلت هيلين.

"مَن يدري" قال سامر. "لقد اختفى، وما عاد أحد يسمع عنه. إلّا إن الوباء ما زال فاعلاً، وها هو ذا ينبت في ظهري كلعنة"

"والحلّ؟" تساءلت هيلين.

"لا أدري. أو ربما لا أحد يدري"

"ذكّرني بأمك!" قالت متردّدة وقد أشارت لظهره بسبّابتها.

"لذلك لا حلّ لي سوى اللّحاق بها"

"ولكنها ذُوّبت أمام عينيّ حال وفاتها، قبل عامين، بعد إحراقها في المقبرة. كنتُ هناك، وكانت تلك أوّل جنازة أحضرها بحياتي. رأيت ذلك بعينيّ هاتين، كما رأيت أبيك يحتفظ بعصارة ما تبقى منها: حزمة رماد"

"تلك كانت امرأة أخرى، صادف موتها مع شدّة تقشّر وجه أمي، فلم يميّز بينهما أحد. بينما مارس أبي سلطته، ليعيد أمي الى عالمها الذي طالما حنّت للعيش فيه"

"وما زالت هناك؟"

"أظن. فلم تعُد هناك فاصلة ما بين الحياة والموت. الكلّ على قيد الوجود ولكن بلا حياة"

"يعني... هل يمكنك رؤيتها؟"

"لا أدري. فأبي لا يطلعني على شيء، وعليّ أن أكتشف ذلك بنفسي"

"وهل ستلحق بها؟"

"سأرى إن كنت سأبرأ من هذا" يشير الى خصره. "لن أحيا بجلد مُتشقّق كمسخ، لأموت بعد ذلك كلا أحد، أو لا شيء أصلاً"

"وهل أبوك على علم بذلك؟"

"لا" قال لها، ثم أشار الى حقيبة ظهره. "فالأفضل ألّا يعلم، علّ ذلك يخفّف عليه وعلى منصبه، في حال انكشاف أمري بخرق القواعد بالذهاب الى هناك"

"وماذا عن عامر؟"

"عامر؟" تساءل سامر باستغراب وكرّر:" أخي عامر؟ سيكون من أشد الفرحين بالخلاص مني لأن تمرّدي يشكّل قلقاً على منصبه."

"أخشى عليك!"

"ولا يهمّك. فقد هيأت كلّ شيء: بصمة أصبع أبي، بصمتي عينيه وبصمة صوته، فقد تمرّنت طويلاً لأقلّد صوته ولهجته" يبدأ بتقليده: "بنتي هيلين... هاتي هذا الولد العاق معكِ، وصلّي لأن يتعلم احترام الكبار"

يضحكان.

"ستنكشف! وستسبب له المتاعب، كما أنهم سيقاطعونك"

حذّرته هيلين للمرّة الأخيرة فأجابها:

"ربما أنا مجنون، لكن كلّ ما أريده هو أن ألقي نظرة أخيرة على أمي وأرى عالمها البعيد"

"لا تتركني سامر!"

أجابها بقبلة على جبهتها. صدّته برفق، وابتعدت عنه، وكأنها تُقاوم قوّة خارقة بجاذبيته. وقفا صامتين للحظات قبل أن توقظهما ضجّة الأجساد الهادرة نحو ساحة الاحتفالات. أشاحت وجهها عنه وأعطته ظهرها، فقد كرهت أن يتذكر آخر صورة لها بنظرة حائرة ودمعة على الخد. انطلقت زاحفة وسط الجموع المتُسربلة كنهر سرعان ما جرف حبيبها معه، وهو ماضٍ نحو محطّته الأخيرة!

انسحبت جانباً وأرخت ظهرها على حائط "بنك الدي أن أي" الزجاجي تطلّعت من حولها لترى الأشياء مشوشّة حولها كجمل طويلة ومُطعّجة لا

تصوغ لها معنى ما.

في تلك اللّحظة كانت "أن جي أف" قد تحوّلت الى مدينة ألعاب كبيرة، أضيء سقفها بألوان فرح خلّابة، صاخبة ولعينة، تُمتع الأنظار ولكنها لا تُسعد القلوب، أو هكذا رأتها، فقد استحالت السماء الى شاشة كبيرة وواطئة، تخترقها الغيوم كنشرة ضوئيّة ملّونة في عزّ النهار، تحرّكها (هيئة الأنواء الجوّية) كلعبة فديو عاديّة لترسم من خلالها وجهاً ضاحكاً مرّة، ونوافير، شلّالات ضوء، أو نكات ضاحكة مرسومة بلغة الاختزال التي صارت منذ عقود اللغة الوحيدة المكتوبة.

تذكّرت وجه المدرّس وأسد السيرك فبدا لها كلّ شيء كلعبة أطفال كبرت عليها فجأة مما أفقدها حماسها لتكرار تلك الساعات التي كانت تقضيها، في كل احتفال، على مُدرّجات الملعب الروماني، وذراعاها تتشابكان مع ثُلّة من أصحابها قبل أن تبدأ المباراة فيركّزون معاً، لتسيير لاعب هنا، وفريق هناك، ثم يأخذون بتحريكهم بقوّة التخاطر عن بعد.

تنبّهت على اهتزاز البناية وراءها، فابتعدت قليلاً لترى جدرانها تستدير، ببطء وثبات، رأت جدرانها تنفتح وتنطبق كبوّابات متعددة الطوابق. انغلقت شرفات، وانفتحت أخرى فتذكرت الإعلان:" سيصبح هنالك حظ لكلّ الساكنين، والعاملين في البنايات المتحولة (Transformer Buildings) لأن يُطلّوا على منظر يتجدّد دائماً. وداعاً أيتها الجدران الغبيّة الثابتة!"

"منظر هائل!" يوحي بأن قدرة الإنسان قد تجاوزت حدود الأشياء الثابتة، وصارت تحركها كدمية.

"بنايات ذكيّة فعلاً" همست في سرّها، ثم تذكّرت وجه سامر، ونظرته الغاضبة، وهما يتطلعان لذاك الإعلان قبل أسابيع:

"يريدون تغريبنا حتى عن أماكننا! هكذا سنحيا في كلّ مكان، ولا مكان لكي نحيا في اللا مكان، وكأننا لم نكن هنا، أو هناك ابداً، وربما لم نوجد أصلاً!"

"ولكنه انتصار آخر للإنسان يا سامر!"

"للإنسان كفرد، أم للسيستم كمؤسسة؟"

"لا أعرف ما الذي تعنيه بالسيستم؟"

"هذه اللعنة الغامضة التي تسيّر كل ما حولنا. السيستم هو البرنامج الذي يديرنا ويدير حياتنا، دون أن نراه أو نعرفه، أو حتى نحزر مَن يقفون وراءه"

انزلقت ثانية كالضائعة، قبل أن تقف لتجد نفسها بمواجهة (بوب) المنتصب في أحد أكشاك (بوب شوب) الشهيرة، والمنتشرة عند زاوية كلّ بناية وناصيّة كلّ شارع.

حدث ذلك أوّل مرة قبل عشرة أعوام أو يزيد. حين ألغيت الصيدليات لتحلّ محلّها أكشاك صغيرة، كمكائن الصرّاف الآلي المنقرضة، والتي انتفت الحاجة إليها بعد زوال العملات والتبادل النقدي، وكان (روبوكو) يديرها. وهو كائن ليزري بامتياز، ينطلق من أشعة شفّافة (هولوغرام) تُنبته في الهواء، على هيئة رجل نحيل، برأس كبيرة، وعينين نفّاذتين. عُدّ من الجنس الثالث من البشر لذكائه وذاكرته الخارقة وتعاطفه النبيل. حتى كاد الكثيرون ينسون اسمه الأول، وتشكله من تزاوج ما بين (الروبوت) و(الكومبيوتر). فدلّعوه باسم (روبو) قبل أن يتطوّر الى (روبرت)، لينتهي الجميع الى مناداته "بوب" تحبّباً:

"أشعر بالإعياء يا بوب!"

قالت هيلين.

"تحتاجين الى جرعة أخرى من الهاي جين؟"

"لا. مو وقت تصعيد جنسي الآن" قالت ذلك بطريقة أضحكت بوب ثم صَفَنت متردّدة:

"أريد هورموناً مضاداً للخوف. أحسّ وكأني أصحو على كابوس، لذا أريد العودة الى النوم"

"حبة لإيقاف تدفّق الأدرينالين من الكبد؟"

"مُضادّ للخوف؟ هو ما أحتاجه!"

"ربما تحتاجين شيئاً من الأوكسي توسن، أو بعضاً من هورمون الثقة" قال لها مقترحاً ثم حذّرها" تذكري بأن التقليل من فرز الأدرينالين خطر عليك، فقد يُزيدُ عندك الرغبة بالمغامرة!"

"بوب أرجوك" قالت هيلين. "أنا خائفة؟"

"خطر عليك يا عزيزتي" قال بوب. "لم لا تجرّبين (تشيلاكس) ليساعدك على الاسترخاء؟"

"قلت لك خائفة يا بوب"

"من ماذا؟"

"لا أدري. ربما من تدوير البنايات، ولألعاب الناريّة... شيء ما يقلقني... أعني يخيفني"

"لك هورمون الإقدام يا عزيزتي. شرط أن لا تفرطي باستخدامه أو

استنشاقه دفعة واحدة" قال ذلك ثم استطرد بعد أن غيّر نبرته:

"الحياة حلم، فحاذري الاستيقاظ منه يا هالة!" همس لها بوب بذلك وغمز بالتماعه من عينيه الثاقبتين. اختض الدم في عروقها وسمعت نداءً عميقاً بداخلها. "سامر!" هتفت أعماقها. كان سامر الشخص الوحيد الذي يدلّلها بهذا الاسم الذي لم يعد مُتداولاً.

فرّت هاربة وقد حطّ ثقل هائل على كتفيها. انكشفنا يا سامر. انكشفت على الأقل وأنت في طريقك لذلك العالم البعيد. ابتلت بزخّة داخليّة من العرق:

" إنهم يعرفون كل شيء!"

أيقنت بأن مجسّات التتبّع الداخليّة والمزروعة فيها باتت تركّز على كلّ خلجاتها. أحسّت بالعار من هيمنة هذا الشعور بالخوف الذي يفترسها. الى متى أبقى كذلك؟ ما الذي سيحدث لو التحقت به؟ لو لم أتركه وحيداً؟ لو اتخذت خطوة جريئة لم أعهد مثلها من قبل؟ وجدت نفسها حائرة بين خطوتين، بين عالمين، عالم تعرفه وعاشت طوال حياتها فيه وكأن لا عالم هناك غيره، ثم فجأة نبع فيها عالم آخر، عالم سامر الضائع وأمه، حيث كل شيء غامض وبعيد، يعود الى عقود بعيدة، مائة عام أو أكثر، عالم مندرس، متهاوي كحفرة منسيّة، ولكنه بدا لها الآن أكثر إغراءً، أكثر جاذبيّة من العالم الممل المحيط بها، حيث تتقادم الأشياء فيه لحظة ملامستها، أو التعامل معها، عالم يشبه لعبة الكترونيّة تشعر بلا انتماءك لها حال الخروج من دائرة سحرها.

أخرجت قنينة هرموناتها. نظرت لها مليّاً قبل أن تعدُل عن تناولها عصرتها بأصابعها وأعادتها الى جيب بنطالها. وراحت تخاطب سامر في

أعماقها حتى تلقّت صدى دعوته لها بالمجيء.

"تعالي" همس لها بحدسه، وراح يبثّ لها ذبذبات لا مرئيّة تدلّها على الطريق.

وما هي غير دقائق حتى وجدت نفسها في الممرّ الضيّق المظلم، أمام البوّابة، بخمسة وأربعين متراً تحت الأرض، وأمامه.

"شعرتُ باقترابك!"

بادرها سامر حالما رآها تمر في أوّل الممرّ، كشبح نذر نفسه لإنقاذه. رفعت له كيساً، وقرّبته من وجهها مُلوّحة:

"لم يهن عليّ تركك جائعاً و..." صمتت للحظة، ثم أكملت "و... وحيداً"

شبك ذراعيه حول خصرها، ولأوّل مرّة في حياته لم يقاوم رغبته في تقبيلها.

"ماذا تنتظر؟" سألته. فأجابها مشيراً الى الصندوق الإلكتروني المُلصق بالبوّابة:

"الضوء الأخضر الأخير!"

"وماذا بعد؟"

"بصمة الصوت، وكلمة السرّ"

قفزت من على الأرض بإصبعين على الأقل:

"وهل تعرفها؟"

"انتظري لحظة"

اكتمل سرب الأضواء الصغيرة الخضراء، فانتصب سامر واقفاً. نظّف بلعومه واستنشق نفساً عميقاً. قرّب رأسه من حاكية صغيرة وهتف مُقلّدا صوت والده:

"افتح يا سمسم!"

نطقها بلهجة حزرت بأنها لهجة العراقيين القدماء التي تعلّمها. عمّ صمت مطبق قبل أن يدور القفل في الداخل، ليسمعا بعده صرير البوّابة وهي تنفتح، لتزجّ بهما في عالم لم يكن بإمكان أي منهما تخيّله.

من اللحظة الأولى، وبين رمشة عين وأخرى، تجسّم لهما المعنى الحقيقي لما يدعى "الانتقال في الزمان".

كان كلّ شيء في مكانه وكأنهما مَن تركاه على تلك الحالة وليس أجدادهما، وكأن لا يد مسّته، ولا عاصفة عبثت به، على مدى الاثنتين والثمانين عاماً المنصرمة. فقد وجدا نفسيهما فجأة في مدينة النجف عام 2021، كما هي، ودون أن يغادرها أحد أبداً.

استغرقتهما لحظة اندهاش عميقة، لحظة دي جا فو الأعماق. لحظة استعادا فيها قدرة كامنة لإعادة الاتصال بالمكان وكأنه كان يعوم في جوف خلاياهما النائمة، الصامتة، التي لم تُكشف بعد.

"كلّ شيء بطعم الغسق" كادت أن تشهق لولا خشيتها من أن تجرح خدَ المكان، وهو يتداخل في أعماقها بشفافيّة هائلة.

عبّت هيلين نفساً عميقاً، ابتلعت فيه بلّورات من رائحة بخور صاخبة، طمأنت أعماقهما بسكينة مُفتقدة، وشجعتها على الإصغاء أكثر للغط مكتوم، تنطق به الوجوه دوناً عن الألسنة، لأناس تحنّطت أجسادهم، بينما

ظلّت أرواحهم تطوف مُعلنة حضورهم الأبدي بسلاسة وبساطة نادرة.

شعرت بأن كياناتهم كلّها تنطق بجملة واحدة: نحن هنا وما زالت لنا حياتنا!

"موت غريب كنصف حياة. وحياة غريبة كنصف موت"

هالهما هذا التداخل، هذا التناوب، بين موتٍ وحياة، وحياة لا يمكن لها أن تموت. ما الذي جرى لهم هنا يا تُرى؟

"أن تُدفن، كما أنت واقفاً؟ أن تتجمّد بكامل أعضاءك فجأة لتتحنّط في آخر لحظة عشتها، واقفاً في الهواء الطلق؟ أن تُدفن قبل أن تغمض عينيك، أو تغلق فمك وهو يفتر عن ابتسامة، أو ضحكة طويلة يظلّ جسدك يردّد صداها؟ أن يوثّق لحظتها، ويحتفظ بها كصورة التقطت مرّة، وظلّت مثلك حيّة الى الأبد؟" قالت في نفسها، قبل أن تصرخ:

"يا إلهي! ما هذا؟"

سألت هيلين مشيرة الى المبنى الفخم بأعمدته المتينة العالية وهي تنتصب رافعة قبّة هائلة بلون الذهب.

"إنه مرقد"

"مرقد؟"

"قبر تُشيّد حوله بناية من طراز معيّن، تمجيداً لذكرى أحد الأبطال، الأنبياء أو الأولياء الصالحين"

"وقبر مَن هذا؟"

"الإمام عليّ" قال سامر. "وهو النواة الذي بُنيت المدينة من حوله"

لم تسمع به من قبل، ولكنها لم تلحّ بالسؤال، وراحت تتطلّع الى قبّة الذهب، وقد بدت كخوذة عملاقة لفارس كبير، كبير، أكبر مما قد يُطيقه خيالها!

"انزعي حذاءك" قال سامر.

"ليش؟" تساءلت هيلين.

تطلّع لها بنظرة من يجدّ في البحث عن جواب يقنعها:

"نحن مجرّد ضيفين هنا وعلينا إتباع تقاليد المكان وأهله"

كظمت ابتسامة، وقد حزرت بأن سامر بدأ بتأدية دور العارف، دور المُرشد وهو يحاول إخفاء الدهشة من عينيه اللامعتين.

" أحسّ بأن روحاً غريبة تُصهل في المكان؟"

نظر إليها سامر ولم يرد، وإنما واصل تقليبه لكتب صفراء بأغلفة صلبة.

واصلت تطوافها حول الضريح، تأمّلت عجوزاً تتكور قرب زاوية منه وتبكي، رأت رجالاً بأعين دامعة، وأكفّ متضرّعة.

هل كانت معاناة البشر، أسلافنا، بهذه القسوة؟

ظلّت هيلين تدور في المرقد حتى حطّ الحزن كطائر عملاق، غريب وهائل، تسلّل إلى ذاتها، ذاتها الأولى، الدفينة، المنسيّة، المتروكة، المُستبعدة، ذاتها التي لم تشعر بوجودها يوماً، أو، ربّما، ذاتها التي لم توجد أبداً.

ثم أشغلت نفسها بتقليب الملابس التي ارتداها الواقفون، ودُهشت لغرابتها وتنوعها، حتى توقفت عند رجل تحنّطت شفتاه وهما تقبّلان شبكات الذهب التي تغلّف الضريح، بعينين باكيتين.

"هل كانوا يعبدون الذهب؟" قالت هيلين، فالتفت لها سامر دون أن يحير جواباً. فتركته ومضت متأملة أحد المصلّين وقد صلب قوامه واقفاً، عيناه تتضرّعان الى السقف، وقد فرد كفيه وكأنهما تحملان كتاباً يستحيل رؤيته. اصطفت الى جانبه. قلّدت وقفته، ثمّ اشرأبت بعنقها ونظرت في عينيه بعمق، فلم تجد في نفسها القدرة على نسخ تلك النظرة، ذاك الإحساس، لا بنفس القوّة، ولا بذات الخشوع.

"كم تغيّرنا؟" تساءل سامر، كمن يوجّه السؤال لنفسه.

"العالم يتغيّر فلا نملك غير محاولة اللحاق به. أما هذا العالم فيصعب عليّ تخيّله رغم إنه لم تمضِ على وجوده أكثر من ثمانين عاماً!"

"السؤال هو إن تغيّرنا للأحسن؟"

"لا أدري! ولكني بدأت أشعر بخيبة أمل... يبدو أن الإنسان كائن ميؤوس منه!" قال ذلك ثم أردف محاولاً الفرار من هواجسه: "أحببت المكان... ولكن!"

شرخٌ ما بدأ يُلوّح في داخله.

"ولكن ماذا؟"

"لا شيء. ارتدِ حذاءك ولنخرج"

في الشارع اكتشفا استحالة انزلاقهما باستخدام إطارات الأحذية التي قدموا بها. كان الأسفلت خشناً، ومليئاً بتكسّرات فظيعة. وكان زحام السيارات والباعة خانقاً.

"وما هذه؟" سألت هيلين.

التفت لها سامر وغصّ بضحكة مجلجلة:

"هذه سيّارات. وسيلة التنقّل في ذلك العصر!"

أيقنت هيلين بأن أعظم إنجاز حققه عالمهم هو بنفي الحاجة لهذه المركبات الحديديّة الضخمة: تكفينا أجسادنا بأحذية خفيفة نطوف بها! كم يبدون مغرورين بتحصّنهم وراء كتل الحديد هذه!

كذلك شعرت بشراسة البنايات والبيوت المرصوفة بالحجر الذي بدا أكثر قسوة من أن يحيا بشر خلف جدرانه. ثم هالها هذا التكتّم الشديد، هذا الانغلاق: أسوار عالية، شبابيك أصغر من عينيّ طفلة صينيّة، تحميها أسياخ حديديّة من الخارج.

شعرت بسعادة لأنها لم تُجبر على العيش هنا وآنذاك، فقد كانت ملامح كلّ شيء لا تبعث على الاطمئنان.

"ما الذي قلب هذا العالم وجعله كمتحف للشمع منتظراً مَن ينفخ فيه الروح أو مَن يتبرّع بهدمه؟"

"قبل أكثر من قرن تطورت التكنولوجيا الى الحد الذي كشفت فيه سرّ الإنسان والكائنات الأخرى، جرى تفكيك الجينات والدي أن أي (DNA) مما يسّر إعادة تصنيعها والتلاعب بها."

"ثم؟" تساءلت هيلين بينما التقط سامر أنفاسه:

"حتى تشكّلت لجنة غامضة وبالغة السرّية من أغنى أغنياء العالم وأكثر عقولها شهرة ونفاذاً، تركزت بأيديهم الثروة والسلطة ليوجهوا البحث العلمي والتكنولوجي بثلاثة اتجاهات: أن يصبحوا خالدين، وهو ما لم يتحقق لحدّ الآن، رغم أنّهم تمكنوا من إطالة أعمارهم ومضاعفتها، عبر الإبطاء بنمو خلاياهم، فصار متوسط أعمارهم مائة وخمسون عاماً بعدما كانت تصل الى

السبعين أو الخمسة والسبعين."

"آآآ هاا" استغربت هيلين: "كما هو الحال مع أبيك مثلاً؟"

"نعم، فقد كان أبي أحد هؤلاء. وعندما حصلت هذه الكارثة عام 2021" يشير لما حوله: "كان والدي فتى صغيراً"

"والاتجاه الثاني؟"

"التوصل لصناعة كائنات جديدة. هايبرد Hybrid. نصف إنسان والنصف الآخر كائن اليكتروني مُطوّر جينيّاً، مثل أخي من أبي عامر، الذي أصرّت أمه ذات الأصول الألمانيّة أن يُصبح منهم. وفيهم قياديو عالمنا الذين يندر أن نعرفهم أو نراهم. وقد أجري عليهم مسح كل ذاكرة الجينات وارتباطاتها السابقة، مسح كل ما هو ماضي، سواءً تاريخي أو جيني، لذا فهم لا صلة لهم بشيء غير المستقبل، والمُستقبل كما يفترضون به أن يكون"

لم تستوعب هيلين مجمل ما قاله سامر، إلا أنّها فضلت الصمت لمعرفة الاتجاه الثالث. فأنصتت له وهو يواصل:

"الاتجاه الثالث هو ما سمّي بدفن الماضي. حيث توصّل العلماء لاختراع فايروس يحوّل الناس والعالم القديم لما ترينه"

فتح ذراعيه كمن يقدّم عرضاً: "حيث بطريقة ما استخدموا الخلاف الحاصل ما بين الدول، المجتمعات، العشائر والطوائف والأقاليم، وسرّبوا لهم هذا الفايروس ليقضي كلّ منهم على الآخر، بينما تجمعوا في لاس فيغاس التي حوّلوها الى مدينة محميّة، مغطاة بكل أبعادها كي لا يتسرّب لها الهواء الملوّث، وانتقوا أقلّ من نصف مليون نسمة لتبدأ بهم البشريّة عالمها الجديد: عالم صغير واحد بأبعاد محدودة... وهو العالم الذي أتينا

منه."

"وهؤلاء؟"

"هؤلاء مساكين. كان عالمهم أكثر تعقيداً مما نتخيّل! فبدلاً من أن يحيون في عالم واحد، كانوا مُقسّمين الى عدة عوالم، دول، يطلقون عليها أوطان ويتصارعون عليها، تارة باختلاف الأيديولوجيات وأخرى باختلاف الأديان، ناهيك عن المجاميع الكبيرة التي كانت تهدّد المجاميع الصغيرة عادة وتمارس بحقها المجازر والتطهير والإفناء الكامل. حتى جاء اليوم الذي اخترعت فيه جماعات مجهولة هذا الفايروس فأحال 99% من البشر الى الحال الذي ترينه!"

"ولمَ كل ذلك؟" تساءلت هيلين منتفضة.

"أحال البعض ذلك الى الانفجار السكاني، فقد وصل عدد البشر حينها الى ثمانية مليارات نسمة، وشكّل ذلك عبئاً على موارد الأرض. وأرجع بعض آخر ذلك الى ما أسموه بنهاية التاريخ ثم طوّروه الى إنهاء التاريخ، بدعوى أن التاريخ البشري، اجتماعياً وسياسيّاً وعضويّاً بُني على خطأ. فبينما كان الإنسان يتكيّف ليواصل العيش، كان كذلك يبني أسس وحشيّته في أعماقه، في جيناته، وفي مكوّناته الأولى، للحدّ الذي بات من الصعب الفصل بين إنسانيّته من جهة، ووحشيّته من الجهة أخرى. لذا كان لا بدّ من إعادة رسم حياته الجديدة بنسف تاريخه الآخر الذي واصل كتابته عمليّاً عبر مئات الملايين من السنين."

"نظريّات مفزعة!"

"وفيهم مَن قال أيضاً بصراع الحضارات، وأن البشريّة، في تطوّرها، شكّلت عدّة حضارات متصارعة ببربريّة هائلة، وكل حضارة تنسف ما قبلها او تُبنى

على أنقاضها، لذا فضّلوا بالبدء من جديد، بحضارة واحدة، هضمت بداخلها الحضارات كلها، لأنهم تقصّدوا جمع مصادرها من مختلف الأعراق"

بدت هيلين ساهمة، غير مُصدّقة، فقد كان يصعب عليها أن تستوعب كل ذلك بلحظة واحدة، وبهذه الطريقة البدائيّة بالشرح حيث لا صورة، ولا هولوغرام ولا تجسيد حقيقي، أو افتراضي على الأقل، لما حدث.

"أعرف بأن من الصعب تخيّل ذلك" استطرد سامر. "هذا ما لا تجدينه بالتاريخ المرئي، الذي لم يعُد لنا غيره، ووجدت شيئاً منه بالتاريخ المكتوب بعد محاولات طويلة لإعادة تعلّمي للغة الإنجليزيّة التي كُتب بها."

سارا صامتَين حتى توقف سامر عند جمع من رجال، تجلببوا بدشاديش بيضاء، ويمصّون أركَيلات في الخارج. مضى نحوهم راكضاً. قلّب عينيه متفحصّاً كلاً منهم الواحد بعد الآخر. كان أحدهم ينفث الدخّان من منخريه، وقد وضع أنبوبة الأركَيلة غير بعيد عن فمه.

"واووو" هتف سامر. بينما توغلت هيلين في داخل المقهى. هالها منظر التلفزيون المعلّق بشاشته الكبيرة، ولاحظت أن البعض يتحدثون باندماج لأجهزة صغيرة احتفظوا بها قرب آذانهم.

"هذا تلفزيون" هتفت باكتشاف." وهذه تلفونات وتلك كومبيوترات... صح؟" التفتت لسامر.

"طبعاً صح! فقد سمّي ذاك الزمن بعصر الاتصالات. وكان البعض يسمّيه ثورة الوايرلس، وهي الثورة التي سبقت ثورة تكنولوجيا البشر، أو تكنولوجيا الأحياء، ثورة البيولوجيا التي نحياها وحوّلتنا الى كائنات وايرلس!"

تركته يهذي وقد أثارتها هيئة رجل بفم مفتوح بلا أسنان، ينفث دخّاناً

باستمتاع هائل. التقطت علبة السجائر من بين أصابعه وأخرجت منها واحدة.

"وهذه، ماذا يسمّونها؟"

"سيجارة" ردّ سامر.

"وكيف تشتغل؟"

عثر سامر على قدّاحة وسارع بإشعالها. نفخت في البدء فلم تجد مفعولاً فسحبت نفساً عميقاً، تبعته بسعلة طويلة ومتصلة.

"يا إلهي! ما هذا؟"

ضحك سامر وردّ عليها: "هذه مُتعة لا تجدين مثلها في عالمكِ المُعقّم!"

زرقت السيجارة بين أصبعيها، ورمت ثقل جسدها على قدمها اليسرى، وردّت:

"تحكي ذلك وكأنك خبير، ولكني أقسم بأنك ما جرّبتها بحياتك!"

هزّ سامر رأسه موافقاً، وانتزعها من بين أصابعها، ليجرّب تدخينها بينما يواصلان مسيرهما، فأخذها الى اليمين مرّة، وتارة الى اليسار متتبعاً أثر خارطة رُسمت في ذهنه. كانت الأزقة، غير المُعبّدة، قذرة بما لا يُطاق، تقطعها سواقٍ صغيرة، تنطلق من مزاريب تصريف مياه الأمطار، وهي تتلوّى نازلة من سقوف الغرف الواطئة المبنيّة على جانبيّ الشوارع، بنوافذ صغيرة عالية، أو بلا نوافذ، وكأنها صُمّمت كقبر مُحكم الإغلاق، فلا من هم في الخارج يرون ما في داخلها، ولا من هم في الداخل يدفعهم الفضول لمعرفة ما هو خارجها.

انقبض صدر هيلين من هذا الهاجس، حتى عبرا زقاقاً ضيّقاً غير بعيد

عن واد كبير، أخبرها بأنه كان في يوم ما بحراً، وظلّ يُدعى بـ"بحر النجف" رغم جفافه. وفي مواجهة البحر، اللا وجود له، دفع باباً قديمة لبيت متهالك، لتنفتح عيناه باتساعهما ويجمد في مكانه.

فما أن تجاوزا ممر المدخل الصغير، حتى لوّحت أمه، وقد تجمّدت في وقفتها، وسط حوش مربّع، محاطٍ بالآس، وعلى جانبه الأيسر نافورة تعطّلت فجأة فظلّت نوافير مائها جامدة في الهواء، عند منتصف الطريق.

تصلّب سامر فجأة حتى شكّت هيلين بأنه سيتجمّد مثلها، ثم راح يدور حولها، صامتاً أولاً، ثمّ متمتماً بصلاة ما سمعت بمثلها من قبل. تمنّت هيلين لو لم تكن كائناً مرئيّاً، لو تفقد حضورها الفيزيقي للحظات لتحضر لحظة هذا التوحّد الهائل بين ولدٍ ما، هو الأقرب الى روحها، وأمه التي افتقدها طوال عامين أو أكثر. لذلك مثّلت انشغالها بما حولها لتمنحه فرصة البقاء معها، مع أمّه، لفترة أطول.

اقترب منها. شمّ شعرها المحلول. قبّل عنقها، قلّب ملابسها براحتيه، ثم انتصب واقفاً ليعانقها، ويقبّل بجنونٍ خدّيها.

راقبت هيلين المشهد، وتمنّت لو كان لها شأنٌ فيه، عنصرٌ أو دورٌ أو مكانة تؤهلها لتُصبح جزءاً منه. كان المشهد طازجاً على مشاعر أعوامها الستة عشر بما يسبق لها أن عاشته. هالها وجه سامر، انفتاح أساريره، فرحته، وعنفوان الحياة التي دبّت فيه. كذلك فوجئت بوجه الأم المتجمّد وقد علته كلّ ملامح الفرح، ومعانيه. أي سرّ تكشّف لها، وأي عالمٍ استعادت بعد العودة إليه؟ "أين منها تلك المرأة التي رأيت ملامح تتقشّر يوماً بعد آخر قبل عامين، قبل أن يجري تهريبها لهذا العالم البعيد؟"

"هالة!" صرخ سامر فرأته وقد فزّ من لوعة اشتياقه. وما أن أطلّت حتى

أمسك ذراعها وراح يستعرضها لأمه:

"ماما. هذي هالة التي أحببتها أنت كما أحببتها أنا. أتذكرين يوم كاشفتك بذلك؟ وقلت لك لنحتفظ بالسرّ بيننا وليكن سرّنا؟"

تورّدت وجنتا هيلين.

"أحبها وتحبني" قال لأمه. "وسأطلب يدها أمامك الآن. الآن. نعم. الآن."

ركع على ركبته وأطبق كفّيه متضرّعاً: "هالة: أتقبلين بي زوجاً؟"

غالبت هيلين ابتسامتها:

"قبلت بك حبيباً صامتاً... فلمَ لا أقبل بكَ زوجاً ناطقاً!"

ضحكا كما لم يفعلا منذ زمن. قبلت هيلين خدّ عمتها قبل أن يسحبها سامر الى حضنه. طوّق خصرها وطبع قبلة دافقة على شفتيها. سحبها بخطوة، خطوتان ليدخلها في أقرب غرفة نوم على يمينهما.

ها قد آنت اللحظة التي طالما تمنّتها مع سامر، ولكن أين؟ تطلّعت حولها وحاولت تصوّر نفسها عارية في هذه الغرفة التاريخيّة، ببصمات أناسٍ تعاشروا فيها قبل اثنين وثمانين عاماً على الأقل. تجاوزت غموض مشاعرها، وانقادت لذراعيّ سامر وهو يحضنها، وهو يقبلها، وهو ينضو عنها ثيابها، مُراقباً ليونة جسدها بين ذراعيه. عندها أيقنت بأنه ما زال باكراً، وهي لحظته الأولى التي يقف فيها عارياً مع فتاة في غرفة واحدة. حدست ذلك بخبرتها. رأت العرق يتصبّب من جبهته وزلفيه. فاحتوت وجهه بكفّيها وألصقته على صدرها وكأنها ترضعه من حلمتيها، حتى أيقظت رجولته فهاج جنونها. مدّدته على الفراش وراحت تعضّ صدره، عضوه، وفخذيه لتصعد ثانية حتى أذنيه. استفزت رجولته أكثر واستلقت تحته. ومع اختراقها

تصاعدت حمّى قبلاته التي نشرها على شفتيها وصدغها، بنعومة في البدء، ثم بقوّة ووحشيّة، حتى أوصل صراخها لأذنيّ أمه في الباحة، فهدّأ شيئاً من غلوائه قبل أن يتمدّد ليفسح الطريق إليها، عندها أطلقت هيلين جياد لهفتها عليه، وقد تعزّزت فيها الرغبة البعيدة بالحياة، الحياة كما هي، وكما شعرت بها كامنة في اللحظة، وليس كما تبدّت لها عبر ستة عشر عاماً في عالمها الذي رُسمَ بدقّة، وصيغَ بحرفيّة، وصُنعَ بمقاييس مُحدّدة يندُر الخروج عنها.

كان الأمر مختلفاً تماماً عندها حتى عندما كانت تستعمل حبوب الهاي جين لتحفيز الرغبة، فقد صار سامر هاي جينها، وصار هذا فراشها، وتلك الأم المحنّطة عمّتها.

أنّت هيلين وقد توصلّت لأقصى مديات اتحادها بالكون وبسامر والأشياء من حولها. وفي لحظة انطلقت صرختها، صرخة ولادتها، شعرت برحمها يتجدّد، بروحها تتجمّع، تتجمهر وتنطلق.

غطّا تحت اللحاف لاهثين. احتوى سامر ظهرها وترك لكفّه حريّة التجوال على صدرها وأرخى جفنيه. بينما صفنت هيلين لوهلة قبل أن تسأله:

"بماذا تفكّر؟"

"بكلّ شيء، ولا شيء"

"وما رأيك بعد كلّ ما رأيته؟"

أطلق آهة وحاول أن يستجمع أفكاره ليجيبها:

"أولاً إن عالمنا" وأشار الى فوق: "عالم زائف وغير حقيقي، وكلّ ما فيه مصنوع بدقّة متناهية."

"وثانياً؟"

"إن العالم الذي كان ليس بأفضل منه!"

لم يندّ عنها ردّة فعل، فواصل بعد لحظات:

"يبدو أن البؤس الحقيقي يكمن في الإنسان ذاته، وليس في العوالم التي يحييها أو التي عاش فيها."

"كما تقول الأغنية: أينما أطير، جحيم يلتقيني، ذاتي هي الجحيم!"

يضحك سامر بعمق:

"أغنية عظيمة، ما الذي ذكّرك بها؟"

"الجحيم الذي عيّشتني فيه!" تضحك هيلين بانطلاق، ثم تستدير ناحيته. تلامس بأصابعها خصره، ثمّ تضمّه إليها قبل أن تجفُل في لحظة:

"سامر"

"ماذا هناك؟"

"استدر" قلبته ونيّمته على بطنه:

"تشقّقات ظهرك!"

"ما بها؟"

"التأمت. طابت. أنظر. اختفت الشقوق كلّها أو كادت!"

تحسّس سامر جلد ظهره، غير مُصدّق. ثم انقلب على السرير ليجد هيلين تربض فوقه مرّة أخرى، وتنحني لتغيب معه، في قبلة طويلة لم يقطعها غير صوت حاد لرجل صرخ:

"ألله الله!"

التفتا ناحية الصوت معاً، كان أخيه غير الشقيق عامر يسدّ فتحة الباب بضخامة قامته.

"يعني ما يليق بيكم شهر العسل إلا تقضونه في مقبرة!"

قال ذلك دون أن يمنحهما فرصة لتغطية عرييهما. أزاحت هيلين جسدها عن سامر الذي نهض ليلتقط ملابسه بطفرة واحدة، بينما نهض سامر ودفع أخيه للخارج:

"أرسلوكَ إذن؟" قال سامر.

"وماذا تتوقع. أن يتركونك تنيك قحباتك في أكثر الأماكن سرّية"

"بعثوك ليختبروا ولاءك يا غبيّ!"

تلعثم عامر وكأنه احتاج وقتاً ليهضم أول شتيمة تأتيه من أخيه الأصغر.

"لا، لم يُرسلني أحد، أنا مَن تطوّع للمهمّة"

"تطوّعت لتثبت لهم بأنك أكثر ولاءً إذن!" سامر يبصق.

"إنما جئت لأثبت لك مدى فشلك، وفشل عالمك الميّت هذا!"

"ميّت؟" ردّ سامر. "ربّما هو أكثر حياة منّي ومنك، رغم مضيّ أكثر من ثمانية عقود على تجمّده." يهزّ سامر برأسه في محاولة لإقناع أخيه: "امنحه فرصة ثانية يا أخي، راجع فكرتك عنه. أرأيت المدينة؟ إنها النجف الحقيقيّة، بقبابها ومزاراتها، أسواقها وشوارعها. إنها شيء منّا، جزء فينا حتى وإن لم نُدركه"

"عالم استحق الموت. وسيجري هدمه في الأسبوع القادم. عندها

Telegram: @Arab_Books2

سننتهي منه نهائيّاً"

"ليش؟" هتفت هيلين وقد اقتحمت عليهما المكان بقوّة عاصفة: "ليش تريدون الخلاص منها؟"

"نحتاج هذه الأرض، هذي المساحة" ردّ عامر: "كنّا محتفظين بها لأغراض البحث فقط، وتوّجت البحوث بوصولكما الى هنا!"

"ولكن فيها العلاج الوحيد لتقشّر الجلد، الوباء الذي أصاب الآلاف وتكتّمتم عليه. أنظر" وقفت خلف سامر ورفعت القميص عن ظهره: "لقد برء جسمه من ذلك الوباء، بمجرّد تلاقيه مع عالم أسلافه، وحال زوال النوستالجيا التي كان يعاني منها!"

"أوه سامر، حبيب أبيه كان ضحيّة النوستالجيا!" قال عامر هازئاً ثم واصل: "طبعاً، فقد تمرّد على مفردات عصرنا، بفضل سلطة بابا التي استغلها ليحكم عليه بالبقاء أسير ماضٍ لم يعشه."

"ليس ماضٍ فقط" قال سامر: "صدّقني يا عامر. أنت لا تعرف ما هو ليس لديك!"

"اطمئن يا أخي" واصل عامر سخريته: "فأنا أعرف ما لديك من مشاعر مهزوزة وأفكار غائمة، من شكّ وتشكيك ولوعة الوصول الى حقيقة، أو اليقين الذي ما عدنا نبحث عنه لأنه بات موجوداً بأكثر قوّة مما مضى وبدرجة أكثر اكتمالاً"

"بالعكس يا عزيزي" ردّ سامر: "فقد حوّلتم الإنسان الى نحلة، تجدّ في عملها دون أن تتساءل إن كان له أي جدوى"

"أنتم ضحايا" ضحك عامر: "لذا لا يُشرّفنا بقاءكم!"

"هذا ما جئت من أجله إذن؟" قال سامر.

"وما غيره؟" ردّ عامر. ثمّ لوّح بريموت كونترول بحجم علبة ثقاب وقال بنبرة آسفة:

"سأنتهي منكما بضغطة زرّ واحدة!"

"عامر" صرخت هيلين: "لا تدع طموحك يخسف بنا. قد يمكنك إعادة برمجتي. ولكن ماذا ستفعل بسامر؟"

"لا حلّ له غير أن يلحق بأمه ويُحنّط مثلها"

"مَن يريد تحنيط ابني!" زمجر الأب فردّدت صدى صوته الجدران وقد دخل الى الباحة تسبقه عصاه.

تلعثم عامر وقد جفّ بلعومه.

"أهلاً بابا" استقبله سامر بعناق حميم، ثم ساعده على الجلوس على أريكة.

"دع عنك هذا الخراء" قال الأب مصوّباً عصاه نحو عامر. "قتل الأخ جريمة لن نكرّرها ثانية!"

"ولكن سامر لا ينتمي لعالمنا يا أبي" قال عامر. "وأنت مَن تسبّب في ذلك!"

نقّل سامر نظراته بينهما حائراً. حتى أن هيلين فكّرت بمحنته. فلا هو سعيد بالعالم الذي جاء منه، ولا هو متطابق أو متناغم مع العالم الذي كان يحنّ إليه. هكذا فقدَ حاضراً فرّ منه، ولم يعُد له مستقبلاً ينتظره، ولا حتى ماضٍ يمكنه، بعد اليوم، الحنين إليه!

"تلك خطيئتي ولا يجدر بكَ معاقبة أخيك عليها" قال الأب. "فما جرى خلال الثمانين عاماً الأخيرة يستحيل شرحه"

"لماذا يا أبي؟" تساءل سامر.

"كنتُ في مأزق" قال الأب "لستُ الوحيد، فقد وضعنا جميعاً في مأزق، ما بين عالم تجمّد ولم يعُد وجوده ممكناً، وآخر في طور الولادة وبشوط أريدَ لها أن تكون مُجحفة."

سحب نفساً عميقاً ثم واصل:

"كنت مُراهقاً صغيراً عندما وُجهت الدعوة لأبي بأن تعال مع أسرتك لحضور مؤتمر كبير في لاس فيغاس. كان والدي واحداً من العلماء الذين فرّوا من النجف والعراق كلّه للعيش في الولايات المتحدة. فلبّى الدعوة وما أن وصلنا هناك، حتى فوجئنا بتغطية المدينة بغلاف بلاستيكي يحميها من دخول الهواء، ثم فتحوا مداخل جديدة لتنفذ المدينة على بعضها الآخر وكأنها صُبّت في قالب واحد. ثمّ لا أحد يدري ما جرى. عشنا هناك اثنتي عشر عاماً كاملة، مُحاصرين وليس لنا اتصال بالعالم الآخر. كنّا حوالي نصف مليون نسمة من مختلف الجنسيات واللغات والأعراق. ظننّا، في البدء بأننا عُزلنا عن العالم وما عادت تصلنا أخباره، حتى اكتشفنا بأنه لم يعُد هنالك من عالم غير عالمنا الصغير ذاك، وأما الباقي فتعرفون ما جرى له!"

"ولمَ هذا التكتّم على العالم القديم؟" سأل سامر.

"خوف أن تتسلّل الأخطاء ذاتها أو تتسرّب للعالم الجديد. فقد كان يُعتقد حينها، بأن الإنسان يتعلّم إما بالمعلومات أو بالغريزة، ولأنهم أرادوا أن يُصيغوا لنا حياة بلا تاريخ، فقد بدأوا يتلاعبون بالجينات كي لا تظهر النزعات بالغريزة. ثمّ تكتّموا على المعلومات وحوّلوا اللغة الى تراكيب

رمزيّة عوضاً عن الحروف. عندها ضاع تراث الإنسانيّة السابق، وذهبت معه حسناته وسيئاته."

توقف الأب لاهثاً. أحرجه صمت المحيطين به فواصل: "فلم يعُد لنا من خيارٍ غير أن نواصل صنع عالمنا الجديد، وإنساننا الجديد، ولكن، خاصّة بعد أن تزوّجت بـكرستين وأنجبنا عامر حتى تبيّن لي وأن إنسان حضارتنا الجديدة متبلّد المشاعر، مصنوع وحتى جيناته جرى التلاعب بها. وأمام إصرار أمه، وعلاقاتها، وطموحها بإعادة مجد الإنسان على الطريقة الألمانيّة التقليديّة، فتركته يتربّى مع أبناء العلماء والأغنياء حتى تشبّع بطموحاتهم وصار قريباً من سلطاتهم. وكان ذلك جوهر الخلاف الذي دبّ بيننا لأعوام طويلة، وانتهى بطلاقنا قبل ستة وثلاثين عاماً. وبعدها بأربعة أعوام عثرت على ساهرة" نظر لتمثال أم سامر المتجمدة أمامه وواصل: "وكانت على عكسها تماماً، شاعريّة وشفّافة، ومن أصول مدينتي الأولى، النجف التي لم أكن مستوعباً مدى تجّذرها فيّ حتى زرتها أثناء إجراء البحوث الأنثروبولوجية عنها فنبعت فيّ كزهرة عطشى ارتوت بعد طول عطش. وهو ما دفعني للانتقال إلى هنا، ومن ثمّ ممارسة سلطاتي كي أجنّب سامر لقاحات التعديلات الجينيّة وغيرها من عناصر تشكل البشر الصناعي. لم يكن ذلك قراراً هيّناً طبعاً، وما زلت أدفع من دمي وعرقي وأعصابي ثمنه تبعاته."

سكَتَ الأب فتساءل سامر بعد أن غادر سهومه:

"والآن يا أبي؟"

فردّ عامر بحركة مباغته:

"الآن جاء دوري لأنجز المهمّة التي جئت من أجلها" وجّه نحو هيلين

كونتروله وضغط على بضعة أزرار. شهقت هيلين ووقفت، كراقصة باليه، على أطراف أصابعها. نظرت للأب ثم لعينيّ سامر كالمستنجدة. ثم توقف فيها نبض الأشياء. توقّف نبض الأحياء. لحق سامر وأمسكها من خصرها قبل أن تتهاوى. ضرب الأب بعصاه ذراع عامر. فلت الكونترول من يده للطرف الآخر من الباحة. وقف الجميع مذهولاً. طرح سامر هيلين على الأرض وثبّ ليقبض على الكونترول. لحقه عامر.

تعالى صراخ هيلين. رفست الأرض في نوبة صرع صاخبة. فرّ بؤبؤها الى أقصى زاويتين من عينيها، أرغت وسال لُعاب. قبض سامر على الكونترول دون أن يكفّ عن الالتفات اليها. علت وجهه نظرة حقد راحت تتصاعد، تنمو، تتشكّل كرغبة لا رادّ لها للثأر لحبيبته، زوجته، لأول امرأة عانقها بالصدق الذي أمتلكه. لأول حلمة رضع منها حنّيتها بعد حلمتي أمه المحنّطة جنبه، أمامه، فوقه وتحته وفي كل مكان فيه ومن حوله.

"آن لك أن تتذوّق مصيرها يا عامر" نفخ سامر بغضب.

انكمش عامر وعيناه لا تكفّان، عن النظر، لمفاتيح الريموت كونترول الموجه نحوه بيد سامر.

"لم آتي هنا لأصفّي ثأراً بين أبنائي وهم يعبثون بحياتهم" هدر الأب وقد انتصب واقفاً رغم أعوامه التي تجاوزت المائة. فجفل أبناؤه. وقد تحوّل صراعهما إلى قدر لا رادّ له.

"لقد أفنى حبيبتي يا أبي!" قال سامر.

"أعطني الكونترول" قال الأب. تردّد سامر، ثمّ توجّه صاغراً ليضعه بين أصابع أبيه.

كانت هالة ترتجف وكأن صقيعاً ما تسلّل الى دمها. دثّرها سامر بمحبته. عانق رأسها وأسنده على حجره. بينما ظلّ عامر يقلّب الاحتمالات في رأسه الحائر كالمصعوق.

"ما أراه الآن لا يختلف كثيراً عمّا عشته، وما قرأت عنه طوال حياتي" قال الأب. "صراع في صراع في صراع. ماضٍ مع حاضر مع مستقبل. أما الأسماء فمحض رموز تستبدل المواقع فيما بينها" هزّ رأسه آسفاً وعاد ليرخي جسده على الأريكة.

امتد الصمت بينهم دهراً. كان سامر ينتظر استيقاظ مَن كانت قبل ساعات حبيبته، بينما شعر عامر بالخسران رغم شعوره بأن أبواب العودة، الى عالمه، ما زالت مفتوحة. ولكن إذا ما عاد الآن فبماذا سيخبر رؤساءه؟

تململ رأس هيلين في حضن سامر. تطلّعت لها الوجوه. فتحت عينيها فبدتا فارغتين كبئر نشف ماؤه، هكذا، عينان مفرّغتان بلا ذاكرة ولا أسماء تؤجج فيهما معنى ما. ابتسمت ببلاهة ونظرت حولها.

"أين أنا؟" قالت. فلم يجب أحد.

"ما الذي أفعله هنا؟" تساءلت مرّة أخرى فدمعت عينيّ سامر.

"مَن أنتم؟" تاهت نظرات عامر، بينما هزّ الأب رأسه.

"قلت أخرجوني من هنا" صرخت. مسحت أنفها ثم دارت حول نفسها. فنهض الثلاثة واقفين.

"ما هذا العالم الغريب؟" سدّت أنفها. بينما اقتادها سامر الى الخارج.

"مِن هنا" قال الأب. "سأدلّكم على أقرب بوّابة!"

سار الجميع في الشوارع نصف المهدّمة. المسكونة بالغسق والمحنّطين.

مدينة مكتومة من حجر.

رأوا البّوابة مفتوحة على مصراعيها. ركض نحوها عامر أولاً وقبل أن يصل بلحظات هبّت ريح هوجاء كعاصفة، أغلقت البوّابة في وجهه. وقف مذهولاً، كمن لدغته أفعى لا مرئيّة. أدخل بياناته على شاشة إلى اليمين ولم يتلق غير بززززززز كبير، بززززززز صاخب. بززززززز يرفض فتح البوّابة. بززززززز يرفض عودته الى هناك، إلى عالم طالما فخر بدوره في إدارته. نظر الى أبيه لائماً ثم راح يطرق البوّابة كالمجنون. طرق بقوّة، بيأس، بموت، حتى نزفت أصابعه. وصوت هيلين المبرمج يدور في أذنيه كالصدى:

"أين أنا؟"

"ما هذا العالم البائس الغريب"

"أخرجوني من هنا"

"أخرجوني الآن"

"من هنا"

"هنا"

"هنااااااااااااااااااااااااااااااا الآن!"

Telegram: @Arab_Books2

مرتضى كزار

روائي، سينمائي، وفنان تشكيلي. ولد في الكويت عام 1982، حاصل على شهادة في الهندسة من جامعة بغداد، وهو أحد المشاركين في ورشة عمل ولاية أيوا للكتّاب. كتب وأخرج وأنتج عدداً من الأفلام التي عرضت في مهرجانات عالمية، حصل فيلمه للرسوم المتحركة "لغة" على جائزة الدوحة للأفلام. لمرتضى كزار ثلاث روايات وهي: مكنسة الجنة 2008، سيد أصغر أكبر 2013، وطائفتي الجميلة 2016. كما أنه يكتب بانتظام للصحف العربية.

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

مسجد الداي باي داي

عمر هذا الخل 99 سنة بالضبط، وإذا صحت حساباتي التي أجريتها على رزنامة المواعظ اليومية، فهذا العطر صُنع قبل أسبوع واحد من وقوع الرأس الكونكريتية الضخمة لصدام حسين على الإسفلت، وكانت حكمة ذلك اليوم في الرزنامة: حفيد الكنغر في جيبه وحفيد العطار في خشمه. عمّال مصنع الدبس كانوا يفرّون إلى بيوتهم وعلى دراجاتهم علب قصدير فارغة لن تفيدهم في شيء، وستباع بعد أيام لأحد المشاتل وتصبح سندانة خصيبة لتربية القرنفل، أما الدبس فقد تركوه يجري في المعصرة، الواقع أن البصرة كلها كانت تعتصر ويسيل منها دبس من الهيجان والتوتر، وفي قائمة أفضل عشرة أشياء تعتصر الآن كان رأس الرئيس تحت أرجل المواطنين يأتي أولاً، بينما يحل دبس المصنع في آخر القائمة، وبين الرقم 1 و 10 أنوف كبيرة تعصرها الأرجل الغاضبة.

باعني إياه واحد من موظفي البنك الوطني للمخاط، شاب بدين يتكلم وهو يدعك ياقته دائماً ويلوي رقبته، توثقت علاقتي به وأصبح وكيلي الشخصي، فلم أعد بحاجة لمراجعة نصف سنوية للبنك، يزورنا دورياً في المنزل ويأخذ مدخراتنا من المخاط في علب معزولة حرارياً، ولأن عملية حلب مناخيرنا دقيقة وصارمة حسب الشروط والضوابط القانونية فهذا

Telegram: @Arab_Books2

يعني أن سلمان داي باي يقضي ثلاث ساعات بيننا كل مرة، نعم فهذا هو اسمه، سلمان داي باي ... يقول أن جده الكبير كان طفلاً لا يسمع ولا يتكلم، يقضي كل الظهيرات الحارّة على ضفاف دجلة، ودجلة هذا نهر صغير، يرجح بعض رجال الدين ورواة الأساطير بأنه لم يكن موجوداً، وقد اخترعه الفسقة والفجار وشاربو عصير البطيخ، داي باي داي -إذا شئنا أن نستعمل الاسم الكامل- هو جد سلمان، اعتاد أن يمسك قداحتين في كلتي يديه، وفي جيوب دشداشته عشرات القداحات العاطلة، وأصابعه مثلومة ومحزّزة من القَدح في الهواء، بيني وبينكم جده صبي أهبل يتجاهله المارّة ثم صار مشهوراً جداً في ظرف أسابيع، حينما انتشر عنه مقطع قصير في الأنترنت وهو ينطق لأول مرة في حضرة جنديين أمريكيين يرافقهما مترجم عراقي.

لقد صار آل داي باي داي من أشهر تجار البلاد، ولديهم من ذريتهم مذيع مشهور يُجري حوارات لاذعة مع السياسيين، وطبيبة نسائية ومخرج أغنيات شبابية، وممثل قصير القامة ظهر في أحد أفلام بيتر سبايك، ضمن مشهد من خمس ثوان، لاصطدام جيشين عظيمين في القرن الثالث قبل الميلاد، وهناك في قلب البصرة مسجد الداي باي داي المشهور، عمره سبعة عقود تقريباً، ولا أظنه سيمحى أو يتغير اسمه على الأقل، مسجد الداي باي داي صنم ثقيل في ذاكرة كل المواطنين هنا، يمكن ملاحظته كخلفية تلفزيونية ملتصقة بظهر أي شخصية إعلامية تستضيفها قناة البي بي سي من هنا، صممته معمارية بريطانية من أصول عراقية على شكل مستطيل تبزغ منه نخلتان مائلتان على بعضهما بمثابة المئذنتين، بحيث أن صوت آذان الصلاة منهما يأتي مزدوجاً ويكمل بعضه، ومن الواضح بأن مصممة الداي باي داي الشريف توخت استعمال رموز الوحدة والتآلف والبقاء، وحالياً لم يعد يشير اسم عائلة سلمان إلى جده الصبي ذي القداحات مثلما يشير إلى المنارتين

المتآخيتين، وإذا حدثنا وهو يمخط أنوفنا عن حِرفيته العالية وبرجوازيته الأنيقة المرتبطة بدقته بالتمخط وتخزين سوائل الوجه فلا نقاطعه، ولا نجعله يستمتع بصوت الإنسان مسدود الأنف، ونعصيه دوماً ونهزأ بالجملة الدعائية التي يستعملها البنك الوطني للمخاط: (هل جربت أن تغني بأنفٍ مسدود؟ هل تدري كم سيسعدك ذلك وسيمطرك بالحظ والثروة؟!).

أحبَّ سلمان مديرته في البنك، سيدة في الخمسين، هي التي جعلت الناس ينتبهون إلى هزة رقبته المَرضية، وتلمسه لياخته، وزر قميصه الثاني، كلما استهل الكلام، لقد عيرته مرة بذلك وطردته من مكتبها، وقفتْ على عتبة الباب وانتظرت أن يفطن إليها الموظفون ويستعدون لسماعها، ومنذ ذلك اليوم تفاقمت حالة سلمان وصار يكرر ذلك دون قصد مرة وعمداً عشرات المرات، وأصبحت هذه سمة يشتهر بها، لم ترفضه المديرة فحسب بل سخرت منه وعيرته بكل شيء في وجهه ومظهره، وتعدت ذلك إلى تاريخ أسرته وبيعهم للعسل والخل ودقوس المرق المصنوع منزلياً، وتناست تاريخهم المجيد ومسجدهم العظيم .

هذا ما يسرّني به سلمان إذا مكثنا وحدنا في حديقتنا، فأنا لا أحب أن يستمع إليَّ أولادي وأنا أتمخط وأفضّل أن يصغي إلي الجيران بدلاً من أهلي، أريد أن يسمع جاري صوت أنفي، فلطالما أردت أن أقنعه بما لأصوات الأنوف من دلائل على الصحة وخصوبة الرجل. وحدث مرة أن تأفف سلمان من رؤوس الجيران وهي تظهر وتختفي على الحيطان، أنا نفسي تعجبت، وزاد عجبي لمّا حزم سلمان حقائبه المعدنية وخرج.

أخرجت اليوم علبة الخل التي اشتريتها منه، سافر آخر الأولاد عبر قطار الفرات وهو يحذرني من العودة إلى لعق علبة الخل الزجاجية تلك، حلفت له بأني لن أجرب ذلك مرة أخرى، حلفت له وفي نفسي بأني سألطع منها ملعقة رز كبيرة حال خروجه من المنزل، وهذا ما حصل ... وكم كان وداعه طويلاً ومملًا، كان يؤكد لي بأن عليّ تجريب قطار الفرات الجديد هذا، فهو سريع ويقذفه في خليج عمان بعد 14 دقيقة فقط، ويشعر راكبه فعلاً بأنه في حوض الفرات، وأن قرارات الحكومة في تحويل هذا الوادي الجاف إلى نفق كانت ذات جدوى حقاً، قال هذا وغادر وهو ينظر إلى سبابتي التي كانت تتحرك في الهواء، وتلعق الخل في أفكاري.

يجري رزم علب المخاط في أوعية من الألمنيوم، يسفرونه إلى الشمال حيث خليج البصرة، لازال مشروع قلب البلاد، وتحويل جنوبها شمالاً قيد الانشاء، سمعت أن العمال يستنزفون أكبر قدر من المخاط هناك وإن المشروع صار يستلزم وقتاً أكبر خارج الخطة، ما تحقق على الأرض هو قلب هذه الأرض، وبقي الشيء الصعب ... كيف يخطو الناس نزولاً وفي بالهم أنهم يصعدون، وكيف تلتفت يميناً وانت تلتفت شمالاً، أعني أن المتعطل هو بعض الاستعدادات النفسية ويجري الآن خلال ورش نتدرب فيها على عكس اتجاهاتنا، والتأقلم مع الوجهة الجديدة، بعد ذلك تأتي المرحلة البايلوجية، وهذا أيسر قليلاً، خذ معدتك وجهازك التناسلي إلى طبيب العائلة، ثم أجعله يدلك وينظف بمرهماته الخاصة، وستلاحظ كيف صار جسدك كله يستدير ويستجيب لبوصلة جديدة، هذا ما أنت موعود به حسب المنشورات، وإعلانات الشوارع والمراحيض العامة.

بعد ذلك، سأكون مرتاحاً وأكف عن الشكاية للناس، سيفهم الجميع بأني

عاشق الحكم القصيرة المكتوبة في الرزنامات، واحدٌ من سلسلة موظفين كانت مسؤوليتهم عبر عقود طويلة رسم اتجاهات القبلة في مسجد الداي باي داي، لأن اتجاهات القبلة مشمولة بخطة عكس الاتجاهات أيضاً، هل تأخرت في قول هذا؟، قد لا يبدو مظهري مثل أجير بسيط لدى عائلة الداي باي داي، لكني أقبض راتبي من الحكومة فهذا المسجد تابع لدائرة الأوقاف، ستصبح مهمتي شاقة لمدة أسبوع لأني سأعكف وحدي على قلب الأسهم المؤدية للقبلة بعد انقلاب السجادة الترابية الكبيرة التي أعيش عليها أنا، و 200 مليون مواطن عراقي. مقارنة بأسراب من الأسماك في أحواض مرمرية، ستعاني كثيراً وهي تقلب الدورة التنفسية في خياشيمها، فمهمتي مسلية قليلًا، لقد مارست مثلها في طفولتي ... كنت أراقب الحيطان التي تسور شوارع العاشقين وأنقب في جذوع الأشجار بحثاً عن أسهم المحبين، تلك المستقيمات المدببة التي يرسمونها في خلواتهم، أقطع رؤوسها وأعكسها، أما الأسماك والحمير المعتادة على بوصلة وهمية في أدمغتها فأدوارهم وأدوار أصحابهم أصعب بكثير.

هذه الليلة لن يأتي سلمان داي باي، ولن أثبت له استطاعتي على كرع قنينة خل معتق بأكملها، لن أعيره أن جده الكبير الصبي استمع إلى خطبة ج.دبليو بوش الأولى، وتلك الخطبة كانت سبباً في تسيمته داي باي داي:

.Day by day Iraqi people passing the new period …etc

لن أعيره بأن جده نطق أول ما نطق بعبارة داي باي داي على لسان الرئيس أمام مجندين يحبون الضحك على الصبيان السمان، فصار له اسم وصورة مشهورة من يومها، فكل هذا أصبح لازمة سخيفة مني تضايقه وتشل

لسانه، قررت أن استسلم لروح المتقاعد من قطع رؤوس الأسهم، وأمنحه دورة تدريبية مجانية في كيفية ربط حذائه في ظل البوصلة الجديدة.

Telegram: @Arab_Books2

ضياء الجبيلي

ولد في البصرة عام 1977 وما زال يعيش هناك. لم يتمكن من إكمال تعليمه بسبب الحرب والعوائق الاقتصادية خلال التسعينات. هو مؤلف لخمس روايات (لعنة ماركيز، 2007) والتي حازت على جائزة مجلة دبي، (وجه فنسنت القبيح، 2009)، (بوغيز العجيب 2011) و (تذكار الجنرال مود، 2014) و(أسد البصرة، 2016).

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

المتكلم

إلى رئاسة مجلس محافظة البصرة.

مكتب المحافظ العام.

م/ استشارة

استناداً إلى ما جاء في استعلام مقامكم الموقر بشأن إمكانية وجود حوادث تاريخية، أنكى وأكبر، أو على الأقل تضاهي الظواهر السلبية والحوادث الدامية التي وقعت خلال السنوات الأخيرة، وطلبتم مشورتنا، مشكورين، في إيجاد أمثلة تعادل أو تفوق الأحجام والمديات المأساوية التي وصلت إليها تلك الظواهر والكوارث التي حدثت وما زالت تحدث في مدينتنا العزيزة منذ حلول كارثة نضوب النفط والغاز، وهي كالآتي حسب التسلسل الذي أفدتمونا به ضمن كتابكم :

1. القتل الجماعي بتفجير أو نسف العمارات السكنية بمن فيها من قبل قوى الإرهاب.

Telegram: @Arab_Books2

2. المجاعة. وظاهرة أكل القطط والكلاب السائبة من قبل السكان الجياع.
3. ظاهرة بيع الأطفال، والفتيات القاصرات.
4. ظاهرة التشرد والفقر المدقع.
5. تفشي الأمراض والأوبئة، خصوصا الطاعون.
6. التصفيات العرقية.
7. استفحال ظاهرة السلب والنهب والسرقة.
8. البطالة.

وامتثالاً لأوامركم السامية، قمنا نحن عصبة الخبراء في مجال التاريخ، والذين عُينّا بإيعاز من جنابكم الموقر كمستشارين، بالبحث في بطون الكتب، والتقصّي في الأرشيفات العتيقة للإنسانية، وخرجنا بخلاصة نضعها هنا، نصب أعينكم، وبين أيديكم الكريمة لتطلعوا عليها، علّها تعود على سيادتكم بالمنفعة، وبذلك تكون خدمتنا لكم شرفاً وتاجاً يزين رؤوسنا المطأطئة إجلالاً وإكراماً لشخصكم الكريم.

ملاحظة :

- بشأن استشارة سيادتكم حول التماثيل في المدينة، فقد رأينا أن من العبث الإبقاء عليها، دون التفكير في استغلال المادة المصنوعة منها، وهي البرونز. لذا نرفع توصياتنا بضرورة أن تُرفع هذه التماثيل، ليتم بيعها، على

أن توضع أثمانها خدمة للمصلحة العامة.

راجين التفضل بالاطلاع. مع وافر التقدير.

*** *** ***

استحسن المحافظ، وهو الأخير ضمن سلسلة من المحافظين المتدينين الذين تناوبوا على السلطة في المدينة منذ الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق، وعلى مدار مائة عام، ما جاء بشأن مشورة أعضاء مجلس المستشارين في أوراق الفايل الأصفر الموضوع أمامه على الطاولة الخشبية الصقيلة. اتضح ذلك من خلال ابتسامة شفيفة لا تخلو من مكر، ارتسمت على محياه لبرهة، قبل أن تختفي وراء ملامحه المتشنجة، اخرج بعدها من جيب سترته الجانبي مسبحة سوداء من الكهرمان البراق، وبدأ يتمتم بكلمات، كأن تكون دعاء أو ربما هي التسبيحات المائة وواحد، حسب عدد حبات المسبحة. كان يتوقف كل ثلاث تسبيحات أو أربع. تزداد خلال ذلك التمتمة، وتبدو شفتاه كما لو أنها تتفل شيئاً ما زال عالقاً في فمه منذ فطور الصباح. قد يسترخي المحافظ غائرا في كرسيه الوثير، يغمض عينيه أو يرفع رأسه قليلا، في حين لا يكفّ إبهاماه وسبابتاه عن التعاون على نقل حبات المسبحة، أو يرفع كم سترته الأيسر إلى الأعلى، فيظهر سوار فضي سميك وجذاب حول معصمه، يسحب منه شاشة شفافة أُضيء ما حولها، ويبدأ بتصفح الويب أو مشاهدة شيء ما كأن يكون مقطع فيديو لآخر موعظة ألقاها ونشرت على اليوتيوب.

Telegram: @Arab_Books2

عادة ما يمضي المحافظ الساعة الأولى من الصباح في ممارسة رياضته الروحية تلك، إضافة إلى حفظ اكبر عدد من المعلومات التاريخية حول حوادث أكثر دموية وفوضوية من تلك التي تحدث في المدينة المنكوبة بعد نضوب ثرواتها. قبل أن يأذن لمرافقه بالدخول حاملاً معه حفنة من الأوراق، اتفاقيات وبروتوكولات وقرارات يوقع عليها بقلم حبر ذهبي يستله من الجيب الداخلي لسترته السوداء. ثم يعدّ نفسه للظهور عبر الشاشة التلفازية الكبيرة في ساحة أم البروم، لإلقاء موعظته الشهرية على الأهالي. يعدل هندامه ويتأكد أن كان شعره ناشزاً أو أزراره غير محكمة. يجلس أمام الكاميرا خلف صورة له يظهر فيها وهو يلوح للجماهير المحتشدة بيده المثقلة بخواتم العقيق والياقوت والفيروزج، من داخل سيارة طائرة بيضاء ضد الرصاص تشبه روبورت ضخم، يحرسها بوديكاردات أمريكان شقر وغلاظ ومدججون بأسلحة فتاكة.

عادة ما يدعو المحافظ شلة من الصحافيين إلى مكتبه، بعد كل انفجار ضخم أو مجزرة بشرية أو أزمة تعصف بالمدينة مخلفة وراؤها الآلاف الضحايا والمعاقين والمعتوهين. يتحذلق أمامهم بطريقة متثاقفة حتى ليبدو كأنه في اختبار للبلاغة الكلامية في إحدى الحلقات الدينية. يفغر إزاء ذلك المتزلفون والقرويون المنبهرون أفواههم عجبا من منطق المحافظ ولباقته في الكلام ومهارته في اختيار المصطلحات الشائكة، دون أن يفهم احدٌ منها شيئاً، مثل الديموغرافيا والشفافية والكانتونات والفيسفساء والايركيولوجيا وغيرها الكثير من الحذلقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، قبل أن يبدأ بالسخرية من الصحافة التي تشتغل على التهويل في نقلها الأخبار إلى

العالم. مقللاً في الوقت نفسه من حجم الخسائر المادية والبشرية التي تتسبب بها تلك الكوارث.

في ذلك اليوم جلس المحافظ في مكانه المعتاد، واستهل موعظته التبريرية بعدة بسملات تلتها صلوات تلتها تسبيحات ثم لعنات طالت الشياطين في جميع أركان القاعة والكفرة والمنافقين في مشارق الأرض ومغاربها. قال بعدها :

"تعلمون أيها الأخوة الكرام، إننا ما زلنا نعيش في ظل هذه الأزمة العاصفة، شاكرين مستغفرين وداعين المولى عز وجل أن يذهب هذه الغمة عن هذه الأمة. لكن ذلك لا يعني أن شيئاً مشابهاً لم يحدث في تاريخ الأمم السالفة والحالية. وإذا كان ثمة من يعتقد غير ذلك فهو على خطأ طبعاً. وفي كل الأحوال يا أخوتي، أود أن أطمئنكم أن حكومتي ما زالت تسخر جلّ إمكانياتها المتاحة وتستنفر كافة كوادرها العاملة من أجل العثور على مصادر الطاقة الكفيلة لسد ما أحدثه النقص الهائل في الثروات. فكما تعرفون، في العصور المتأخرة عندما كان الناس يعتمدون على الفحم في تسيير أمور حياتهم، ربما دار في خلد أحدهم السؤال التالي : ماذا لو نضب الفحم؟ لكن انظروا ماذا حدث بعد ذلك، فلم يمض الكثير من الوقت حتى اكتشفوا النفط! نعم،، ونحن عندما نضب النفط والغاز عثرنا على اليورانيوم، وعندما نفذ اليورانيوم بحثنا عن الزئبق حتى وجدناه، وما أن نضب الزئبق حتى باشرنا البحث عن مصادر أخرى، ومنها الطاقة الشمسية ومادة البرونز الماثل أمامنا في الحدائق والساحات العامة، بأشكال مجسمة

سخيفة وعديمة الفائدة.

نعم.. حدثت أمور عظيمة يندى لها جبين حتى الكفرة من جبابرة وسلاطين وقتلة. إلا أن هذه الأحداث لم تكن شيئاً إذا ما قيست بأحداث أخرى ليست مشابهة فحسب، إنما متفوقة عليها بكمال الخراب وجودة المأساة وما يحمل من طابع كارثي مؤثر. فيا أعزائي، ليس من قبيل العجب أن تنُسف عمارة أو عمارتان أكل عليها الدهر وشرب، ثم نقارن ذلك بما حدث في نيويورك قبل أكثر من مائة عام، عندما هجم الإرهابيون على برجي التجارة العالمية وأحالتهما الطائرات إلى أطلال. كما ليس من المعقول أن نستغرب تعرض المدينة إلى كل تلك الحوادث التي تسببت بمقتل الآلاف في الوقت الذي ما زال هناك الملايين من الجياع يموتون في أحراش أفريقيا وأوحال الهند. وهذه أمثلة وعينات حية لمجاعات ماحقة أذلّت الإنسانية وألحقت بها الضرر الكبير :

مثلاً، يقول ابن خلدون أن الناس في تلمسان المغربية في عام 1304 اضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران، حتى زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى. وإذا كان ذلك زعماً في نظر ابن خلدون، فأظنه بات حتمياً لدى ابن الأحمر الذي أكد على أن السكان التلمسانيين أكلوا بعضهم بعضاً، وكان يفرغون نجاستهم ويجففونها في الشمس، ثم يطبخونها من جديد ويطعمونها لصغارهم! ودعونا لا نصل إلى المدن النائية في مصر القديمة حيث أكل الناس في الصعيد أطفالهم، ومات نصف سكان تمبكتو جوعاً، ولنقترب أكثر وتحديدا في العراق ولنأخذ مجاعة 1918 أنموذجا.

يحدثنا الباحث العراقي عبد العزيز القصاب في مذكراته عما شاهده بينما هو في طريقه من حلب إلى الموصل. فيقول أنه رأى جثثاً بشرية ملقاة على جانبي الطرق بكثرة لا يمكن وصفها. وعند دخوله قرية دمير قبو شاهد طوابير من الجياع وقفوا هناك منتظرين مجيء دورهم في الحصول على قطعة لحم نيئة من حيوانات نافقة، وأظنها كلاباً! وعدا ذلك هناك من جمّد دم الذبائح ليأكله فيما بعد. ولديّ هنا نسخة قديمة جداً لمجلة تركية تعود إلى ذلك الزمن، نشرت حواراً عجيباً دار بين الحاكم وامرأة مجرمة، دميمة وقصيرة، تملأ وجهها الكالح بقع حمراء كالجدري، كانت هي وزوجها ويُدعى عبود، لا يقل عنها دمامة، كانا يتعاونان على خطف الأطفال، أو شرائهم، ثم ذبحهم وطبخ لحومهم ثم بيعها على الناس. وقد وجدوا في بيتها نحو مائة جمجمة صغيرة وكميات كبيرة من العظام مكومة في حفرة ما في البيت. في النهاية لم تجد المحكمة بداً من الحكم عليهما بالإعدام. ولما جاء موعد التنفيذ في صباح احد الأيام سيقا على حمارين راحا يشقان طريقهما نحو باب الطوب، حيث نصبت لهما مشنقتان. وقد نالا كفايتهما من البصاق وشتائم الناس في الطريق، وكان عبود زوج المرأة، انظروا إلى صلافة عينه، يرد على أولئك الناس بالشتيمة أيضاً. وعندما شُنقا رحن النسوة من أمهات الأطفال الضحايا بنهش أقدامهما بأسنانهنَّ، حتى إن إحدى تلك النسوة كانت تصرخ حانقة بينما هي تلثم قطعة من كرشة ساق المرأة:

لقد أكلا ثلاثة من أولادي!

ها... ما رأيكم ؟!!

أما إذا تريدونني أن أحدثكم عن القصص المفجعة التي حدثت أثناء المجاعات الكبرى في الصين والاتحاد السوفيتي والبنغال وأوكرانيا وايرلندا وبيافرا وأثيوبيا وكوريا الشمالية وزيمبابوي والصومال، فضلاً عن الآلاف المجاعات في أوربا العصور الوسطى وباقي القارات، فذلك حديث يطول. ولعل السؤال الذي يتبادر إلى ذهني الآن هو: هل أكل احد منكم طفله؟! هل تغوط ثم جفف غائطه ثم طبخه ثم أكله؟! هل وصل بكم الجوع حداً تحتم عليكم عنده سرقة الأطفال وطبخ لحومهم وما يتبقى يبيعه على الجياع بأثمان بخسة؟! لذا، أنصحكم أن تنظروا بأعين بصائركم وألّا تتذمروا، لأن التذمر من صفات المنافقين. صلوا شكرا لأنكم لم تصلوا إلى هذه المراحل المروعة من الجوع. أما عن أكل لحوم القطط والحشرات والكلاب السائبة، فأظنّ أنّ هذا هو ديدن الجياع في كل مجاعات الأرض، وليس على أرضنا فقط.

تأملوا مصائب غيركم.. وتدبروا !

وأودّ أن أعرج هنا على مسألة الأوبئة. أعتقد أن شيئاً لم يكن أو يحدث في مدينتنا العزيزة، إذا ما رجعنا إلى الوراء لنتقصى حقيقة ما جرى في أوربا بسبب الطاعون الأسود. وبحوزتي الآن حكاية غريبة وطريفة أيضاً تروي عن هذا الطاعون المدمر، وكيف بدأ، والشرارة الأولى له، وأسباب انتشاره في القارة العجوز. ويروي القصة أحد الحكائين الشرق آسيويين المهرة عن أسلافه التتار، في أحدى الحروب التي تحولت في ليلة وضحاها

إلى حرب بكتريولوجية ساحقة. إذا أحببتم أروي لكم القصة، لكن بلسان السارد التتاري طبعاً.

أنصتوا جيدا، إذن:

"في شبه جزيرة القرم. في زمن احد أجدادي لأبي، حدثت معركة وصفت بالكارثية بين أسلافي التتار والبنادقة الذين امتدت مستعمراتهم إلى خارج أسوار إيطاليا. وكان أولئك البنادقة متحصنين في قلعة منيعة صار من العسير اقتحامها بتلك السهولة التي تصورها قائد الجيش التتاري.

لم يزل جنود الجيش التتاري الشجعان لا يشعر أحد منهم بالضجر أو يتذمر إزاء مناعة حصن البنادقة، حتى تفشى بينهم الطاعون فجأة وراحوا يتساقطون أفراداً وجماعات، وكان لذلك اشد الوقع في نفس قائدهم المغوار الذي عزّ عليه رؤية جنوده البواسل وهم ينفقون من شدة الحمى والألم مثل دجاج المزرعة.

امتلأ المعسكر بغائط الجنود المصابين وانتشرت جثث الموتى في كل مكان، ولما شاهد القائد التتاري ذلك بمزيد من الألم والشعور بالذلّ، خطرت له فكرة. أمر جنوده بتعبئة المنجنيقات بالجثث المتعفنة وقذفها على قلعة البنادقة الحصينة. إلا أنَّ المعيب في هذه الحكاية هو ما سأرويه لكم عن الموقف غير المشرف لجدي الأكبر، الذي عاش حينذاك أسخف

حالاته كمقاتل جبان لا يقوى على مواجهة فأر بندقي. كارهاً الحرب، عادا التضحية وهماً ما زال يرسخ في الأذهان من دون طائل. لذا رأى أن من المجدي التفكير في طريقة ناجحة للهرب من ذلك الجحيم، مع معرفته التامة أن ذلك ينطوي على مخاطرة كبيرة، ربما تقف عند الموت في النهاية. وهو ما يحزّ في نفسي ويجعلني أطمر رأسي في حفرة من شدة ما يعتريني الخجل وأنا أروي هذه الحكاية للمرة الأولى منذ أن سمعتها من أبي الذي سمعها من جدي الذي سمعها من أبيه الذي... إلى آخره، من الآباء والأجداد.

ففي ليلة حالكة الظلام، قضى فيها الكثير من زملائه نحبهم بسبب الوباء، حاول جدي الأكبر التسلل خارج المعسكر التتاري. إلّا أنَّ ثمة ما حال بينه وبين تحقيق رغبته تلك بالفرار عندما واجه سوراً مكوناً من المع الفرسان الذين كلفهم القائد بحراسة المعسكر. فوقف هناك، خلف أحد الأشجار، يفكر في ما الذي يمكن فعله تلك الأثناء. وفي النهاية، لم يجد الجد الأكبر أمامه من حلول سوى أن يلقي بنفسه بين جثث موتى الطاعون، فحُمل من هناك مع أربعة جثث ووضع في إحدى المنجنيقات التي قذفت به عالياً، وحلق في الهواء لحظات لم يمسك خلالها نفسه من الصراخ، وظن أنه سيموت ما أن يرتطم بالأرض، وينتهي بذلك كل أمل له بالنجاة. أحس الجد الأكبر باضطراب في معدته، وكاد أن يذرق مثل طير في الهواء، عندما لمح من هناك المقتلة العظيمة التي خلفها الطاعون في صفوف التتاريين. تمنى لوهلة أن يتحول الى طير حقيقي بجناحين يقاوم بهما جاذبية الأرض.

ربما لن تصدقوا ما حدث بعدها.

لم يصب جدي بأذى. سقط في عربة مليئة بالقشّ، ثم تدحرج حتى استقرّ بين جثث التتاريين الذين قُذفوا بالمنجنيقات، وثمة جثث أخرى لبنادقة انتقلت لهم العدوى وماتوا هناك. وما زال أولئك البنادقة مصعوقين من مشهد الجثث التي لا زالت تنهال عليهم منذ ثلاثة أيام، حتى بدءوا يضرمون بها النار. فأدرك الجد الأكبر أنه لم يعد بالإمكان التظاهر على أنه إحدى تلك الجثث. وإلّا مات حرقاً هذه المرة. فتنكر بثياب أحد الموتى البنادقة، وكان من السهل التسلل إلى إحدى السفن الراسية هناك، والمأهولة بالهاربين، والمتوجهة في حينها إلى صقلية، بعد أن تفشت رائحة الموت والجثث المحترقة في أرجاء القلعة، على نحو لم يكن المرء فيه يعرف رأسه من قدميه. وهكذا نجا جدي. ربما أصيب بعاهة جسدية كما يحدث مع الناجين من الطاعون، وحدث ذلك عندما وجد الموت الأسود باسطاً ذراعيه على كامل القارة الأوربية "

انتهت الحكاية يا إخوان! هل رأيتم؟! يمكنكم التنبؤ بما يخطر في فكري الآن من سؤال هو كالتالي : هل رُمي احد منكم مع الجثث المتعفنة بمنجنيق؟! على اعتبار أن الحالة المزرية التي وصل إليها ذلك التتاري الهارب هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في حال حدوث وباء خطير ومدمر على شاكلة الطاعون الأسود في أوربا. كل ما في الأمر أن أمراضاً تفشت هنا وهناك مثل الكوليرا والحصبة والجدري والجذام وربما الايدز. إلا أن أيّاً منها لم ينته بعد إلى تلك النتيجة الكارثية التي وصل إليها الحال في القارة العجوز. ولا يسعني في هذه المناسبة الأليمة إلا أن أعدكم، بهذا الشارب وهذه اللحية التي ترونها، إذا ما وصل الأمر بنا إلى قذف

الجثث المتعفنة بالمنجنيقات أو حتى بالمدافع، فأني سأتخذ إجراءً حاسما في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. مع ضرورة الانتباه إلى أن ما يحدث الآن هي أمور بديهية يمكن أن تحصل في أيّ مكان غير مدينتنا العزيزة، دون أن تتجاوز الحدّ المعقول. هل وصلت لكم الفكرة أيها الأحبة؟

بالنسبة لظاهرة الرقيق وبيع الأطفال، يحدث دائماً أن يبيع الأب أطفاله لا لشيء سوى ان يسد جوعه المقرف، أو لأنه يقف إزاء إطعام ذلك الطفل وتوفير أسباب المعيشة الكريمة، عاجزاً مكتوف اليدين. وهي حالة ليست غريبة على المجتمعات الأخرى بمعنى إنها إذا كانت حالة شاذة يشهدها مجتمعنا في الوقت الحالي، فهي حالة متأصلة في أماكن أخرى. ونعلم جيداً أن الاتجار بالأطفال هو أمر خطير لا يجب السكوت عنه. إذا ما انتهت الحالة بنا إلى نشأة أسواق للنخاسة. ولو ألقينا نظرة فاحصة على سيرة الأمم السابقة لقلَّ لدينا حجم هذه المصيبة مقارنة بالحالات الأخرى. وسيعلم في حينها شعبنا الكريم أنَّ البصرة لم تكن في يوم من الأيام سوى دكان صغير قد يباع فيه طفل أو فتاة قاصرة، قياساً بمدن أخرى تكاد أن تكون عبارة عن بورصات كبيرة للاتجار بالأجساد والقدرات البشرية على اختلاف أحجامها، ومن ثم تسخيرها لغايات عبودية أو جنسية قذرة. كذلك الحال في أمور أخرى مثل البطالة والإرهاب والتصفيات العرقية وظاهرة السلب والنهب والسرقة والفقر والتشرد. كل هذه الظاهر مقيتة طبعاً ولا يمكن الترحيب أو الاحتفاء بها على جثث القتلى. إلّا أننا في هذه الأثناء يجب أن نكون واقعيين وألّا نضع أنفسنا في خانة المظلومية دون التحلي بمزيد من المفهومية ونحن نراجع مصائب الأمم ممن لحقت بها تلك اللعنات. فالإرهاب مثلا منتشر في جميع أرجاء المعمورة، كذلك التصفيات العرقية،

ولا أريد أن اضرب مثالاً مذبحة الأرمن في تركيا ومحرقة اليهود في ألمانيا والمذابح الأخرى في راوندا ويوغسلافيا وفلسطين ولبنان والعراق قبل عشرات السنين. ولا يمكن الشك في إمكانية أن يكون هناك سلب ونهب في أماكن مثل أمريكا أثناء الفيضانات والأعاصير المدمرة، وفي باقي الدول التي تلقي بقيئها على شعوبنا وتدعي التحضر لشعوبها، فما أن يشب حريق أو يثور بركان أو يحدث زلزال حتى يهب السلابون والنهابون من كل حدب وصوب. حتى البطالة، هناك دول متقدمة كانت بالأمس امبريالية ورأسمالية وها هي اليوم تتبنى الاشتراكية في مفاهيمها، لكن أسألوهم: أين هو الشغل؟! وبدلاً من التظاهر يا أحبتي والزعيق بالهتافات دون جدوى، وفي ذلك خدمة للأجنبي طبعاً، تعالوا لنتكاتف سوية، ونؤشر مواطن الضعف وما هو سلبي، ثم نخطط لاقتلاعه من أرضنا الحبيبة. على سبيل المثال، وهو سؤال موجه إليكم: ترى ما الفائدة التي يمكن جنيها من وجود أصنام بلهاء تحدق في العدم، ما زالت تقف هناك في تقاطع الطرقات والساحات العامة؟! وهل نحن بحاجة إليها بينما نحن نعيش في مكان يكره الأصنام؟! مع العلم المسبق بأنها مأوى الشياطين وحرفة الدجالة والمنافقين! لذا، ارتأيت يا إخواني أن أجعل من أشلاء تلك الأصنام حطباً لنار الدنيا قبل الآخرة، وابتداء من الغد.

"فيا أحبتي يا أخواني وأخواتي الأعزاء. انظروا إلى مصائب غيركم، صدقوني يهن عليكم ما جرى في عروقكم مجرى السم في الدم. وأعدكم... سأنظر في... شششش.... وأسعى في خد... شششش ... ول قدر الأمـ.. شششش ... الحد من معا ... شششش ... هنا لخدمتكم، منكم و ... شششش ... شششش .... شششششششششش ! "

انقطع البثّ.

ثمة لغط دار بين المتجمهرين أمام الشاشة الكبيرة. شتائم وبصاق وتمتمة وقرقعة قصعات معدنية. قبل أن ينصرف الجميع كلا في وجهته حتى خلت ساحة أم البروم في العشار، إلا من بعض الجثث المنتشرة هنا وهناك. فضلا عن رجل يحمل مطرقة ويرتدي بدلة عمل، قفز من مكانه على إحدى القواعد الكونكريتية هناك. وضع مطرقته جانبا، وراح ينتشل الجثث من على الأرصفة ويحملها إلى عربة كبيرة.

***

مع بداية عام 2103 وبالتزامن مع نضوب مصادر الطاقة من نفط وغاز في المدينة، توقف آخر عامل آلي في المدينة وأُلقي في مقبرة العمال الآليين في سباخ شط العرب الذي جف هو الآخر، ولم يعد ثمة من يشتغل فيها سواي. ومع ذلك، ربما لا أُعدّ عاملاً بالمعنى المتعارف عليه، إذا حصل وأخذ المرء بعين الاعتبار أن ما أقوم به إنما هو عمل تطوعي، الغاية منه تلافي المزيد من النتانة وروائح العفونة التي تعبق بها الأرصفة والشوارع والساحات العامة، منذ خراب البصرة الأخير.

Telegram: @Arab_Books2

في مقهى صغير وقذر، منزوٍ، في أحد الممرات الضيقة التي تفضي إلى خرائب محلة البجاري القديمة، وهو مقهى لا يختلف كثيراً عن بقية المقاهي المأهولة بالعاطلين عن العمل، صباح كل يوم، وقبل ان أباشر عملي في تنظيف ساحة أم البروم من جثث الموتى الذين يهلكون بسبب المجاعة أجلس في مكاني المعتاد، على تخت خشبي ركيك، قبالة الباب، أطالع ذوو الوجوه الكالحة الممتصة، بين متسول ومتشرد ومكفوف، وهم يقايضون ساعاتهم وأزرار ستراتهم، أضراسهم الفضية وخواتمهم المرصعة بالفيروز والعقيق اليماني والحديد الصيني، بكسرة شعير يابسة، وقدح صغير من الشاي المرّ، يحلونه بتمرة صلبة. رسامون ومهندسون معماريون فقدوا ميزة الرسم بمجرد تحريك أيديهم في الهواء، وعندما أرادوا العودة إلى فطرتهم الأولى والرسم بالألوان الطبيعية على الورق وجدوا أنفسهم كالغربان التي حاولت تقليد قفزة العصافير وحينما فشلت وأرادت العودة إلى ما كانت عليه قبل ذلك، فوجئت بأنها نسيت مشيتها، وهكذا أخذت تحجل في المشي. هناك أيضاً خارج المقهى باعة ملئوا الرصيف بخردوات التكنولوجيا البائرة بعد الخراب الذي طال المدينة: بطاقات الحب التسوقية الأنيقة برتقالية اللون والمصممة خصيصاً للمكفوفين والمسنين، والتي كانت تكشف عن مدة صلاحية السلع وتوفر معلومات دقيقة عن نوع المنتج وسعره. كتب إلكترونية مطوية وعاطلة تحتوي على شاشات مرنة قابلة للسحب والطي. روبوتات معطوبة كانت تقوم مقام الخدم في المنازل، وأطراف مزارعين آليين، وهواتف نقالة ذات أربع طيات تحتوي على حواسيب معطلة. خلاطات وطباخات ومعصرات وغسالات وثلاجات وقطع أثاث ومايكرويف وأجهزة استنساخ وطباعة وتلفاز وستائر ومكيفات ومدفئات جميعها كانت تعمل ذهنياً أو بالتخاطر، أو من خلال التحكم

بالشرائح الالكترونية الدقيقة الموجودة فيها. ثمة سيارات طائرة تعمل بأجهزة gps متطورة، كانت تعوم على وسادة من الجاذبية، ها هي الآن مركونة على جانبي الطرقات، مغطاة بالغبار وسخام الحرائق. قد تجد بعضها في الشوارع الرئيسة، مهشمة أو مطعجة إثر سحق أقدام الديناصورات عليها. الديناصورات التي كانت مجرد زواحف صغيرة ثم تعملقت بعد أن زُرع الخمض النووي لديناصورات منقرضة في بيوضها. وحدث أن أنشأ أحد المستثمرين حديقة كبيرة في أطراف المدينة، واستورد لها تلك الديناصورات العملاقة التي هربت أخيرا بعد الكارثة فسحقت ودمرت ما صادفته في طريقها. مرايا ومحتويات دورات المياه، تحتوي على مجسات بإمكانها التعرف على الـ dna للأشخاص الذين يرتادون الحمام والمراحيض، ويُضاهي ذلك الكشف الطبي الكامل. قمصان وقبعات وبنطلونات وسراويل وسوتيانات مستعملة قادرة على اكتشاف الأمراض واستدعاء سيارة الإسعاف في حال وقوع خطر ما، وتحميل البيانات الطبية إلى أقرب مستشفى، ورصد الاضطرابات في نبات القلب والتنفس وموجات الدماغ، وأخذ صورة ثلاثية الأبعاد لأعضاء الجسم الداخلية. كل هذه الأشياء تُباع إلى تجار خردوات أجانب بأثمان زهيدة ثم سرعان ما تُهرب إلى خارج المدينة.

منذ اثنتي عشرة سنة، مضت على كارثة نضوب مصادر الطاقة الرئيسة، وانطفاء ينابيعها في باطن أرضها الغليظة، وجفاف مياه شط العرب، والأهالي يتوافدون على هذه الساحة العريقة، طمعاً في الحصول على إنائي الرزّ والفاصوليا، وهي الوجبة الوحيدة التي تُقدم إلى الجياع، مرة واحدة كل ثلاثة أيام، ويتبرع بها الميسورون، وتوزع عليهم بإشراف الحكومة.

أجوب أرجاء الساحة المحاطة بالهياكل الجرداء المعتمة لناطحات السحاب التي تسف بها الريح، وتعشش فيها العقبان الحائمة وأسراب الغربان واللقالق المهاجرة، في الوقت الذي يُقرع فيه جرس كبير جيء به من إحدى الكنائس المهجورة، إيذاناً باقتراب موعد تقديم الأرزاق المطبوخة. يهرع الأهالي الجياع من كل زاوية وخربة، ينسلون دفعة واحدة عبر الأزقة المدمرة ومتروات الأنفاق المعطلة، باتجاه الساحة، ما أن تتسلل إلى خياشيمهم رائحة الطبيخ المُعد على قدور كبيرة، تحت نار هادئة. يستلون أجسادهم النحيلة، من إسفلت الأرصفة الرطبة، حاملين قصعاتهم المعدنية، فاغري الأفواه، محدودبي الظهر، بأعين غائرة وأسمال بالية، وقد التصقت جلودهم على العظام من شدة الجوع. دون أن يفكر احدهم في إحداث جلبة، أو حتى التفكير باجتياز دوره، خوفا من هراوات رجال الشرطة ومؤخرات بنادقهم الجي سي. عندئذ، تتسنى لي فرصة تنظيف الساحة مما علق في الإسفلت من الجثث المتعفنة.

عادة ما يظهر المحافظ في مثل تلك الأوقات، على شاشة كبيرة معلقة عند مدخل شارع المطاعم، بلحيته البيضاء المحددة بعناية، وشعره الأشيب الذي يبدو كما لو كان مستنفراً، حول صلعة تلمع في شمس شباطية دافئة. فيبدأ بإلقاء موعظته المعتادة، قائلاً أن البصرة ليست المدينة الوحيدة التي تعاني من الجوع، إنما هناك موجات عنيفة، ما زالت تجتاح الهند وبلدان عديدة في أفريقيا بسبب النقص الحاد في مصادر الطاقة. وبإمكان المتكلم أن يتصل بجواسيسه ومخبريه السريين من خلال عدسة دقيقة مثبتة ومربوطة بشبكة الأنترنت. يصول ويجول بعدسته الرائية تلك، كل صباح ليتعرف بنفسه إن كان ثمة تمرد يقع في هذه الناحية أو تلك. يتعرف

Telegram: @Arab_Books2

على الناس من وجوههم، ويتناهى كلامهم إلى سمعه مترجماً في حال كانت اللغة التي يتحدثون بها مبهمة أو ملغزة.

كل ثلاثة أيام، يقف الأهالي في طابور طويل، يبدأ من أول قدر بين خرائب مقهى الميناء، في الساحة، ولا ينتهي عند الجسر الموصل إلى الجهة المقابلة، إنما يتفرع إلى ثلاثة أقسام، احدها ينعطف بمحاذاة نهر الخندق، وصولا إلى ابعد نقطة في منطقة الداكير على الضفاف القاحلة لشط العرب، حيث تقوم هناك أكبر واجهة نهرية للتسوق ومبنى الجمارك الكبير، ومرفأ رئيسي منه كانت الرحلات النهرية تنطلق صوب بغداد. والآخر يعبر الجسر، ثم يتغلغل على امتداد شارع مالك بن دينار الذي تتناثر على جانبيه أطلال الكَراجات العملاقة والمولات الضخمة التي صارت مؤخراً مأوى للكلاب الجرباء. والثالث ينعطف في الاستدارة عند الجسر، مارقا بأنقاض مديرية الجوازات، وينتهي بجسر الجنرال ليك، خلف خرائب مبنى المحافظة الجديدة.

دائماً ما أعمل في الليل، وأحياناً استغل تكالب الناس على قدور الرز والفاصوليا، وأبدأ شغلي المتعب، انتشل جثث الموتى من على الأرصفة والشوارع، أضعها في حاويات كبيرة بعجلات مدولبة، تجرها بغال هزيلة إلى مستشفى البصرة التعليمي، ليتم فرز الطري منها عن المتعفن، ثم تُلفّ بالسيلفون، ثم تودع في ثلاجات عملاقة تعبر الحدود ليلاً. ومن هناك يتم تصديرها الى دول العالم، لغرض الاستفادة منها في مادة التشريح لطلبة الكليات الطبية.

Telegram: @Arab_Books2

قبل ذلك، كانت الحكومة قد قايضت الأخشاب والحديد والأسلاك وأعمدة الكهرباء بالغذاء والدواء، ثم تذكرت أن عددا مروعا من الكلاب السائبة تجوب الشوارع، وتتغذى على جثث موتى الجوع. وهذه بيعت إلى دول في شرق آسيا. التربة هي الأخرى، ما زالت الحكومة تصدر ملايين الأطنان منها الى دول الجوار، حتى أصبحت المدينة حفرة هائلة بهيئة قبر كبير. كذلك أشجار السدر والبمبر وعددا كبيرا من النخيل. ولا أحد يعلم بماذا تفكر السلطات غداً، ربما تفكر في تصدير قطع البرونز، فقد سمعت " المتكلم " في آخر ظهور له على الشاشة الكبيرة، يسبُّ التماثيل، قائلاً أنها تقف هناك على القواعد الكونكريتية، في الأماكن العامة والساحات، دون فائدة تذكر، سوى التحديق في العدم.

دائماً ما أتجول في أرجاء مدينتي المنكوبة، وقد ينتهي به المطاف إلى ضفاف شط العرب الذي جف ماؤه، ويكاد أن يكون مقبرة كبيرة للعمال الآليين الذين استوردتهم الحكومة بدلاً من العمال المحليين الذين أضربوا عن العمل قبل سنوات، فملأت السلطات بهم السجون، فضلاً عن أشلاء الأطباء والجراحيين والموسيقيين والرسامين والممثلين والطباخين الآليين، وصناديق حديدية مليئة بروبوتات ذكية صغيرة بحجم الذباب والعناكب فقدت هي الأخرى قيمتها وقدرتها على آداء المهام في تلطيف الجو، في حين شغلت قبور ضحايا الطاعون الذي يضرب المدينة بين الحين والآخر فقد شغلت مساحات واسعة من ضفتي الشطّ. ثمة يخوت تشبه المركبات الفضائية استلقت على جوانبها وهجرت، واختفت منها وسائل الترفيه وبهتت تصاميمها الفريدة، قبل أن تغدو مأوى للمشردين والنازحين من القرى

البعيدة، الذين يتحاشون السكن في ناطحات السحاب المخربة والأبراج الشاهقة خشية التعرض إلى السلب والاغتصاب من قبل عصابات الإجرام ومدمني المخدرات المصابين بالإيدز، الذين يجوبون في ظلام المدينة كمصاصي الدماء في الأفلام المرعبة. وكثير من أفراد هذه العصابات ولدوا حسب طلب الأبوين قبل أكثر من عشرين سنة، بمساعدة الهندسة الوراثية، أصبحوا تعساء الآن بعد أن فقدوا قدراتهم الخارقة التي وفرتها الشخصية الفيزيائية المختارة قبل أن يولدوا، فتفاقمت ظاهرة الانتحار بينهم حتى لم يعد منهم سوى هؤلاء الذين امتهنوا السلب في الضواحي المتاخمة للمدينة.

خلال تجوالي بين خرائب المدينة، بعد انتهاء عملي، بعد كل وليمة، أرى الكثير من الفتيات والشبان يُباعون في سوق النخاسة، إلى مشترين أجانب، يدفعون مقابلها أشياء لا قيمة لها، تسد الرمق، أو تُسكت قرقرة البطون الخاوية. وقد زرت بنفسي سوقا مسقوفة بالجملون تُفتح عليها أبواب كالزنزانات يقضي فيها العبيد والمحظيات لياليهم ريثما يُباعون. هناك، سمعت أحد الباعة وهو يروج لبضاعته من العبيد الكادحين، الذين جلسوا على تختين خشبيين، وقد حُلقت رؤوسهم وألبسوا قمصاناً شفافة وبدون أكمام تظهر ما يتمتع به بعضهم من قوة بدينة. في حين كان ثمة شابات مزينات يجلسن في الجهة المقابلة، بعضهن يحملن أطفالاً ما زالوا في طور الرضاعة، بينما كان عدداً من الأولاد يلعبون بالجوار دون أن يخطر لأحد منهم الهرب، وعلى ما يبدو أنهم اعتادوا حياة العبودية مؤخرا. وليس بعيداً عن المكان الذي وقفت فيه للفرجة كان هناك مشترٍ راح يتفحص فتاة جميلة، ويفتح عينيها ويشم رائحة فمها، في الوقت الذي ما زالت

فتاة أخرى بجوارها تماطل أحد الشراة رافضة أن تشمل عملية الفحص ما تحت الثياب حتى أجبرها البائع على ذلك وخلعت ثيابها وهي صاغرة دامعة العينين. أسمع كثيراً عن أكلة لحوم البشر، الذين يقتنصون الأطفال والنساء، في الأزقة المظلمة، أو يستدرجونهم إلى الترع المخربة وناطحات السحاب المهجورة. أتذكر أنني تعرضت للخطف في يوم ما، كنت فيه عائداً من أحد تلك المشاوير، إلا أن أحداً من الخاطفين لم يستطع قتلي، حتى عندما أرادوا التهامي، فوجئوا بقوة عظمي وسمك جلدي، وصلابة لحمي، فتكسرت أسنانهم، وراحوا يلعنون الجوع الذي قادهم إليّ. لقد تحولت المدينة تدريجياً إلى بقعة مخربة تماماً يحكمها " المتكلم " الذي باع كل شيء حتى التراب. ويمكن رؤية المدينة عبر منظر مروع يحيل الناظر إلى أفلام وقصص نهاية العالم. لقد أصبحت مع حلول عام 2103 كمنجم مهجور ومعتم تؤمه الخفافيش والآفات القاتلة.

لم يمض الكثير على موجة السباب والشتائم التي راح يكيلها " المتكلم " لمعشر التماثيل، حتى فوجئت في صباح أحد الأيام بأحدهم يلفّ رقبتي بسلك معدني غليظ، وكانت تلك إحدى رافعات السلطة العملاقة، رفعتني من مكاني، على القاعدة الكونكريتية، في ساحة أمّ البروم، ووضعتني في حوض عربة كبيرة، اتجهت بي إلى أحد المخازن الكبيرة الواقعة في أطراف المدينة. وجدت تماثيل أخرى محبوسة هناك: الفراهيدي، عتبة بن غزوان، السياب، عبد الكريم قاسم والفرس الأشهب الذي كان يمتطي صهوته، أسد بابل الذي راح يكذب القصص المحاكة حول هوية الشخص الذي يرقد تحته، وأقاويل الناس حول إمكانية أن يكون هذا الشخص شقيقته.

Telegram: @Arab_Books2

وكنتُ سأُقطع وأُباع إربا لولا أنهم اكتشفوا أني لا أنفع لذلك ما دمتُ من الكونكريت، فعُبّئتُ في صندوق خشبي مليء بالقشّ، وحُملتُ على متن باخرة، راحت تطوف بنا البحار، حتى انتهت بنا إلى متحف كبير على شكل حاوية للأزبال، حيث وضعوني هناك على قاعدة من حجر الغرانيت، إلى جانب تماثيل لشخصيات وقواد ورؤساء دكتاتوريين ظناً منهم أني دكتاتور، إذ ما زلت حتى ذلك الحين أحمل مطرقتي التي ترمز إلى الشيوعية المنقرضة بالإضافة إلى الأول من شهر مايو الذي كان يحتفل فيه اليساريين بعيد العمال.

يبدو المكان موحشاً في الليل، كأنه سجن كبير. لا أحد يتحرك فيه سوى عامل التنظيف المسن الذي أسمع خطاه وهو ينظف البلاط من البصاق والمناديل الورقية، فيظهر عليه التذمر من هذا العمل الشاق الذي لا يقوم به إلا ليلاً، لأن المكان في النهار يكون مزدحماً بالزوار من الساعة التاسعة صباحاً، وحتى العاشرة مساءً.

أكثر ما يؤرقه في هذا العمل هو تلميع أحذية القادة والرؤساء وتنظيف بدلاتهم العسكرية المزينة بالنياشين. يظن أنه الشخص الوحيد في العالم يفعل ذلك دون أن يقبض بقشيشه. وكلما ينتهي من تلميع فردتي حذاء أحدهم يقف أمامه كالجندي المطيع، يأخذ له التحية العسكرية بعد أن يعرفه بنفسه ويذكر رتبته والوحدة العسكرية التي كان ينتمي إليها عندما كان جندياً في الجيش أثناء الحرب العالمية الثالثة قبل عشرين عاماً. آخر مرة وقف فيها هذا الجندي العتيد كانت أمام ستالين، بعد أن نظف حذاءه

من البوظة والعلكة التي يلصقها الصبية الصغار خلسة أثناء تجوالهم في النهار.

اتجه بعدها إلى هتلر مقلداً مشيته حتى انتهى إليه ووقف أمامه في حالة الاستعداد، وقد ألقى عليه التحية النازية الشهيرة، وسأله عن عشيقته إيفا براون قائلاً أنها تشبه امرأة أقام معها علاقة، ليلتحق بعدها إلى ثكنته العسكرية البعيدة حيث تنافس بلاده القوى الأخرى من أجل الاستيلاء على منابع اليورانيوم، المصدر البديل بعد نفاد النفط،، وحينما عاد في إحدى إجازاته وجدها وقد أصبحت في حضن أحد جنود البحرية.

يزعجني الصبية في فرق السفاري التي تزور المتحف بين فترة وأخرى، وكان آخرها مجموعة من الأولاد تحت سن العاشرة تشرف عليهم مرشدة سمراء راحت تقودهم من تمثال إلى آخر وتعرفهم على الشخصيات:

" هذا تشاوشيسكو. أنظروا..." قالت المرشدة المبتسمة لفريقها بنبرة تعليمية: " دكتاتور رومانيا. أُعدم مع زوجه إيلينا من قبل محكمة عسكرية سرية في العام 1989 .

" وهذا هتلر!..." صاح أحد التلاميذ، فأثنت عليه المرشدة قائلة بحماس: " أحسنت، أنه أدلوف هتلر، إمبراطور ألمانيا النازية. قاد حروبا كثيرة، واندحر بعد هزيمته من قبل قوات التحالف عام 1945 "

" وأين هو الآن؟..."

" انتحر مع عشيقته ثم أحرقت جثتيهما بوصية منه "

بعدها، انتقل التلاميذ إلى زعيم آخر:

" هذا هو فرانكو..."

قالت المرشدة ثم تابعت بالنبرة التعليمية نفسها: " فرانشيسكو فرانكو بهاموند، ولد عام 1892 وتوفي في 20 نوفمبر 1975، حكم إسبانيا منذ عام 1939، ارتكب الكثير من الجرائم في الحرب الأهلية التي راح ضحيتها الكثير من الناس "

" هل انتحر؟.."

" كلا... "

لم تتم المرشدة كلامها عن فرانكو حتى هرع أحد التلاميذ إلى رئيس آخر، ووقف ينظر إليه قائلا لزملائه : " انه صدام ! " فعقبت المرشدة موافقة بلغة صحفية مبسطة:

" نعم.. أنه دكتاتور العراق.. حكم لأكثر من ثلاثين عاماً، وخاض ثلاث حروب كان آخرها مع الولايات المتحدة الأمريكية التي هزمته قبل مائة عام. لكن كيف تعرفت إليه، هل أخبرتني عزيزي؟ "

تساءلت المرشدة، وقد ارتسمت على وجهها علامات الدهشة وهي تسمع جواب الصبي :

" لدينا في البيت صورة تذكارية التقطت لجدّي الثاني وهو يقوم بفحص فم صدام عندما ألقوا القبض عليه! "

" هذا صحيح..." أردفت المرشدة: " وجدوه مختبئاً في حفرة قبل 97 عاماً.

" هل وجدوا القنبلة النووية في فمه؟ "

مطت المرشدة شفتيها الكبيرتين، وقلبت عينيها مهمهمة : " لا أعرف! ربما عليكِ أن تسألي جدك الثاني!

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

خالد كاكي

ولد في كركوك في العام 1971. ودرس الأدب الإسباني والفلسفة في جامعة بغداد 1989 – 1993، وفي جامعة أوت. نوما في مدريد 1997 – 2000 حيث يعيش هناك منذ العام 1996. نشر أربع مجموعات شعرية (بلا حذر. دار ألواح، مدريد 1998)، (هوامش الحارس، دار الألف، مدريد، 2001)، (أقفاص في طائر، دار الفينيق، القاهرة، 2005)، و(رماد شجرة الرمان، ألفا ألفا، مدريد، 2011)، كما نشر مجموعتين من القصص القصيرة (مهد المرايا المتقابلة، منشورات الأهلية، بغداد 2005) و(انتحار خوسيه بونابيدا، المتوسط، ميلانو 2016).

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

عمليّة دانيال

مقاطعة كركوك (شعلة غاو) عام 2103.

أستيقظ رشيد مبكراً على المنبه الهزاز الخاص برسائل الهاتف الملتف على معصمه. الرسالة موجزة ومحددة المطالب:

"عزيزي المستفيد رقم RS07 9:

طابت استفادتك: اليوم هو أول سبتٍ من الشهر، والمخصص لـ "التخلّص من بقايا الشر". ستنتشر الوحدات المحبوبة في جمع أحياء المدينة بين الساعة التاسعة صباحاً وحتى السادسة مساءً. فعلى كل من يمتلك تسجيلات صوتية أو مرئية باللغات المحظورة (ملفات ليزر على أقراص تيتانيوم أو أية تسجيلات على ألياف الكاربون أو ما شابه) أن يقوم بتسليمها إلى الروبوتات الرسمية التي ستتجول في كل الأحياء. من يخالف التعليمات، يُقبض عليه ويعرّض نفسه لعقوبة الإتلاف في أقرب دفعة.

غاو دونغ المفيد يُحبّكم."

تلقّي مثل هذه الرسائل، أصبح أمراً روتينياً منذ تولّي غاو دونغ المُفيد -أو"المحبوب" كما يحلو له أيضاً أن يلقّب- رئاسة شؤون الذاكرة. وهذه الهيئة لمن لا يعرف، جهاز أمنيّ واجتماعيّ في نفس الوقت. أما

كيف هو أمنيّ، فأن مهمته المباشرة والأساسية هي حفظ حاضر الدولة من خطر الماضي! وكيف هو اجتماعي؟ فذلك نابع من صميم علاقة الجهاز بأتباعه ومريديه وأحبابه، والعلاقة هنا ليست علاقة رئيس بمرؤوس، بل علاقة قائد ومستفيد. هذا ما أتت به قريحة المُفيد المبجّل غاو دونغ لدولة الذهب الأسود كركوك قبل خمسة وثلاثين عاماً من الآن، ليجعل من لغاتها العريقة ذات الخمسة آلاف عام، مادة محظورة على التداول. فالسريانية والعربية والكردية والتركمانية وأية لغة غير الصينية أصبحت في عداد اللغات المحظورة على المواطنين المستفيدين من رعاية الدولة، وعقوبة مستخدمها أو الناطق بها أو المستمتع بآدابها وعلومها وفنونها هي الإتلاف، وهي أقصى عقوبة ممكنة، حيث يتم حرق الشخص في جهاز خاص يشبه أجهزة الأشعة الفوق بنفسجية القديمة الخاصة بتسمير البشرة المنتشرة خلال القرن الماضي، ثم يُبعث برماد الشخص المُتلَف إلى مصنع خاص بالماس الاصطناعي، فيتم تحويل الرماد خلال ساعات إلى حجر ماسي صغير، ليُرسل بعد ذلك إلى مصنع خاص تُرصّع فيه أحذية غاو دونغ المفيد، أو قبعة من قبعاته الكثيرة.

ليس لدى رشيد أي ملف بأية لغة من تلك اللغات التي يودّ غاو دونغ محوها أو "تطهير" كركوك منها حسب تعبير هذا الأخير، لكنه يتكلم ثلاثة منها بسهولة. وقد ورثها عن أبويه، وسيورثها لأولاده في المستقبل بكل اهتمام وعناية، ليورثها هؤلاء أيضاً لأولادهم وبناتهم، فهي كل ما تبقى من آلاف الأعوام من التراث المَروي والمكتوب والمُغنّى. أن ممحاةً بحجم مئة عام لا تكفي لمحو لغات استمرت ألفاً أو ألفي عام على ألسنة البشر. وما تحفظه الألسنة والقلوب، لا تستطيع كل روبوتات غاو دونغ محوه أو إتلافه أو منعه من النقل جيلاً بعد جيل.

قبل أيام من الآن، وجدت وحدة خاصة بالتفتيش والمداهمة عدة أقراص وشرائح إلكترونية قديمة تعود إلى حوالي تسعين عاماً من الآن على تلة بمنطقة داقوق قرب كركوك. سرّب الخبرَ عنصر مزدوج من وحدة التفتيش، وقال بأن الأقراص والشرائح كانت مليئة بالأغاني. أغنيات سمعنا عنها ولا نعرفها اليوم. يقال أنها كانت من أجمل وأرقّ ما يمكن، حيث يتحدث فيها المغنّي عن حبيبته وعن ألم الفراق لبُعدها وأغنيات عن جمال الطبيعة ونساء يذهبن إلى نبع القرية لجلب الماء وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع. يبدو أن عصرهم كان أكثر إنسانية وبساطة وأكثر أماناً وروعة. الأقراص والشرائح أُتلفت فوراً وتم تحرير محضر مرئي وسمعي بالأمر وتم تحويل كل من كان في الوحدة إلى جلسة "تأهيل" في صالة الفوائد الكبرى بالمدينة. وأمور مثل هذه تحصل كل أسبوعين أو ثلاثة. يحفرون بحثاً عن الماء، فيجدون بالصدفة أجهزة كمبيوتر قديمة، مكائن الحراثة مثلاً تتعثر بأجهزة صوتية قديمة، أو تلمع بين ثنايا الأرض المحروثة أقراص وشرائح موسيقية ومرئية وهكذا. هناك من يدفع الكثير من المال للحصول على لُقية من تلك اللُقى، رغم عقوبة الإتلاف الخطيرة، وهناك من تحوّل فعلاً إلى ماسة صغيرة على قبعة من قبعات غاو دونغ لحيازته حزمةً من الأغاني والأفلام الممنوعة. ولكن، رغم كل ذلك، التاريخ لا يسكت، بل يعبّر عن نفسه بين حين وآخر مثل رهينة يعضّ على الرباط المشدود على فمه محاولاً الصراخ والنطق ببعض الحروف أو الكلمات.

عندما يخرج الفتى العشريني رشيد إلى الشارع بعد قليل، يتغير اسمه إلى المستفيد رقم 079RS، أو RS فحسب، وما الرقم 079 إلا إشارة إلى عام ولادته. فقد حوّل غاو دونغ، الحاكم الصينيّ الذي أتت به حرب الأشهر

الثلاثة عام 2078 إلى دولة كركوك الثريّة، كل المواطنين إلى "مستفيدين"، ذلك أنه بحكم مكانته العسكرية والرسمية كقائد وزعيم وإله صغير، يفيد الناس في كل ما يفعله بهم أو لأجلهم، وبالتالي فهو المفيد الأكبر والناس أياً كانت مراتبهم ومناصبهم ودرجاتهم "مستفيدون" من نعم الإله غاو دونغ المحبوب. وهو في النهاية "محبوب" أيضاً رغم كل ما يفعل. لأن الآخرين يحبونّه رغم أنوفهم ويدعون له بالبقاء مهما قسى بهم أو مهما محى أو دمّر أو أتلف أو هكذا كان يحلو لحضرة الجنرال أن يتصوّر الأمر.

هذه هي حال دولة كركوك اليوم والتي أطلق عليها القائد المحبوب تسمية "شُعلة غاو" تيمناً بنيران المدينة الأزلية. أحياء كركوك القديمة وقلعتها الآشورية، لا تزال تقريباً تحتفظ بملامحها القديمة كما كانت عليه قبل مئة عام، مع أنها انفصلت عن بلاد الرافدين قبل وصول غاو دونغ بأربعة عقود وتطورت عمرانياً ومدنياً. وقد غدت المدينة دويلة نفط واستثمار، وتعايش أهلها بسلام وهدوء خلال تلك العقود. بنى القلعة من جديد معماري آشوري من أبناء المدينة يسمّونه سرغون، وأنشأ في أركانها سبعة أبواب هائلة تُزين جانبي كل باب ثيران مجنّحة كتلك التي نحتتها آلهة آربخا قبل آلاف الأعوام. ورغم أن حرب الأشهر الثلاثة دمّرت أجزاءً من سور القلعة المغلف بقطع الألومنيوم، فأنها لا تزال بكامل رونقها تلمع تحت الشمس وتنظر للغد بعينين واسعتين، وتَرسَخ في أرض آلهة آربخا بأقدام ثور فتيّ وقوي. الفتى RS079 أو رشيد إبن سليمان، يلتقي بين مساء وآخر عند باب النبيّ دانيال – باب من أبواب القلعة- بأصدقائه، ليتوجهوا نحو بقايا مقبرة هناك يتبادلون الأفكار والأخبار ويغنّون قبل أن يجن الظلام بعض الأشعار والأغاني التي منعتها سلطات غاو دونغ. طقس خفيّ يمارسونه أشبه بدين أو بممارسة روحية ورثوها عن أسلافهم الذين

قضوا على أرض النار الأزلية كركوك. يجتمعون على ذكرى أهلهم الذين أتلف غاو دونغ وسياسته التطهيرية المئات منهم. يغنّون بصوت خفيض وبحب كبير أغنيات عشق من الماضي. ورغم الخطر الكبير الذي يحيط بهم إن كشفت عين من عيون السلطة أمرهم، فإنهم ماضون في طقسهم الروحي بكل إصرار. حكومة غاو دونغ المفيد قاسية ولا تفيد أحداً، لكن كركوك سقطت في قبضته مثل فراشة ذهبية لأن العالم كله تغير، ولأن كفة ميزان القوى مالت لأهل الصين. كركوك كانت وحيدة في الماضي وها هي اليوم وحيدة، إلا من حُب أهلها.

ذات مساء، قبل عشرين يوماً وبينما كان الشباب مجتمعين عند باب دانيال، مرّ روبوت حكومي أحمر بالقرب منهم، فما كان منهم سوى أنهم حوّلوا أغنية قديمة كانوا يتغنون بها إلى أخرى صينية. هذا ما كانوا متفقين عليه عند استشعار الخطر، فقد وجدوا لكل لحنٍ قديم، لحناً صينياً معاصراً شبيهاً به، ليستبدلوا الأغنية بالأخرى في حال حضور أجهزة الشرطة الحمراء. وكانوا في كل مرة ينجحون في تلافي الخطر. فما أن يبتعد روبوت الشرطة حتى يعودون لأغنية أسلافهم المحبوبة. إنها لعبة القط والفأر مع ذات مسلوبة وحاضر مُبهم لا يفك أحد خطوطه الملغزة. تماثيل غاو دونغ المحبوب ببدلته الذهبية وقبعاته المرصعة بالماس تنتظرك عند رأس كل شارع، ورسائل حكومته تدخل إليك من كل القنوات لتقنعك بأنك المستفيد الأكبر من كل حال، وهذا أمر مضحك تعود عليه الناس هنا، رغم عبثيته ولا معقوليته.

الذي حصل نهار اليوم، بعد تلقي رشيد الرسالة الروتينية المعتادة، وتجاهله الرسالة كالعادة، هو أن قوة خاصة من الروبوتات الحمراء وقفت

عند باب السيد سليمان، بحثاً عن ابنه رشيد. فدخلوا المنزل وأخذوا رشيد بثياب النوم. قوات أخرى من الشرطة الحمراء كانت قد جمعت من أحياء بريادي وبكلر وآزادي بقية المجموعة التي أطلقوا على عملية القبض عليهم تسمية "عملية باب دانيال".

بعد ثلاثة أسابيع كان الجنرال وو شانغ يسلّم غاو دونغ المحبوب في قصره المطلّ على نهر الفرات حذاءً طويل العنق تزينه ماسات كثيرة بمناسبة عيد ميلاده الثالث والستين. إحدى تلك الماسات الصغيرة كانت روح المستفيد RS079 أو الفتى العشريني رشيد بن سليمان الذي أختزن بين طبقاته المكبوسة، عشرات الأغاني والأشعار وقصص الحب والحياة.

مدريد 2013

إبراهيم المراشي

بروفسور مساعد في قسم التاريخ في جامعة سان ماركوس في ولاية كاليفورنيا الأمريكية. وهو حامل للجنسيتين الأمريكية والبريطانية، وحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أكوسفورد، حيث قدم أطروحة عن الغزو العراقي للكويت، ونشرت الحكومة البريطانية جزءاً منها ضمن ملف المراوغة – Dodgy Dossier . ساهم في تأليف كتاب "قوات العراق المسلحة: تحليل تأريخي (روتليدج، 2008)، وكتاب (التاريخ المعاصر للعراق مع فيب مار (ويست فيو، 2016).

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

ناجوفة

عند وصولي إلى نقطة مراقبة جوازات السفر في محور طيران بغداد الدولي، مسحت سبابتي أمام الروبوت، ولكن بوابة عشتار الوهمية المصنوعة من طوب التفلون المتراوحة ما بين اللونين الأزرق والأصفر فشلت في أن تفتح.

"محمد، إن جواز سفرك مزروع في إصبعك الأوسط". ذكرني بهذا جدي، عيسى.

"شكراً، جدو".

كنا مسافرين مع حملة تضم 72 عضواً. رحلة الحج هذه، نُظمت من قبل المجتمع الشيعي العراقي في ألاسكا، وكنا محظوظين لنكون في مقدمة من ذهب منهم لاستلام الأمتعة. قابلتنا الروبوتات المسندة إلينا، عباس ر – 12، وزينب س – 12، أثناء استلام حقائبنا الهوائية، وكانا دليلينا في العراق.

بينما كنا ننتظر الآخرين، نقرت على جبهتي مرتين لاستدعاء نشرة الجو المحلي، على الرغم من أننا بالكاد سنمضي وقتاً في الخارج. كانت درجة الحرارة في بغداد 52، وهو يوم بارد من كانون الثاني بالنسبة لهذه المدينة، لم أتمكن من مقاومة رغبتي في معرفة أحوال الطقس في ألاسكا أيضاً. 35 درجة. لا بد أن هواءً دافئاً كان يهبّ من الصحراء الكندية الجنوبية

Telegram: @Arab_Books2

ذلك النهار.

"هل اتصلت بوالدك لتخبره أنك وصلت بأمان؟".

"لست مضطراً، جدو. فحالتك تتحدث أوتوماتيكياً بمجرد هبوطك".

"مع هذا، سيسعده سماع صوتك على الأقل".

"سأتصل به عندما نصل إلى ناجوفة".

بمجرد تحلق جميع أعضاء الرحلة الاثنين والسبعين أمام الروبوتات، أوعزنا عباس، بعراقية - انجليزية، بالالتحاق بهما نحو المحطة حيث سنستقل القطار المغناطيسي مباشرة إلى ناجوفة. وقبل أن نبدأ بالمشي، توقفت أم حيدر فجأة بعد أن رأت شيئاً على يمينها. "يااا، المنطقة الحرة!" وفرقعت بأصابعها نحو عباس. "يا روبوت يا حجي! خلينا فد دقيقة حتى نشتري فد شي".

للحظة، بدا بؤبؤ عين عباس المضاء غاضباً، الروبوتات تكره أن يناديها أحدٌ بـ "يا روبوتات". كل واحد منهم لديه صفة عمل رسمية. وإذا علمتنا ثورة الذكاء في الصين أي شيء، فهو أحقيتهم بالاحترام تقديراً لعملهم. منصب عباس هو "المتواصل الآلي للمواقع المقدسة". ولكن التخلص من التحيزات القديمة أمرٌ صعب، خاصة لدى الكبار في العمر.

قال عباس. "لا، ماكو وقت للتسوق، سيفوتنا...".

ولكن قبل أن يتمكن من إنهاء جملته، كانت أم حيدر وأولادها السبعة في طريقهم إلى المنطقة الحرة، بعد أن تركوا حقائبهم الهوائية، مع البعض ممن تبعها.

وقف عباس بجانبي، يهز رأسه غير راض عما حدث. "لا يمكنني

التغاضي عن عدم المبالاة هذه بالجدول، هذا... شقد حوصة!".

"انظر إلى الحملات الأخرى. إنها منظمة جداً". همس جدي في أذني.

تكلم دليل روبوتيّ بأوردو- انجليزية مخاطباً مجموعة من الشيعة الباكستانيين القريبين منا، بينما توجهت مجموعة من الأفارقة الشرقيين الشيعة بانتظام نحو المحطة، يقودهم روبوت قد كُسي بثوب أنيق برتقالي.

اطلب الضال واسترد المطرود[1] . عاد أخيراً كل من عباس ر - 12 وزينب س - 12 من المنطقة الحرة برفقة المشردين من حملتنا، كانت أبواب القطار على وشك الانغلاق عندما وصلنا إلى الرصيف. بعد خمسة عشر دقيقة، توقف القطار في محطته الأولى في كربالافور حيث صعد المزيد من الحجاج.

وفيما كان القطار ينتظر، أخبرت كرسيّاً أن يتحرك بوضعية مستقيمة، متحولة من التدليك "القوي" إلى "اللطيف". "جدو، كم من الوقت استغرقت رحلة والدك من بغداد إلى ناجوفة خلال زياراته؟".

"كان اسمها "النجف" تلك الأيام".

"طبعاً". معلوماتي التاريخية كانت سيئة. علمت أن النجف، نمت بسرعة فائقة بعد العام 2003، وفي النهاية اندمجت كلياً مع المدينة القريبة منها، وهي الكوفة.

"إذاً، أتريد معرفة تفاصيل رحلته الأولى في العام 1979، أو رحلته الأخير سنة 2010؟"

(1) سفر حزقيال 34: 16

"الأولى، 1979"

"في ذلك الوقت، كان في الخامسة من عمره فقط. يقول أنّ الرحلة استغرقت ثلاث ساعات، لكن معظم "ذكرياته" تشكلت مما قصته عليه أمه لاحقاً. أعلم أنهم توقفوا في النصخانة، وهي استراحة على الطريق. تحدث عن تحضير والديه ساندويشة له من بسكويت الشاي الإنجليزي، واضعين بمنتصفها قطعة من الحلقوم. غريبة هي التفاصيل التي سردتها. شبهها بـالسمور[1] ولكنها محشية بحلويات تركية بدلًا من الخطمي".

"هذا من شيم جدتي، فهي دائماً ما تطعم الحلويات للجميع. لا بد أنّ أبي كان لديه الكثير من التجاويف في أسنانه اللبنية!".

"وفي 2010؟"

"استغرقت هذه الرحلة أكثر من سبع ساعات. سبع ساعات طويلة مع أبي، وهو محشور بجانب أبيه فيما كانوا يسمونه "باص" - نوع من السيارات الكبيرة بعدة عجلات ¬- وقد كان في أواخر عقده الثلاثين آنذاك. وقد أخذت الرحلة هذا الوقت الطويل، بسبب توقفهم كل ثلاثين دقيقة عند حاجز جديد. دائماً ما يستهدف التكفيريون هذه الحواجز بالسيارات المفخخة، لأن الشرطة موجودة هناك على الدوام. في كل مرة توقف فيها باص أبي، كان ينظر من النافذة محدقاً بالسيارة على الجانب الآخر، متخيلاً: أنها هي التي سنتفجر الآن".

نظرتُ من النافذة بينما كان يركب آخر الحجاج. كان إنشاء قطار مغناطيسي يربط بغداد بالمدن المقدسة أمراً منطقياً. وأن بناء النظام

(1) وجبة خيفة، عبارة عن بسكويت محشو بقطعة من الشوكولا وخطمي محمص

بأكمله تحت الأرض لا بد كان لأسباب أمنية.

"وافق والدي على القيام بالرحلة الثانية في 2010، ببساطة ليرافق والديه الذين كبرا في العمر، خوفاً على سلامتهما. فلقد أصرا على الذهاب تلك السنة، على الرغم من خطورة الأمر، لكنهم كانوا مقتنعين أن الولايات الأمريكية كانت على وشك إقامة نوع من حكومة بعثية جديدة، في محاولة أخيرة لاستعادة شكل ما من النظام. وكلما كان والدي يهزأ من نظرية المؤامرة هذه، كلما ازداد تعلقهم بها".

تحرك القطار المغناطيسي مجدداً.

"لماذا كان جداك خائفين كثيراً من البعث؟"

" لم يعش جديّ، مرتضى وبيبة، في العراق طوال فترة حكم صدام. واستمرت تلك الفترة ما يقارب العشرين عام. كانا خائفين من أن يُرميا في السجن في حال عودتهما. مجرد العيش في الولايات المتحدة كان كافياً بالنسبة للمخابرات لاتهامك بالتجسس".

"آه، تقصد المخابرات القديمة؟".

"أتذكر عبر قوالب الشخصيات التاريخية، أنّ "المخابرات" كانت تعني البوليس السري لصدام المنتشر في كل مكان. - المختلف كلياً عن المخابرات الحالية - "مديرية روبوتات الشرطة العامة"، حيث تم ابتكارهم لحرق ما تبقى من الخلايا النائمة التابعة لـ داعشال، الدولة الإسلامية في الأردن، سوريا، العراق ولبنان في أواخر عام 2080م.

لم يخبرني جدو لماذا هو - شخصياً - لم يزر العراق. أبو عيسى، إبراهيم، لم يرغب أبداً في أخذهم إلى هناك. أعلم أن جميهم نشأوا في

بالتيمور، بينما كانت الحروب مندلعةً في العراق، ما جعل من أي زيارة أمراً مستحيلاً، ثم، أصبحت الفيزا إلى المناطق النفطية شبه مستحيلة عندما انتقلوا إلى ألاسكا، التي أعلنت استقلالها. مع هذا كان بإمكانه القيام بعدة زيارات مؤخراً، ولكننا شعرنا أنه خائف بعض الشيء. نشراته الصوتية قبل النوم، المسجلة لنا كأطفال، كانت تُقصّ كلها بصوت هامس ونبرة وقورة، حتى عندما كان يصف النجف في الأوقات الصعبة، ولكنه استوحاها وحاكها من ذكريات مبددة لأشخاص آخرين. ولأنه لم يذهب قط إلى هناك. اتخذت القرار أخيراً أن أشحطه إلى هذا المكان، متمنياً أنه سيدرك أن ما من شيء يدعو للخوف؛ تجارب جديدة في المكان قد تندمج مع أساطير موروثة قديمة، فالحالتان لا تتقاطعان. كان جدو يقول دائماً أن الرحلة في 2010، بدلت حياة والده -عيسى - وكانت نقطة تحول في حياة العائلة كلها. لم يعد أحد منهم بعدها.

لحسن الحظ، كان الفندق ذا العشر نجوم الذي نزلنا به، متصل بالمحطة عن طريق ممر متحرك ومكيّف. بدا من عدد الحجاج الكثيرين المتجهين نحوه، أن عراقيّ ألاسكا هم فقط من نزلوا به، ومن المسلَم به أيضاً أن جميعهم كانوا أطباء. كانت الساعة الثامنة والنصف مساء ودرجة الحرارة في الخارج 51.

"أتمنى لو يتحرك هذا الشيء بسرعة أكبر". تذمرت.

"هل تعلم أن كل ناقلات الحركة الآلية كانت ممنوعة في النجف في 2010". بدأ جدو. "هؤلاء التكفيرين كانوا يستهدفون الأسواق بسياراتهم المفخخة. لذا لم يسمح للسيارات بدخول المدينة. تصور السفر لساعات بالباص، مثل ما فعل والدي، لتنزل بعدها فقط على أطراف المدينة. "شكراً لله" كان يقول والدي. "للشبان الصغار هم وأحصنتهم وعرباتهم الخشبية

التي تخرج من اللامكان لحمل كل متاعنا، وحمل بعض الكبار في السن أيضاً". هل تتصور المشي بجانب حيوان!".

"زين. افتهمت. وصلت الفكرة، سأتوقف عن التذمر".

عند استقرارنا في غرفنا، أوقفت نشاط حقيبتي الهوائية وشاهدتها تحوم في الهواء إلى أن سقطت بلطف على الأرضية. "اتصل بدكتور علاوي". قلت. من الصعب إيجاد شخص ما ليتابع جدول الجراحات السطحية للرقاقة العصبية في المستشفى، كما أردت الاطمئنان على زوجتي وحال تأقلمها مع حجم العمل الزائد. لكنها لم ترد.

"هل اتصلت بوالدك؟".

"أجل... سأفعل... فقط دعني أرتاح لدقيقة".

في محاولة مني لتشتيت انتباه جدو، اتجهت إلى الشباك وأشرت إلى الأسفل. "انظر لدينا إطلالة مميزة على الحضرة!" نقرت لتنشيط شبكة عينيّ التيلسكوبية، ومسحت ضريح القبة الذهبية وأربعة مآذن مضاءة بأضواء الكاشفة.

"ما هي هذه الحضرة الصغيرة بجانب الإمام علي؟".

صمت جدو للحظة. "أبي لم يذكر وجود حضرة ثانية". ثم نقر أصابعه. "آه. لا بد أن هذا ضريح السيد علي السيستاني. تمكن السيستاني أخيراً، وفي نهاية العام 2020، من وقف القتال بين العراقيين. وعندما توفي في الخمسينيات، اندفع كل الشيعة، والسنة والمسيحيين والسوشي إلى الشوارع حزناً عليه".

مجدداً جاهدت حتى أتذكر قوالب الشخصيات التاريخية. السوشي

-هم الأطفال الناتجين عن عملية التزاوج بين السنة والشيعة - وقد شكلوا ميلشيا خاصة بهم في بداية العشرينيات، واخرجوا التكفيريين من المدن إلى الصحراء. هذا عندما كان اسمهم داعش فقط، ولكن في الصحراء أعادوا تنظيم أنفسهم ووجهوا هوسهم نحو الأردن ولبنان وأصبحوا داعشال. لم يكن بالإمكان تصور أن هؤلاء المجانين يدبون الرعب في قلوب الجميع، كمجموعة إرهابية، وأنهم كانوا مخيفين أكثر من التجمع المسيحي لـكانساس وأركانسس (تمكأ).

حدقت في الأفق الممزق أمامنا.

"وصف أبي هذه المدينة في 2010 بمدينة الأشباح".

"هذا كان منذ تقريب القرن، جدو". عندما نشحت آبار النفط العراق عام 2050. أصبحت حركة الحج في العراق أكبر مولد للإيرادات، جاعلة من مدن مثل ناجوفة، كربلاء والكاظمية أثرى مدن الأمة.

"آني كلش تعبان". قلت، وأمرت سريري بإبعاد الأغطية والشراشف. ثم استلقيت على حافته وحللت باطن القدمين من بذلتي. "سآخذ حمام البخار في الصباح، قبل ذهابنا إلى الحضرة".

"إذا أنت مرهق، تخيل كيف كان شعورهم". وبدأ بفتح الباب على مجموعة أخرى من المقارنات. كان لدي شبه توقع بأنه سيتجهم بمجرد وصولنا إلى هنا، وسيصاب بخيبة الأمل لأن ما رسم في مخيلته مختلف كل الاختلاف عن الواقع. وتوقعت أن من سيتحدث طيلة الوقت هو أنا. ولكن لا حظ.

"هل أنت جوعان؟".

Telegram: @Arab_Books2

"لا جدو. تناولت حبة الغداء في المطار". جاوبته، وأنا مستلق على وجهي.

"زين. ما رأيك أن نذهب إلى الردهة لشرب بعض الشاي".

"شاي!". جلست. "أنت تعلم أنه لا يمكنك شربه".

"أعلم، ولكن أريدك أن تجرب أول كأس لك من الشاي العراقي الحقيقي".

"خوش. سأطلب من أحد روبوتات الشاي أن يجلب لنا بعضاً منه". قلت باحثا عن زر خدمة الغرف.

"لا، أريدك أن تشربه في الردهة".

نظرت نحوه.

"لو سمحت. حتى تجعل جدو سعيداً. لنحظى بلحظة خاصة معاً، ونخلق ذكرى جديدة".

"أوك... أوك".

مع الرشفة الأولى، قلت. "جدو، أتمنى لو بإمكانك شربه معي".

"ما يخالف. الشاي الذي تشربه الآن لا يمكن أن يشبه الشاي الذي كانوا يشربونه قديماً. في القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين، كان العراقيون يصنعونه في السماور، بنصف كأس من الشاي ونصف كأس من السكر في قاعه".

"سماور، شنو؟" سألت، وأنا أنفخ على الشاي لتبريده.

"كانت أداة غريبة الشكل، حيث الماء المغلي في الأسفل، يرشح للأعلى عن طريق أوراق الشاي الموضوعة في غرفة أعلى الأداة. بدون شك، لا بد

أنّ السماور الآن يقبع في مكان ما داخل روبوت الشاي. ومن الواضح أنه لا يمكنك رؤيته... والأوراق، بالطبع هي اصطناعية الآن".

"لا أستطيع تخيل مذاق الشاي مع سكر حقيقي. شديد المذاق، أعتقد". حدث القحط العالمي العظيم قبل ولادتي. بعد ذلك، أصبح محتكرو الجلوكوز هم المساهمون الوحيدون في الحقول القليلة الباقية من قصب السكر، وارتقى امتلاك كمية غير مقننة من الجلوكوز إلى جريمة بمستوى حيازة مخدرات اصطناعية.

توقف جدي عن الكلام، بعد أن لاحظ امتلاء الردهة بالآخرين – عائلات مع أطفال يركضون، وحجاج عائدين من آخر صلواتهم المسائية.

"يبدو، أن جل ما أراده جدي، هو الجلوس في النجف داخل ردهات الفنادق، وشرب الشاي. رافقه والدي، متردداً، ومتوتراً، بعين فاحصة تراقب كل شخص حوله، متوجساً من كل حاج، ومن كل فرد من موظفي الفندق، شاكاً أنهم من التكفيرين. خُطف عمّ والدي، الذي كان يعيش في بغداد بعد الـ 2003، وقد عُرف عنه الثراء. عندما جاء موعد دفع الفدية، حاولت عائلته المقايضة على السعر، وأنت تعرف، أنّ "المماحكة" هي من اختصاص العراقيين".

"لهذا قالت لكم جدتكم ألا تقولوا أبداً أنكم من أميركا". قلت، مشوحاً بكأس الشاي طلباً بسكب المزيد منه.

"بالطبع". وفي نفس اللحظة التي انتهى الروبوت بها من سكب الشاي، سأله جدو إن كان من النجف، عندما رد الروبوت بـ "نعم". أضاف جدو. "جد جدي، حسن، كان من النجف". ثم بدأ بإعادة سرد رقعة واسعة من تاريخ عائلة الأب: مستذكراً رحلة حسن إلى النجف في العام 1920، وسجنه

Telegram: @Arab_Books2

من قبل البريطانيين، كيف اكتشف أن أحد حراس السجن هو واحد من جيران حسن السابقين، وهو من ساعده على الفرار، والهرب نحو إيران، ليصعد أخيراً على متن سفينة متجهة نحو زنجبار. وقف النادل بابتسامة على وجهه فهو يعرف البروتوكول. "الصمت في حضرة الضيوف كبار السن". أمتعه جدو بسرد أجود خصال ابن حسن، مرتضى، محدثاً إياه عن رحلة الأخير إلى بغداد في الخمسينيات لدراسة الطب، وكيف سافر بعدها إلى لندن، ليصبح مواطناً بريطانياً، ثم عودته إلى بغداد بغرض الزواج، لينتقل بعدها إلى ميرلاند ، لممارسة علم الأعصاب في جامعة جون هوبكينز. من حظ جدو أننا لم نكن في العام 2010. وإلا كان سيطيب له الصراخ في الردهة، أنا أمريكيٌ شماليٌ ثري، اخطفوني!

تثاوبت بين الرشفات وأنا أشرب كأسي الثاني.

"حسناً. أنت مرهق، بإمكاننا الصعود إلى الغرفة". بالكاد أراد أن يراني مسترخياً في ردهة فندق من غير الخوف الذي انتاب والده، والذي أشكّ أنه يعاني منه أيضاً. "لا، أنا أسمع. تابع الحديث".

"ارتاح... فغداً لدينا الكثير من المشي. وفي الحرّ أيضاً".

اعتقدت أنني لن أصاب بالأرق. أخذت نفحة من الماء البخاري على المنضدة، وفكرت بالاتصال بزوجتي. وحتى والدي ربما. وقفت ومشيت نحو الشباك. كانت الساعة الثالثة فجراً وما زالت البروجكترات مسلطةً على الضريح.

"ألا تستطيع النوم؟". قال جدو ضاحكاً.

انتظرت في العتمة جملته الثانية. وللحظة شعرت أنه لن ينطق بها.

" لم يتمكن أبي من النوم خلال ليلته الأولى في النجف".

"هذه هي".

"ما هي؟ على كلٍ، تسمم والدي بسبب كباب تناوله وقد بقي الليل كله يتقيأ. اضطرت بيبا إلى الجلوس بجانبه كل الليل. رجل في أواخر عقده الثالث تقلص إلى فوضى مبعثرة على أرضية الحمام، بحاجة عطف أمومي".

"عاد إلى النجف ليتواصل مع جذوره العراقية، وجل ما عاد به هو بعض الفيروسات العراقية!".

"مضحك".

"عاد إلى العراق ليحرص على سلامة والديه. ولكن انتهى الأمر باهتمام أمه به".

غرق جدو في صمته.

"إذا هل أعطته برايلوزيك لإزالة حامض المعدة من حلقه؟".

"مدهش جداً. إذاً علموك في كلية الطب عن الأدوية التي استعملت في القرن الواحد والشعرين. أجل، اشتهرت بيبا بحقيبتها المليئة دائماً، وفي أي وقت، بشتى أنواع الأدوية المعروفة لجنس البشر. تناقشا بيبا ومرتضى خلال الساعات القصيرة من تلك الليلة حول أنسب دواء لحالة إبراهيم المسكين. من المريح أن يكون أحد الوالدين طبيباً - كان يقول والدي - لكنها لمصيبة إن كان الاثنان أطباء".

حدقت بالسقف. "كيف تعرف كل هذه التفاصيل، وبهذه الدقة جدو؟ فلم تكن أنت من قمت بهذه الرحلات!".

"سبق وأخبرتك. إنها القوالب التي سجلها أبي - إبراهيم - قبل مرضه.

عندما أصابه مسّ بنشر مدونة ذاتية قام بإنجاز دزينات منها في السبعينات. وقد وجدتهم منذ عدة سنوات وطلبت من صديق أن يحولهم إلى ملفات بصرية. الآن أنا دائم الاستماع لهم. تعال". جلس فجأة. "دعني أسمُعك الجزء الخاص بالليلة التي مرض بها". نقر جبهته ثلاث مرات وغمغم بسلسلة كلمات مطلبية بسرعة. كأنها همهمات خافتة قالها لنفسه. "أرشيف". "إبراهيم". "النجف". "2010". "الكلمة المفتاحية مسدس بلاستيكي". "تشغيل الفقرة".

انبعثت الحياة فجأة في أجواء الغرفة، متفجرة مع الضجة الغريبة والصاخبة في الخلفية، يصحبها صوت رسمي جداً مما يجعلك تشعر أنك في مسجد.

"بالكاد كانت الساعة الثالثة فجراً". انبثق الصوت. "عدت إلى سريري، واستلقيت هناك محدقاً في الشباك، منصتاً إلى أمي وأبي وهما يتناقشان. بدت واجهة الفندق كلها وكأنها مصنوعة من الزجاج، هل تفهم، وسريري كان ملاصقاً لها تماماً؛ الحائط بأكمله كان عبارة عن نافذة. وهكذا، كنت مستلقياً على جنبي، أتفرج على العالم الليلي في الأسفل. كنا فقط في الطابق الثالث، وكنت أرى بوضوح شرطياً يقف على حاجز، يمسك شيئاً بيده. كانت أداة غريبة الشكل -مثل مسدس بلاستيكي يخرج منه أنتين فضي اللون من الأعلى. توقعت أنها أداة للكشف عن السيارات المفخخة. كانت تقوم بمسح نوع من شبكة الأسلاك التي عادة ما تستخدم في الأجهزة المتفجرة فقط. لا بد وأني رأيت أدوات كاشفة أخرى، ولكن بينما كنت مستلقياً هناك لم أتمكن من التوقف عن التحديق بهذه الأداة الغريبة الشكل، متسائلاً: في حال أومض الضوء في أعلى الجهاز، ما هي ماهية العملية، ماذا ستكون الخطوة الثانية، أطلق الرصاص لتقتل فوراً - اعتقدت - على أمل ألا تكون قراءة الجهاز خاطئة.

بالكاد كان الآذان مسموعاً، في الخلفية.

"بالطبع، لم يكن هناك ازدحام". تابع الصوت كلامه. " كان مسموحاً للسيارات الرسمية فقط بالتوغل في المدينة. لكنه ما زال واقفاً هناك، مثل تمثال، موجهاً تلك الآلة على شارع فارغ. علمت لاحقاً أنّ هذه الآلات لم تكن أبداً ذات نفع. كان قد كدس رجل بريطاني الملايين من بيع هذه الأشياء للحكومة العراقية، حيث أصبحت قضية أساسية على كل حاجز. اكتشف فيما بعد أنه أعاد تشكيل تقنية للكشف عن المعادن، مجهزة للكشف عن لا شيء أبداً".

"كم تغيرت الأشياء". قال جدو، ناقراً مرتين على رأسه لوقف الشريط، قبل أن يهمهم. "شغل".

"بعد التعريف بالروبوتات العسكرية في منتصف العشرينات. جلبت الحكومة العراقية جيشاً من الروبوتات لاستبدال أفراد الشرطة على الحواجز. مجساتهم كانت قادرة هذه المرة على التقاط الأشياء فعلاً - سمتكس، نتروغليسيرين، نابالم - ومن مسافة نصف كيلومتر. أضحت السيارات المفخخة موضة قديمة. كما هي الحال مع ثقافة الخوف والارتياب. خلال الحروب الطائفية، كانت تطلب الشرطة على الحواجز هوية السائقين، ومن اسم العائلة يستطيعون معرفة سواء كان السائق شيعي أم سني. إن كنت سنياً فلم يكن مسموح لك بالدخول. بدأت مناطق الشيعة بتطوير حكم ذاتي، مثل محافظة الصدر، والتي طورت وبنيت مما كان اسمه "مدينة الصدر"، وهو امتدادٌ لبغداد الفقيرة؛ وقد أصبحوا محافظات مستقلة، متصلة عبر أنفاق شيعية، وشيعية فقط. في الأيام الحالكة للحروب، كان من المحتمل أن تموت على أي حاجز وفي أي يوم من الأسبوع، فقط لأنك تنتمي للفريق الآخر. وعلى النقيض، كانت الروبوتات كالملائكة الحارسة.

كان اهتمامهم منصبٌ على الكيميائيات القابلة للكشف، لا يعنيهم تاريخ العائلة أو الولاءات المحتملة. الروبوتات لم تسألك عن هويتك. وفجأة، شعر الشعب العراقي بالحرية من جديد.

"بكل الأحوال، كنت مستلقياً على سريري، واستمريت أحدق بهذا الشرطي لساعات. كنت أتخيل ما الذي سيحصل لو برزت سيارة في آخر هذا الطريق الفارغ، وتوجهت مسرعة باتجاهنا، ماذا لو لم تكن رصاصة الشرطي دقيقة وثاقبة. سيبعثر الانفجار زجاج هذا الشباك الممتد على طول الحائط ليطمس معالمنا نحن الثلاثة. كان لدي إحساس قوي، ومفاجئ، بماهية شعوري لو نزفت حتى الموت، أو قطّعت أوصالي. أعضاء مختلفة من جسدي، تبعثرت في أنحاء متفرقة من الغرفة".

تمددنا أنا وجدو في الظلام. استمرت الضوضاء في الخلفية، لكن الصوت توقف. خطر لي أن الحج من المفترض أن يكون رحلة روحية، ولكن بالنسبة لجدو، كانت هذه رحلة من الموت، راندیفو مع الأشباح. هل كانت هذه النقطة الفاصلة في حياة أبا جدي؟

أمرت البطانيات بتغطيتي مجدداً، وعزمت على النوم. لكن جدو لم يكن قد انتهى بعد.

"شيء ما في هذه الجملة. يلاحقني"، قال جدو، ومن الواضح أنه كان يتحدث مع نفسه الآن. " أعضاء مختلفة من جسدي!".

"نام جدو" تجهمت. "نام".

في صباح اليوم الثاني، نزلنا مجدداً إلى الردهة. وطلبنا من روبوتات الفطور، إعطاءنا المزيد من القهوة البخارية، وقد استنشقنا البخار بهدوء ورضاً لذيذان. "أها. هذا أحسن". تنهد جدي - وكانت هذه أولى جمله

المصاغة لهذا اليوم – ثم همهم بشيء للروبوت الذي عاد وبيده شيء يشبه الكريمة البيضاء. "الآن. هذا هو القيمر". قال جدو بحماس. "بالأصل كان يصنع القيمر من حليب الماعز الطازج، مخلوط بشكل من أشكال الجلوكوز التي كانت تصنعه الحشرات... الحشرات، هل تصدق! كانوا يسمونه "العسل". ثم هناك الخبز... الصمون، الذي يؤتى به طازجاً من الفرن ذلك الصباح، مصنوع من القمح الطازج المقطوف من حقول ذلك الصيف".

جربت ملعقة من المادة. "أعرف، أعرف... لا شيء يشبه ما كان عليه في أيامك". جاوبته وما زال فمي مليئاً بالطعام.

صمت جدو للحظة ثم سأل. "هل خابرت والدك لتعلمه بوصولك؟".

أكلنا في صمت. بعد نصف ساعة، دخل كل من عباس ر 12- وزينب س 12- إلى الردهة ليعلمانا بأنّ الرحلة المتوجهة نحو مزار الإمام علي كانت على وشك المغادرة، لذا يجب أن ننهي فطورنا سريعاً.

بينما توقفنا خارجاً في الحر، تساءلنا كم سيكون الحر شديداً لو أنّ التكيف الهوائي على مستوى الشارع لا يعمل. بينما نقلنا الممشى نحو المزار، كان الباعة يصعدون وينزلون بلا توقف، محاولين بيعنا أي شيء من بساط ريح للصلاة ومجوهرات التفلون الفيروزية اللون، وصولاً إلى المتاجرة بزرع الأعصاب. لم ينجذب أي منا للبضاعة، وقبل انتهاء الدقيقتين المخصصتين لهم، كان البائعون قد نزلوا عن الممشى بأدب. أصبح الآن مزار الإمام علي أمامنا، تحلق على منصة الهبوط جمعٌ كبيرٌ من الحجاج. وكان على دليلينا الروبوتيين شق طريق لتسهيل لمرورنا. بينما مشينا، نقرت على جبيني: "المرجع: ما هو تعداد سكان ناجوفة الحالي؟" محرك البحث المزروع أخرج النتيجة. "ثلاثة ملايين وخمسمائة واثنتان وسبعون ألفاً

وثمان مئة وثلاثة وأربعون. ما عدا الزوار". آلاف الزوار أضيفوا إلى هؤلاء، قادمين طبعاً بالقطار من بغداد وطهران كل يوم.

"كان عدد سكان النجف نصف مليون فقط في الـ 2003". تدخل جدي.

بعد أن أبلغني بتقديره كيف أن نسبة عدد السكان المحليين كانت مبنية على عقود مؤقتة مع الناس، ولهذا هي، "ليست دائمة". غرق في صمته مجدداً. لا بد أنه بُهر بتعدد واختلاف اللغات من حوله ونحن نمشي في الجادة المفضية إلى الضريح. في جيله كانت هناك العربية الأساسية، أو الفصحى، والعامية العراقية أو اللهجة المحلية، والتي تختلف قليلاً من مدينة إلى أخرى. لكن كان يسمع هنا تنافراً في نغمات مزيج اللهجات هذا: سوارني-درية، فرانكو-فارسي، كرمنجي-تركمان. بدت الناس مشوشة تماماً في اختيارها لخلط ماذا بماذا.

مع دخولنا إلى الضريح، اقترب منا ثلاثة من روبوتات الانتخاب، بعد أن لاحظوا لهجاتنا. بعد أن أصبح بإمكان العراقيين في الشتات المشاركة في التصويت المحلي، بدأ استهدافنا بوعود الشعارات والبيانات بالنيابة عن حزب ائتلاف دولة التكنولوجيا.

"كان هناك شيء اسمه "انتخاب" خلال السنة التي جاء بها أبي إلى هنا". تحدث جدو من جديد، بحتمية نوعاً ما. "في تلك الأيام لم يكن السياسيون أكثر من رؤساء قبائل، أو شخصيات دينية، أو قوات مسلحة تريد توسيع نفوذها. شُرع بتشكيل ائتلاف من قبل أشخاص عاديين، محترمين وجديرين، ولكن براءتهم كانت السبب في فشلهم".

"ولكن الانتخابات الحديثة لا تقل فساداً". قلت مقترحاً ونحن نمشي باتجاه صحن الضريح. لا تطأ قدم أيّ من الساسة البشريين اليوم بين عامة

الناس لتوصيل رسائلهم، وأكثر الأحزاب نجاحاً هي تلك التي حققت ببساطة أروع الصفقات مع ملاّك محرك البحث. في زمن والد جدو، اعتادت الناس التصويت لبرنامج الحزب السياسي أو الديني. أما كل ما يحسب الآن هو الانتماءات الرقمية. كلهم يدعون تمثيل الإنسان والروبوت بمساواة، ولكن في الواقع جزء صغير فقط وحصري من المساهمين البشر هم من كانوا وما زالوا يصنعون صفقات محرك البحث، خلف أبواب مغلقة.

بينما ملأت حملتنا الصحن، ذهبت النساء إلى قسمهن، برفقة دليلتهن زينب، في حين تبعنا نحن عباس. اثنان من الروبوتات الحارسة وقفا على الباب يتفرسون بلغة أجسادنا بدقة في حال أثارت حركة أحدهم "تهديداً" لخوارزمياتهم: تعرق كثيف، ارتجاف، وارتعاش، وتوتر في الصوت وإلى ما هنالك. منذ ثمان سنوات، قام تكفيري نائم، بنشر "مدونة ولاء" خاصة بالدولة الإسلامية "داعشال" الداخلة في حالة من السبات، وذلك قبل أن يخطف روبوت شاي ويقوم بتهكيره. اقترب روبوت الشاي من مسجد معروف في كربلافور، والمتفجرات تملأ هيكلاً مبطناً بالرصاص في داخله ما جعله غير قابل للكشف. لم يكن من الممكن له أن يعرف أنّ جامعي القمامة في الشارع كانوا في الحقيقة روبوتات متخفية تابعة للمخابرات. بمجرد كشف تعليمات برمجة أوامرها لحلقة سلامة مغلقة. أطلقت المخابرات شعاع التاو[1] بين قدميه، معيقتاً إياه تماماً. لتجعل منه عبرة لغيره من الروبوتات، حيث تمت محاكمته، وثبتت إدانته، وتفكك ببطء، بنسق الطاقة الكاملة، وعُرض الحكم مباشرة لجميع الناس على شاشة تلفزيون هولو.

(1) الحرف التاسع عشر من الأبجدية اليونانية

منذ ذلك الوقت، أضحى هناك خوف لدى الجميع من القيام برحلات الحج. حتى أن بعض الرحلات كانت تقدم "وصايا فورية" كجزء من خدماتها، فقط للحاجة.

"من الغريب دخول الحضرة بهذا الشكل". قلت بينما كنا نمشي عبر الصحن باتجاه نافورة الوضوء.

رد جدو. "ما الغريب في الأمر؟".

فككت سحاب القدمين واليدين لبذلتي، مع وصولنا إلى النافورة. اقترب مني روبوت وضوء، ووقفت قبالته بينما قام برش بخار الماء المالح على يدي. لا بد أنها كانت محلاة، آتية عبر أنابيب القنوات الرابعة والخامسة من الخليج. حيث أنها كانت عديمة الرائحة. غسلت وجنتاي، ثم ذراعاي، وقدماي. وأصبحت جاهزاً للصلاة.

"إن لها نفس الشكل تماماً". قال جدو. "تماماً كما كانت في كل تلك الصور".

كان محقاً نوعاً ما. فالضريح الذي كان يغطي الإمام علي غالباً ما زال هو نفسه. لكن المجمع قد خضع لتغيرات هائلة وتوسعات ليناسب ازدياد عدد الحجاج.

نقرت مرتين لتكبير شبكة عينيّ، حتى أتمكن من مسح المجمع بالكامل: الثريات الكرستالية، والجدران الزجاجية العالية، وأخيراً الهيكل المعرّق بالذهب والفضة الذي كان يلف جسد الإمام علي، وقد كان كبيراً ومربع الشكل. كان الضريح محاطاً بفوج من الحجاج، وأنا، مثل الجميع، دفعت بنفسي بين الحشود للمسه.

"محمد، كن حذراً. لا تدفع الآخرين. كن صبوراً، ولا تكن مثل والدي عندما رأى الضريح لأول مرة".

أمسكت التعشيقة الفضية بيدي اليمنى، وأشرت على جدي بيدي اليسرى ليتقدم للمس الضريح أيضاً، وخلال كل هذا لم يتوقف عن التمتمة بالصلوات. كان هناك الكثير من الحجاج الذي أرادوا لمس الضريح، بالكاد تمكنا من الوقوف هناك لدقيقة قبل مجيء الروبوتات الحارسة لتدفعنا إلى الأمام.

وجدنا مكاناً فارغاً على بعد عدة أمتار، وذهبنا للجلوس على سجاد الأرضية، ناظرين إلى الضريح والحجاج المتحلقين حوله.

"أتعلم، لوالدي ذكريات مع هذا الضريح عندما كان فقط في الخامسة من عمره. علق كل هذا الكريستال، في ذاكرته. قال لي أنه كان يحمل في جيبه قناع الحارس الوحيد،[1] كان يسميه "كاوبوي" - خُلق هذا النوع من الشخصية الاسطورية البطلة منذ قرون خلت - وقد اعتادت هذه الشخصية أن تلبس قناعاً أسود حول العينين. كان والدي يضع القناع بشكل طبيعي، فقط لتصرخ عليه أمه. "لا يمكنك أن تتقمص شخصية الحارس الوحيد في الحضرة!".

ابتسم كلانا. "عندما جاؤوا مجدداً في الـ 2010، جلس والدي وجدي - من يعرف، ربما في هذا المكان بالضبط - " تابع جدو. "ولكن بمجرد

(1) الحارس الوحيد (The Lone Ranger) هو شخصية من نسج الخيال عن حارس من تكساس كان يرتدي قناعاً ويحارب الظلم في أمريكا الغربية القديمة مع صديقه الهندي تونتو. هذه الشخصية أصبحت رمز دائم في الثقافة الأمريكية

Telegram: @Arab_Books2

ارتياحهم لعدة دقائق قفز جدي فجأة: "يجب أن نذهب ونعثر على أمك!" اعترض أبي. "بابا، ولكن الآن وصلنا. ألا يمكننا الاستمتاع بهذا على الأقل!" ولكن جدي لم يفارق بيبي في حياته لأكثر من خمس دقائق، وكان بأمس الحاجة ليكون معها مجدداً. كانوا في حضرة شريفهم ومبجلهم الإمام علي، والذي لم يروه منذ عام 1979، وجل ما فكر به جده هو التواجد مع بيبي. فلم يكن كافياً وجوده هناك مع ابنه الوحيد. وهكذا لملما نفسيهما وذهبا للبحث عنها. كانت ما تزال في قسم النساء، واضطرا لانتظارها على المدخل لأكثر من ساعة قبل أن يرحلوا. وكانت هذه نهاية الرحلة".

"لا أفهم". أخيراً انفجرت. "لا أفهم، جدو. ما المهم في هذه الرحلة؟ لماذا قضيت سنوات وأنت مهوس بها؟ هذه كانت قصتهم وليست قصتك!".

وعلى وقع نبرة صوتي، توقف ثلاثة روبوتات حارسة وروبوت مؤذّن في اللحظة نفسها وتوجهوا نحونا.

"سأصل إلى هذه النقطة، محمد. هذه الدقائق الخمسة التي جلسها والدي في حضرة الضريح كانت كافية لتغيير حياته. فقد أدرك أثناء جلوسه مقابل جسد الإمام علي، أن هذا لم يكن مجرد مكان للشيعة، ولم يكن حتى مجرد مكان للمسلمين، بل كان يتمتع هذا المكان بخصوصية بالنسبة لكل الناس، ومن كل الأديان، وحتى بالنسبة للادينين أيضاً. هذا المكان هو مكان لإعادة التواصل. وهذا ما الذي جعل بابا يكره حرب 2003 كثيراً، كما الحروب الطائفية التي تلتها. لم يكن يفكر قبل الـ 2003 مَن من أصدقائه شيعي ومن سني. لاحقاً أدرك أن معظمهم كانوا من السنة، قبل الاحتلال. ولكن بعد الـ 2003، أصبح تفكيره منحصراً في هذا. خُطف عم بابا وقتل في الـ 2007. ما ألهب حقداً كان مشتعلاً في داخله ذلك الوقت. ولثلاث سنوات لاحقة، كان غضبه في تعاظم، مما رسم هالة من السواد حول عيونه. اعتاد أن يقول لي.

"في قلبي، كنت سيئاً مثلهم". ولكن جلوسه في الـ 2010 لمدة خمس دقائق هنا، جعلته يدرك أنه لا وجود لا لشيعة ولا لسنة، فقط أخوة وأخوات – هذا لم يكن مجرد مكان للشيعة، بل هو مهجع الإمام علي وهو أحد الأجداد العظماء المعروفين. لهذا يسموننا "السادة"، محمد. حيث بإمكاننا تتبع سلالتنا إليه. وفي تلك اللحظة فكر بابا مع نفسه وهو جالس هناك. "ما رأي جدنا علي، بما أصبحت عليه، شخص استهلكه الحقد والانتقام. ماذا سيكون رأيه وهو يراني أصدر الحكم على شعب كامل على أساس ما فعله عدد من المجرمين؟". وفقط عندما كان والده مهتاجاً لإيجاد بيبي، شعر والدي، إبراهيم، فجأة بأن كل الحقد الذي يشعر به قد بدأ يتحرر.

انتبه لي وأنا أنظر للأسفل، فتوقف.

"قال لي والدي أن وجوده هنا جعله يفكر بأسلافه الآخرين. عندما لمس التعشيقة الفضية في الـ 2010. أدرك أنه يلمس شيئاً لمسه والده، ووالد والده عدة مرات في الماضي. شيءٌ، على سبيل المثال، لا بد أن جد جده حسن لمسه عام 1920، قبل أن يهرب وعائلته من المدينة، بعد أن شارك في الثورة العظيمة ضد البريطانيين. وعندما حاول حسن العودة من زنجبار عام 1960 عن طريق البر الأفريقي، وصل إلى حد أروشا في تانزانيا، قبل أن يدفن في أسفل تلة في كيليمنجارو. وبالطبع، مات قبل ولادة أبي".

"ما لا يمكنني فهمه هو". قلت بحذر. "لماذا لم تأت إلى هنا من قبل؟ منذ سنين وأنت تتحدث عن رحلة والدك في الحج، ولكنك لم تأتي أنت إلى هنا أبداً".

كان جدو هادئاً. "ذهبت مرة في رحلة حج أخرى". بدأ بالحديث أخيراً. "ذهبت مع والدي، إبراهيم في السبعينات بعد وفاة أمي. ذهبنا إلى

زنجبار للوقوف على الجزيرة، أملاً منه في التواصل مع الطبيعة التي أحاطت بطفولة والده. على الأقل، كانت هذه الخطة. ولكن لا شيء على أرض الواقع بدا مثل الصور القديمة. في ذلك الوقت كانت مجرد صحراء. ولكن بينما كنا هناك، تمكنا من الانتقال إلى أروشا لزيارة قبر جده حسن".

"لم يسبق لك أن قصصت لي هذا، جدو".

"كانت هذه أفضل رحلة حج لي، محمد. حتى مجيئنا اليوم".

ابتسمت له.

"وكان والدي إلى حد ما مزعجاً في السفر مثلك تماماً!". ضحك

"إذا، جد جد جدك مدفون في أفريقيا؟ ماذا عن جد جدك؟".

"إنه قريب من أوتوستراد في شمال كاليفورنيا".

"أتمنى لو كان باستطاعتي مقابلتهما. ولكن لماذا لم تأت إلى هنا؟".

"أنا أحاول أن أقول لك. أترى، من متاعبي الخاصة مع والدي، أني قمت بتألّيه أسلافه بدلاً من أشخاص كحسن. وأعتقد أنك تقوم بذات الشيء معي... لا تغضب من والدك لأنه يتمنى إنهاء حياتي. رؤيته لي متحولاً إلى فرد يعذبه. إدراكه أني جزء أوليّ من آلة، وأننا جميعنا سنتحول قريباً إلى آلات يؤرقه، أكثر مما يؤرقني". تألقت عينا جدو الزرقاوان تحت أشعة الشمس. "من توقع أنه هو من بيننا سيكون محافظاً وطرازه قديم. وليس أنا؟ كنت سعيداً بدخولي الهادئ في ليلة العضوية تلك. ولكن ما أرّق هذا هو مجيئك أنت".

"لماذا تخبرني بهذا؟".

"لأن كل هذا قد حدث مسبقاً، يا ولدي. لم أكن صريحاً معك. لقد اكتمل

التحول. ونحن لم نتحدث عنه، ولكنك تعرف أنه حقيقة. أنا الآن لست سوى صورة ثلاثية الأبعاد؛ محض شبكة خوارزميات تستجيب للمؤثرات وتقوم بتشغيل سيناريوهات مسجلة بواسطة نسيج مزروع حملته معي لسنوات، ولأتمكن من مرافقتك في هذه الرحلة تحولت لتزرع فيك، يا محمد ".

حدقت فيه.

"قالوا أنّ هذا الجزء سيربكك".

"أي جزء؟" اندفعت. وكنت أرتجف. ولكن الروبوتات الأمنية كانت قد تحركت أمامنا منذ مدة.

"أريدك أن تقوم بهذا هنا".

"لا أستطيع". قلت. وأنا أنظر إليه عبر شلال من الدموع، مدركاً مغزى ما يقوله.

" جميع أسلافي ينحدرون من النجف، ولكن لم يدفن أحدن منهم هنا. أطلب منك أن تصحح هذا، وأن تقدم لي خدمة أخيرة. دعني أعش لحظتي الأخيرة هنا".

"ألا تريد رؤية أحفاد أحفادك؟".

"طبعاً أرغب بذلك. ولكنه من المؤلم ألا أتمكن من احتضانهم. هذا ليس أنا، محمد. أنا لست أنا... أعرف هذا الآن. اجلب أولادك إلى هنا، وأحفادك. دعهم يرون هذا المكان الذي نجى قروناً من المعاناة. دعهم يرون المكان الذي اتخذت فيه أصعب قرار في حياتك".

جلست هناك. لا أعرف لكم من الوقت. جدو كان صامتاً.

"حسناً، وليكن. الله وياك، جدو".

"شكرا، يا بني".

فتحت اللوحة على كمي. وعبر اللغات المزروعة، ورقائق الهاتف وموجهات الموقع العصبي، سحبت بطاقة جدي وحملتها في الهواء الطلق. أنزلت رأسي وتركت يداي تقومان بالعمل اللازم، تاركاً المجال أمام القطع بالتناثر على السجاد، مدركاً أن قروناً من الذكريات يتم طمسها

غادرت المزار من دون أن أخبر عباس، متوارياً داخل أول كشك مجوهرات رأيته، لشراء عقد رخيص من التفلون الأزرق البراق. "لمن هذا؟" فكرت مع نفسي، وبدأت بالضحك. ثم، عند انتهاء موجة القهقهة، وقفت خارجاً، ونقرت جبهتي. "اتصل بوالدي".

انتهى

الفهرس

مقدمة بقلم را بيج مدير دار كوما بريس 5
مقدمة بقلم حسن بلاسم 9
القصص 15
عنود: كهرمانة 19
حسن بلاسم: حدائق بابل 35
علي بدر: العريف 61
زهراء الحبوبي: متلازمة بغداد 95
حسن عبدالرزاق: كوسوزيب 117
جلال نعيم: سجن "هنا" و"الآن"! 149
مرتضى كزار: مسجد الداي باي داي 187
ضياء الجبيلي المتكلم 195
خالد كاكي عمليّة دانيال 221
إبراهيم المراشي ناجوفة 229

Telegram: @Arab_Books2

إصدارات ألكا للعام 2017

1 -الشرق الغريب الشرقي المحتال. بيير جوردا. ترجمة: د. مي محمود وعلي بدر.

2- القهوة والأدب. جورج دو لامير. ترجمة: د. مي محمود.

3- ليلة الأسرار. فاضل الربيعي.

4- أيام سادوم المائة والعشرون. الماركيز دو ساد. ترجمة كامل العامري.

5- أنطونيو الوسيم. فيتاليانو برانكاتي. ترجمة: مي محمود.

6- تحت شمس الشيطان. جورج برنانوس. ترجمة: بشرى أبو قاسم.

7- لا أحد على هذا الكوكب سواي. فيوليت أبو الجلد.

8- داروين ومرض الإيدز، صناعة الموت الأسود. سوزان س هنتر.

ترجمة: فرج الترهوني ومحمد المفتي.

9- الجرائم الليلية السوداء. مجموعة من أهم كتاب القصة البوليسية في أميركا

ترجمة: أماني لازار.

10- العراق+ 100 قصص فنطازية عن حال العراق بعد مئة عام من الغزو الأميركي.

11 - ما ترك الشاعر للريح. فلاح الجواهري.

12- الله شفيق بأطفال الروضة. يهودا عميخاي. ترجمة: ماجد الحيدر.

13- الحب المقدس والمدنس في حياة فريدا كاهلو. كلوديا شيفر. ترجمة: محمد الفشتكي.

14- الهيبيز: الجنس الموسيقى والمعرفة المضادة. جمال حيدر .

15- حداثة بغداد في الستينيات. جمال حيدر.

16- حجر الجنون واللغة. جورج شحادة، صلاح ستيتية، نادية تويني وجويس

منصور. ترجمة: علي بدر ومي محمود.

17- ليلة الصليب المعقوف. كاترين بوردكن. ترجمة مأمون الزائدي.

18- أعمدة الملح. فادية الفقير. ترجمة فرج الترهوني.

19- بعد ظهر يوم أحد. رولا الحسين.

20- قبو رطب لثلاثة رسامين. مصطفى تاج الدين الموسى.

Telegram: @Arab_Books2

تمت

11/7/2018

Telegram: @Arab_Books2

Telegram: @Arab_Books2

عشر قصص مميزة لعشرة كتاب عراقيين يكتبون بالعربية والإنكليزية، قصة كهرمانة الهاربة من ولاية حشيش لعنود التي تكتب بالانكليزية، كوسوزب لحسن عبدالرزاق حيث عالم الخيال في أقصى حدوده، وهذه القصة مكتوبة بالإنكليزية أيضا، ثم العريف وهو الجندي الخيالي الذي عاد بعد قرن من مقتله لعلي بدر، فخيال الدوستوبيا قد حول العراق إلى فردوس حقيقي. ثم زهراء الحبوبي التي كتبت متلازمة بغداد، قصة يمتزج فيها الخيال بالواقع، والعلم بالمستقبل، ثم قصة حسن بلاسم الجميلة عن حدائق بابل حيث يحول التاريخ القديم إلى رؤية مستقبلية، بعدها تنقلنا قصة اليوم من يوم الجامع لمرتضى كزار إلى عالم مكثف وغزير، ثم قصة جلال نعيم عن السجن الآن وهنا، بعدها قصة ضياء الجبيلي المتكلم، مزيج من الخيال العلمي والواقعية السحرية، وأخيرا قصتان رائعتان عملية دانيال لخالد كاكي الذي حول كركوك بخياله إلى عالم مختلف تمام، وإبراهيم المراشي الذي حول في قصته ناجوفا النجف والكوفة إلى عالم من العناصر السحرية والجمالية ولكن ممتزجة بالتحليل السياسي المستقبلي.

هل نمتلك خيالا وفنطازيا قادرة على استشراف المستقبل؟ ماذا لو فكرنا بماذا سيحدث للعراق بعد مئة عام من الغزو الأميركي البريطاني الذي حدث في العام **2003** وغير مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية لهذا البلاد الجميلة؟ هذا هو السؤال الذكي الذي طرحته دار كوما بريس البريطانية على **10** كتاب عراقيين، ليكتبوا قصصا مستوحاة من هذا السؤال، فصنعت منه كتابا مبتكرا بموضوعته وكتابته، وعند إصداره في طبعتين واحدة في بريطانيا والأخرى في أمريكا كتبت عنه صحيفة النيويورك تايمز بأنه أفضل كتاب صدر في العام **2016**. لقد تشعب هذا السؤال في قصص العراقيين ليطول خيالهم قرنا كاملا بعد هذه العلامة السياسية الفارقة، وتحول السؤال إلى فضاء وعناصر من الخيال العلمي والفنطازيا والواقعية السحرية. وتشعب السؤال إلى أسئلة أخرى، هل ينعم العراق بالاستقرار والسلام؟ هل ستتغير قيم الناس وعاداتهم وأحوالهم؟ هل سيتحول العراق إلى مجتمع آخر؟ كيف ستكون أوضاعهم العلمية والسلوكية والعمرانية؟

لقد أجابت القصص العشرة بأجوبة مختلفة مستحدثة عناصر حضارية ولغوية وعمرانية متنوعة، تتلاءم مع الصورة المستقبلية للعراق، ومتجاوزة الطريقة التقليدية باستثارة العواطف والمناجيات والتراجيديا، واستبدلتها برؤيا ذات أبعاد خيالية ولكنها تستمد عناصرها أيضا من الواقع، وتمكن القارىء أيضا من النظر إلى الواقع.

قصص جميلة في حبكاتها، رائعة في شخوصها، ومتجاوزة لمراحل عديدة من الأدب الذي بقي أسيرا لمنطيته وأشكاله التقليدية، بل أبهر الكتاب العراقيون في هذه الأنطلوجيا نقاد الأدب في بريطانيا وأميركا.

ISBN 978-1-77322-492-3
9 781773 224923